

أزمة
الخلافة والإمامة
وآثارها المعاصرة
تأليف
د. أسعد القاسم

أزمة الخلافة والإمامة

تأليف

د. أسعد القاسم



بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

(فما اختلفوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم)

قرآن كريم الجاثية: 17

" لا ترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض "

حديث شريف صحيح البخاري

وأعظم خلاف بين الأمة خلاف الإمامة، ما سل سيف في الإسلام على قاعدة دينية مثل ما سل على الإمامية في كل زمان...

محمد بن عبد الكريم الشهرستاني
صاحب موسوعة الملل والنحل

الإهداء

إلى كل من يتطلع بشوق إلى إقامة خلافة راشدة وظهور إمامة حق في هذا الزمان.......
أهدي هذا الكتاب المؤلف

كلمة المركز

يرى الباحث أن الأمة الإسلامية تعيش، في هذه الحقبة من الزمن، أزمة ذات بعدين: أولهما: هوية الذات وتحققها على مستوى الفعالية التاريخية، وثانيهما:

وعي الدين الإسلامي وعياً يتيح هذا الزمان. ويرى أن الخلافات المزمنة، إمكانية تطبيق الشريعة الإسلامية في هذا الزمان. ويرى أن الخلافات المزمنة، بين أهل السنة والشيعة، دليل على وجود تلك الأزمة، وبخاصة أنها تتمثل، في كثير من الأحيان، في اتهامات قائمة على عدم معرفة حقائق الأمور، ما يقتضي بيان هذه الحقائق، في اتهامات قائمة على عدم معرفة حقائق الأمور، ما يقتضي بيان هذه الحقائق بغية تجاوز هذه الأزمة والوصول إلى حوار يفضي إلى الوعي والنهوض.

تعود هذه الخلافات، في أساسها، إلى القضية المركزية، وهي (الإمامة)، وقديماً قال محمد بن عبد الكريم الشهرستاني: (وأعظم خلاف بين الأمة خلاف الإمامة، إذ ما سل سيف في الإسلام، على قائدة دينية، مثل ما سل على الإمامة في كل زمان).

يخاطب الباحث، في هذا كتاب، كل من يتطلع بشوق إلى تجاوز الأزمة، وإقامة خلافة راشدة وظهور إمامة حق في هذا الزمان، فيبحث (أزمة الخلافة والإمامة وآثارها المعاصرة)، فيعود إلى جذور الخلاف، منذ ظهوره، بعد وفاة النبي صلى الله وعليه وآله مباشرة، ويتتبع مساره التاريخي، ما يتيح تبين آثاره المعاصرة وسبل تجاوزه.

يتبع الباحث، في عرضه وتحليله الهادفين إلى معرفة حقائق الأزمة وأدلتها المقنعة، منهجاً تاريخياً نقدياً، موضوعياً، يستند إلى المصادر الأصلية في تقديم الأدلة والبراهين، ويعتمد خطة بحث واضحة متماسكة ولغة سلسة توصل المعاني إلى القارئ بيسر لا يخلو من إمتاع يؤتيه عمق الخطاب ودقته وسهولته.

مركز الغدير للدراسات الإسلامية
بيروت

المقدمة

بدأت تظهر في السنوات الأخيرة، وأكثر من أي وقت مضى بشائر ببداية انحسار أمواج التكفير والتعصب المذهبي الأعمى بين أتباع الفرق الإسلامية، بعد أن لازمتهم هذه الآفات دهوراً طويلة من الزمن.

فمناقشة القضايا الخلافية، والتي يشغل الخلاف السني - الشيعي رأس قائمتها، أصبحنا نراها تدور داخل دائرة الإسلام الواحد والملة الواحدة، ويغلب عليها العقلانية، على عكس ذلك النهج التقليدي المصبوغ بالعاطفة والأحكام المسبقة، والمأسور لحوادث التاريخ والتعصب لرموزه ورجاله، والذي جعل من الإسلام مذاهب متعددة، ومن المسلمين مللاً متباغضة ومعادية لبعضها بعضاً، كما لا زلنا نرى من ذلك شذرات هنا وهناك.

وتزداد أهمية البحث والنظر في مثل هذه القضايا عند كل من يرى جدوى الحل الإسلامي لمشاكل الأمة الإسلامية فضلاً عن مشاكل وأزمات غيرها، ويقول بصلاحية دين الإسلام لكل زمان ومكان. فحري بهؤلاء أن يكونوا على بينة تامة ومعرفة يقينية بتعاليم هذا الدين، وبالدرب الموصل بأمان إلى الشريعة السماوية الحقة كما نزلت نقية ومحكمة.

فبالرغم من كل ما تتمتع به رسالة الإسلام من مقومات ربانية، وتعاليم في غاية اليسر والوضوح والشمول كفيلة بإسعاد البشرية جمعاء، وانتشالها من أوحال الجاهلية والتخلف، فإن أصحاب الرسالة أنفسهم أصبحوا بحاجة لغيرهم لانتشالهم، وطروحات غالبية (الإسلاميين) اليوم أصبحت بعيدة عن الواقع، وعاجزة عن تقديم الحلول العملية والملائمة لطبيعة هذا العصر وظروفه المعقدة والسريعة في التغير، وغاية هذه الطروحات التركيز على شكليات وقشور المفاهيم والأحكام على حساب جوهر الشريعة ومقاصدها الحقيقية.

والنتيجة المأساوية لكل ذلك، أن الدين أصبح ينظر إليه على أنه مجرد أساطير وخرافات، وفي أحسن أحواله شعارات براقة تروج وهو أبعد ما يكون فيه أي صلاحية لزمان أو مكان.

وللتحقق من هذا الواقع، ما علينا إلا إلقاء نظرة سريعة في حال غالبية التنظيمات والحركات التي تأسست بعد انهيار الخلافة العثمانية عام 1924 م ولغاية أيامنا هذه، ورفعت شعار الحل الإسلامي، حيث سنجد أن ما تطرحه من أفكار وبرامج، وإن. جد أي منها - وما تتبناه من أساليب للوصول إلى غاياتها في إقامة الحكم الإسلامي المنشود يشوبه التخبط والفوضى، لا سيما مع تقوقعها على نفسها، وعدم توفرها على بدائل، مما أوصلها إلى حافة الإفلاس الفكري وخسران التأييد الجماهيري.

وأمام هذا الواقع، لا بد لنا وأن نعترف أن أمتنا تعيش اليوم أزمة فهم لهذا الدين، لفقدانها الرؤية الشمولية والمتكاملة، وأزمة هوية لوجود تناقض صارخ بين واقع المسلمين وواقعية الإسلام، الأمر الذي يعمل على تغذية الشكوك والتساؤلات حول إمكانية تطبيق الشريعة الإلهية في هذا الزمان.

وما وجود تلك الخلافات المزمنة بين أهل السنة والشيعة، وما يدور داخل إطار كل فريق من مجادلات ومشاحنات إلا دليل واضح على وجود مثل هذه الأزمة في الفهم، وتلك الأزمة في تحديد الهوية.

هذا الكتاب

وبحثنا هذا على كل حال لم يأت لحل كل هذه المعضلات، وإنما لتبسيط ما أصبح يعد وكأنه من الألغاز المعقدة أمام الباحثين في الخلاف السني - الشيعي، وقد أعياهم النظر في هذه المسألة، وحاروا فيما ينبغي اعتباره خلافاً في أركان العقيدة لا يمكن التهاون فيه أو صرف النظر عنه، أو خلافاً في الفروع وتشعباتها مما يمكن إغفاله وعدم صرف النظر فيه.

فلمواجهة مسألة شائكة مثل هذه، لا سيما وأن خلافات الفريقين قد أخذت مواقعها الدائمة عشوائياً في عقائدهم وأحكامهم ونفوسهم، فإنه في تقديرنا ينبغي البحث أولاً في جذور الخلاف قبل الانتقال إلى الفروع وتشعباتها الكثيرة. فبتشخيص الخلل في الجذور سيسهل تشخيص خلل الفروع تشعباتها ومعالجتها.

وما نعنيه بجذور الخلاف، فهي تلك المسائل الأساسية التي أدى الخلاف حولها إلى تقسيم المسلمين إلى سنة وشيعة، أو تلك المسائل التي انطلق خلاف الفريقين تاريخياً منها، ثم أدى تطور ونضوج الأفكار حولها مع الأيام إلى إعطاء هذين الفريقين شكلهما الدائمين.

ولا أجد مسألة اختلف عليها بين أهل السنة والشيعة من الممكن أن تنطبق عليها مثل هذه المواصفات كمسألة خلافة النبي صلى الله عليه وسلم أو إمامة المسلمين بعده، ويقول الشهرستاني صاحب موسوعة (الملل والنحل) في هذا الصدد: (وأعظم خلاف بين الأمة خلاف الإمامة، إذ ما سل سيف في الإسلام على قاعدة دينية مثل ما سل على الإمامة في كل زمان).

وأما الفروع، فهي الآثار التي ترتبت على حصول أزمة الخلافة والإمامة، أو مخلفاتها ذات الخطورة على الإسلام والمسلمين. وتشعبات هذه الفروع

هي ذلك الكم الهائل من المفاهيم والأحكام الفقهية المختلف عليها بين الفريقين من جهة، وبين كل فريق من جهة أخرى.

وقد اقتصرنا في هذا الكتاب على البحث في جذور هذه الأزمة وآثارها، والمؤيدة ببعض الأمثلة مما اختلف حوله من مفاهيم وأحكام، معتمدين في كل ذلك على أدلة الكتاب والسنة النبوية، ومن خلال النظر في حوادث أهم مرحلة من مراحل تأريخنا الإسلامي، وهي مرحلة صدر الإسلام.

وقد اجتهدنا أن تكون الأدلة مستقاة قدر الامكان من مصادرها الأصلية، ناهجين في ذلك منهجاً علمياً كان همنا الأول والأخير فيه تقصي الحقائق وتثبيت أدلتها، وعرضها بتسلسل منطقي، مع تقديم التحليل اللازم لها والتوفيق الموضوعي فيما بينها، والإضافة عند الضرورة لأقوال العلماء والمفكرين فيها.

وأسلوب البحث عموماً بعيد عن أي تعقيد قد يخطر على بال، ولغته في غاية الوضوح والسلاسة، ولم يكن لنا هم فيها سوى إبراز المعاني والابتعاد عن زخرف القول وبريق العبارات.

خطة البحث

يشمل هذا البحث على مقدمة وتمهيد وأربعة أقسام وخاتمة على النحو التالي:

1) المقدمة: وتم فيها تناول مشكلة البحث وخلفيتها، وهدف البحث وأهميته وأسلوبه وخطته.

2) التمهيد: وفيه تعريف عام بالمعاني اللغوية والاصطلاحية للخلافة والإمامة كما وردت في القرآن الكريم.

3) القسم الأول: وتم فيه طرح موقف التشريع الإسلامي من مسألة الخلافة والإمامة من خلال وجهتي نظر أهل السنة والشيعة، وفي ثلاث نقاط رئيسية أعطي لكل منها فصل مستقلا كما يلي:

الفصل الأول: عرض المعنى الخاص للخلافة والإمامة كما فهمه كل فريق، واستعراض الأدلة التي احتج بها.

الفصل الثاني: عرض منهج كل فريق في معرفة هوية الخلفاء والأئمة، واستعراض الأدلة التي احتج بها.

الفصل الثالث: عرض موقف الفريقين بالنسبة للمؤهلات التي ينبغي توفرها في الخلفاء والأئمة، واستعراض الأدلة التي احتجا بها.

4) القسم الثاني: وتم فيه استعراض الواقع التاريخي لدولة الخلافة والإمامة في صدر الإسلام، وهي الفترة التي رسم فيها شكل الخلافة، وحددت فيها معالمها الدائمة لاستناد غالبية المسلمين على منهج وسلوك الخلفاء والأئمة والصحابة دليلاً ومعياراً للخلافة الحقة. وهذا القسم على ثمانية فصول:

الفصل الأول: خلافة أبي بكر

الفصل الثاني: خلافة عمر

الفصل الثالث: خلافة عثمان

الفصل الرابع: خلافة علي

الفصل الخامس: خلافة الحسن بن علي

الفصل السادس: خلافة معاوية بن أبي سفيان

الفصل السابع: خلافة يزيد بن معاوية

الفصل الثامن: خلافة عبد الله بن الزبير.

5) القسم الثالث: ويقدم الكاتب في هذا القسم طريقته الخاصة في الوصول لمعرفة هوية الخلفاء والأئمة الذين أرادهم الله (جل وعلا) لهذا المنصب، وفي هذه الطريقة مزيج من دليل التشريع وشهادة التاريخ من جهة، والعقل والنقل من جهة أخرى، وكان ذلك على فصلين:

الفصل الأول: مقياس لمعرفة الخلفاء والأئمة.

الفصل الثاني: لمحات من سيرة الخلفاء والأئمة.

6) القسم الرابع: وتم فيه استعراض آثار أزمة الخلافة والإمامة على شريعة الإسلام وواقع المسلمين على مر العصور، وقد أضيف هذا القسم لإخراج البحث من دائرة الصراع المذهبي الضيقة، وإدخاله إلى دائرة الإسلام الأوسع بمعادلة تشخيص ومعالجة أخطر الأمراض التي عانت ولا تزال تعاني منها الأمة الإسلامية سنة وشيعة على السواء. وقد قسمت هذه الآثار أو المخلفات إلى ثلاثة أنواع أعطي لكل منها فصل مستقل كما يلي:

الفصل الأول: الآثار الأولية أو المخلفات المباشرة للأزمة.

الفصل الثاني: أخطر الآثار التي لازمت الأمة على طول تاريخها.

الفصل الثالث: الآثار اللاحقة أو المخلفات التي ظهرت بعصور متأخرة نتيجة للنوعين الأولين.

7) الخلاصة والخاتمة: وتم فيه استعراض أهم ما يمكن استخلاصه واستنتاجه بشأن الخلاف السني - الشيعي بصورة عامة، وأزمة الخلافة والإمامة بصورة خاصة.

د. أسعد القاسم

رحم الله امرءا أهدى إلي عيوبي

as`ad al-qasem
mcpo box 21987
makati city 1261
philippines
telfax: 63-2-8441635

تعريف عام بالخلافة والإمامة

1 - الخلافة

الخلافة لغة هي ما يجئ من بعد، كأن يقال: هو خلف صدق من أبيه.

وتأتي بمعنى النيابة عن الغير كما في الآية الكريمة: (اخلفني في قومي) [الأعراف / 142].

وأما الخلافة اصطلاحاً فقد ذكرت في القرآن لتعبر عن مفهوم في غاية السمو والرفعة وهو اصطفاء الله سبحانه وتعالى من ينوب عنه، ويقوم مقامه في تحمل مسؤولية إعمار الأرض وتسخير مقدراتها وخيراتها، بل وكل ذرات الكون من أجل السير بالبشرية نحو سعادتها الحقيقية. والخلافة بهذا المعنى على ثلاث درجات:

الدرجة الأولى: استخلاف النوع الإنساني لتميزه عن باقي المخلوقات وعناصر الكون الأخرى من ملائكة، وجن، وحيوانات، ونباتات، وجمادات، كما في قوله تعالى:

(ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً) [الإسراء / 70].

(إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً) [الأحزاب / 72].

(هو الذي جعلكم خلائف في الأرض فمن كفر فعليه كفره) [فاطر / 39].

(ولقد مكناكم في الأرض وجعلنا لكم فيها معايش قليلاً ما تشكرون) [الأعراف / 10].

(وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إني أعلم ما لا تعلمون * وعلم آدم الأسماء كلها...) [البقرة / 30].

والاستخلاف في الآية الأخيرة، وكما هو في الآيات التي قبلها ليس لشخص آدم عليه السلام، وإنما للنوع الإنساني (بني آدم)، لأن آدم عليه السلام لم يكن مفسداً في الأرض، ولا سفاكاً للدماء، وكان ذكره في الآية الأخيرة بوصفه الإنسان الأول على هذه الأرض، والذي جعل على عاتقه مسؤولية خلافة الله في الأرض.

الدرجة الثانية: استخلاف قوم أو جماعة بشرية معينة من بين الأقوام أو الجماعات البشرية الأخرى، ولأن الاستخلاف أمانة إلهية، فإن القوم المستخلفين في حالة مخالفتهم لمقتضيات حمل هذه الأمانة، سيتلقون العقاب الإلهي، وتتحول الخلافة عنهم إلى قوم آخرين كما في قوله تعالى:

(إن يشأ يذهبكم ويستخلف من بعدكم ما يشاء) [الأنعام / 133].

(ثم جعلناكم خلائف في الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون) [يونس / 14].

(وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم) [محمد / 38].

ومن أمثلة هذا الاستبدال قوله تعالى بشأن قوم نوح:

(فنجيناه ومن معه في الفلك وجعلناهم خلائف وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا) [يونس / 73]، وقوله تعالى بشأن قوم عاد: (واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح) [الأعراف / 69]، وبشأن قوم ثمود: (واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح) [الأعراف / 69]، وبشأن بني إسرائيل: (يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأني فضلتكم على العالمين) [البقرة / 122]، وبشأن أمة محمد (صلى الله عليه وآله وسلم): (وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس) [البقرة / 144]، وبشأن الباقين الثابتين على الدين الحق: (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم) [النور / 55].

الدرجة الثالثة: استخلاف قائد رباني لتميزه عن بقية أبناء قومه تكون خلافة الله متوجة فيه، ومصونة به من خطر الإفساد في الأرض، وسفك الدماء كما في قوله تعالى: (يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله) [ص / 26].

(ليكون الرسول شهيداً عليكم) [الحج / 78].

ولأن القوم المستخلفين هم ليسوا المالك الحقيقي لما استأمنوا عليه، وأنما هم خلفاء المالك الأصلي، وهو الله (جل وعلا)، فهم ليسوا مطلقي الحرية والتصرف كما شاؤوا بالإمكانات والسلطات الممنوحة إليهم، ودون قائد رباني، فإنهم سينحرفون تماماً عن الخط الإلهي المرسوم، لما تزخر به النفس الإنسانية من نزوات، وأطماع، وحب التسلط.

وهذه الدرجات الثلاث تمثل بمجموعها مفهوم الإسلام الأساس عن الخلافة، وهو يتلخص بإنابة النوع الإنساني في إعمار الأرض وإصلاحها ولكن بتميز أمة أو قوم يختارون (مع إمكانية استبدالهم) للدعوة إلى الله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، على رأسهم قائد رباني يحكم الناس بالشريعة الإلهية.

وقد اشتهر إطلاق تسمية (الخلافة) عند المسلمين وصفاً للحكومات التي خلفت النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) صالحها وفاسدها.

2 - الإمامة

الإمامة لغة هي الانقياد خلف إنسان، والاقتداء بقوله وفعله، وقد وردت كلمة (إمام) في القرآن الكريم لتعبر عن عدة معان، منها:

المعنى الأول: اللوح المحفوظ، كما في قوله تعالى: (وكل شئ أحصيناه في إمام مبين) [يس / 12].

المعنى الثاني: الكتاب السماوي، كما في قوله تعالى: (ويتلوه شاهد منه ومن قبله كتاب موسى إماما ورحمة) [هود / 17].

المعنى الثالث: الطريق الواضح، كما في قوله تعالى بشأن قومي لوط وشعيب: (وإن كان أصحاب الأيكة لظالمين * فانتقمنا منهم وإنهما لبإمام مبين) [الحجر / 78 - 79].

المعنى الرابع: قادة الهداية، كما في قوله تعالى بشأن إسحاق ويعقوب عليه السلام (وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا وأوحينا إليهم فعل الخيرات) [الأنبياء / 73].

المعنى الخامس: قادة الضلال، كما في قوله تعالى بشأن فرعون ومن معه: (وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار ويوم القيامة لا ينصرون) [القصص / 41]، وقوله تعالى: (فقاتلوا أئمة الكفر) [التوبة / 12]، وفي قوله تعالى: يوم ندعو كل أناس بإمامهم فمن أوتي كتابه بيمينه فأولئك يقرءون كتابهم ولا يظلمون فتيلا * ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلاً) [الإسراء / 71 - 72]، دلالة على أن لكل قوم إماماً يدعون به يوم القيامة، وهو إما أن يكون إمام هداية، أو إمام ضلال. ولا يمكن أن يكون معنى (بإمامهم) في هذه الآية هو (كتبهم) كما يفسر بعض، المفسرين، لأن أول كتاب سماوي نزل متضمناً لشريعة إلهية هو كتاب نوح، وهذا سيعني خروج جميع الأقوام التي كانت قبل مجئ النبي نوح عليه السلام من مقصود هذه الآية، وهذا غير ممكن لأن جميع الأقوام ستدعى للحساب يوم القيامة.

وعلى ذلك، فإنه وعلى ضوء هذه الاستخدامات المتعددة لكلمة (إمام) في القرآن الكريم، يمكن استخلاص وتوجيه المفهوم الإلهي للإمامة وصفاً للقادة الربانيين الذين اصطفاهم الله سبحانه وتعالى ليكونوا هداة الناس إلى شريعته على ضوء الكتب والرسالات التي أنزلها على أنبيائه ورسله، فالكتاب في واقع الحال لا يمكن أن يكون مرشداً للناس من بدون إنسان متخصص بحمله، عارفاً بأمره.

وما يؤكد هذا المعنى، وصف الإمامة في آيات أخرى ب (عهد الله) الذي لا يناله سوى المتقين، واستحالته على الظالمين كما في قوله تعالى: (وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال إني جاعلك للناس إماماً قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين) [البقرة / 124]. وبذلك تكون الإمامة بمعناها القرآني الخاص وصفاً لأعلى درجات الخلافة.

وقد اشتهر بين المسلمين إطلاق لقب الإمام وصفاً لحاكم الدولة الإسلامية، وبصورة أوسع للفقهاء وأصحاب المذاهب، ولمن يأتم الناس به في صلاة الجماعة، وحتى أنه يطلق أحياناً في هذا الزمان على رؤساء بعض الحركات والجماعات الإسلامية.

وإجمالاً: فقد استخدمنا في هذا البحث مصطلحي الخلافة والإمامة مترادفين دائماً، للتعبير عن مفهوم واحد، وهو قيادة الأمة الإسلامية وإدارة شؤونها العامة بعد وفاة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم). وما دفعنا إلى استخدام هذا الترادف هو غلبة استخدام مصطلح الخلافة عند أهل السنة، ومصطلح الإمامة عند الشيعة على نحو من التخصيص، وكأنهما مفهومان مختلفين، وما هما كذلك.

القسم الأول
الخلافة والإمامة
في
التشريع الإسلامي

تقديم

على الرغم من أن الخلافة والإمامة بمفهومها العام ـ كما بيناه في التمهيد لهذا البحث ـ هي محل قبول جميع المسلمين، إلا أنه عند التعرض لدراسة خصوصيات هذا المفهوم عند كل من الفرق والمذاهب الإسلامية، تجد أن مسألة الخلافة والإمامة كانت محور الخلاف الأكبر بين المسلمين على مر العصور، وتسببت في حدوث أزمات لا تزال الأمة تعاني من آثارها وترسباتها لغاية يومنا هذا.

وهذه الخصوصيات هي موضوع بحثنا في القسم الأول وهذا البحث، حيث سنقوم بعرض ما شرعه الإسلام حول هذه المسألة كما فهمه المسلمون، كل حسب مشربه، وتحديداً من خلال وجهتي نظر فرقتي أهل السنة والشيعة بوصفهما الفرقتين اللتين لا زالتا تتمتعان بوجود واقعي ومستمر، ويشكل أتباعهما مجموع أبناء الأمة تقريباً.

وسيتم تناول ثلاث نقاط رئيسية تمثل بمجموعها موقف كل فريق تجاه مسألة الخلافة والإمامة، نعرض كلاً منها في فصل مستقل كما يلي:

الأول: ماهية الخلافة والإمامة.

الثاني: هوية الخلفاء والأئمة.

الثالث: مؤهلات الخلفاء والأئمة.

ولكن قبل ذلك كله، ونظراً لسوء الفهم الشائع بين المسلمين، وغلبة الأحكام المسبقة حول الفرق والمذاهب، نقدم صورة موجزة جداً في تعريف كل من هاتين الفرقتين:

أهل السنة

السنة لغة هي الطريقة أو نمط الحياة. والسنة اصطلاحاً هي كل ما روي عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) من قول، أو فعل، أو تقرير أو صفة، خلقية أو خلقية. فيكون المعنى الظاهري أو المفهوم المجرد لكلمتي (أهل السنة) الأتباع الذين يقتدون بالسنة النبوية المطهرة.

وأما (أهل السنة) المصطلح المتداول بين الناس، فهو تسمية لفرقة إسلامية كبيرة يعتقد أتباعها بأركان الإسلام الخمسة وهي: الشهادتان، والصلاة، والصيام، والزكاة، والحج (ويضيف بعضهم الجهاد ركناً سادساً)، وبأركان الإيمان الستة وهي: الإيمان بالله، وملائكته، ورسله، وكتبه، واليوم الآخر، والقضاء والقدر خيره وشره.

ويرى أهل السنة أن الله (سبحانه وتعالى) اختار واصطفى الصحابة ليكونوا حملة الرسالة وحفظتها ومعلميها بعد رحيل المصطفى (صلى الله عليه وآله وسلم) إلى الأجيال اللاحقة، لأنهم - كما يرونهم - كانوا جميعاً في أعلى درجات الصلاح والتقوى، ولا يجوز نقدهم، أو مجرد الشك بصحة أو صدق ما يروونه من حديث رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم).

ويشكل أهل السنة غالبية أبناء الأمة في وقتنا الحاضر.

الشيعة

التشيع لغة من المشايعة أي المناصرة والموالاة، والشيعة هم الأتباع والأنصار المجتمعون على فكر واحد، وموقف واحد. وقد استخدم هذا اللفظ في القرآن الكريم بمعنى المناصرة والموالاة كما في قوله تعالى: (وإن من شيعته لإبراهيم) [الصافات / 83]، وقوله تعالى: (ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته وهذا من عدوه) [القصص / 15]. وقال الشاعر حسان بن ثابت في مدح النبي (صلى الله عليه وآله وسلم):

وأما الشيعة اصطلاحاً فهي الفرقة التي يعتقد أتباعها بأركان إسلام أهل السنة وإيمانهم نفسها، ولكن باختلافات طفيفة في تفاصيل بعضها. ولكن ما ميز الشيعة عن أهل السنة بصورة رئيسية هو نظرتهم للخلافة والإمامة كركن هام من أركان الاعتقاد، وما تضمنه هذا الخلاف من تفاصيل وتفرعات.

ويعتقد الشيعة أن الله (سبحانه وتعالى): اختار أهل البيت عليه السلام واصطفاهم ليكونوا حملة الرسالة الإسلامية وحفظتها ومعلميها إلى الأجيال اللاحقة بعد رحيل النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، لأنهم - كما يرونهم - قد خصهم الله بمواصفات استثنائية من التسديد في العلم والتطهير من كل رجس وإثم.

ويشكل الشيعة في عصرنا ما لا يقل عن ربع خمس تعداد المسلمين.

الفصل الأول
ماهية الخلافة والإمامة

عند أهل السنة

يغلب على تعريفات الخلافة أو الإمامة عند علماء أهل السنة قديمهم وحديثهم إعطاء الطابع التنظيمي والتنفيذي لرئاسة الدولة الإسلامية، ولحفظ وتحقيق مصالح الناس على هدى مبادئ الشريعة (1). وهذا يشمل إقامة الحدود، وتدبير أمور الأمة، وتنظيم الجيوش، وسد الثغور، وردع الظالم وحماية المظلوم، وقيادة المسلمين في حجهم وغزوهم وتقسيم الفئ بينهم (2).

وهم بذلك لا يعترفون بفصل الدين عن الدولة وسياستها وشؤونها الإدارية، بل يعتبرون أنهما قائمان على بعضهما بعضا. ومن هذا المبدأ الأساس ينطلق مفهوم الحاجة إلى القيادة الإسلامية. ويقول ابن تيمية في ذلك: (يجب أن يعرف أن ولاية أمر الناس من أعظم واجبات الدين، بل لا قيام للدين إلا بها. فإن بني آدم لا تتم مصلحتهم إلا بالاجتماع لحاجة بعضهم إلى بعض، ولا بد لحراسة الدين من رأس) (3).

ويبين الماوردي الدور الخطير الذي يلعبه الإمام بشأن حراسة الدين بقوله: (فليس دين زال سلطانه إلا بدلت أحكامه، وطمست أعلامه، وكان لكل زعيم بدعة، ولكل عصر فيه وهية أثر، وكما أن السلطان إن لم يكن على

---

(1) محمد سليم العوا: في النظام السياسي للدولة الإسلامية، ص 126 - 127.
(2) الماوردي: الأحكام السلطانية، ص 15 - 16.
(3) ابن تيمية: السياسة الشرعية، ص 165.

دين تجتمع به القلوب حتى يرى أهله الطاعة فيه فرضاً، والتناصر عليه حتماً لم يكن للسلطان لبث، ولا لأيامه صفو، وكان سلطان قصر أو مفسد دهر.

ومن هذين الوجهين وجب إقامة إمام يكون سلطان الوقت وزعيم الأمة، فيكون الدين محروساً بسلطانه، والسلطان جارياً على سنن الدين وأحكامه) (1).

وبالرغم من هذا التزاوج الواضح بين الدين والدولة بحيث إن صلاح أحدهما لا يكون إلا بصلاح الآخر، فإن موقع النظر في مسألة ولاية أمر المسلمين المتمثلة بالخلافة والإمامة لا ينسجم مع أهميتها العظمى هذه ويصنفها العلماء القدماء من أهل السنة ليس ضمن فروع الدين وأحكام الفقه فقط، وإنما يحثون على عدم خوض الكلام والبحث فيها أيصاً، لما قد يجلب ذلك من انتقاد بحق الخلفاء لا سيما الأوائل منهم! فيقول الغزالي: (إعلم أن النظر في الإمامة ليس من المهمات، وليس أيضاً من فن المعقولات (بمعنى أنه ليس من العقائد) بل من الفقهيات. بل إنها مثار للتعصبات، والمعرض عن الخوض فيها أسلم من الخائض فيها وإن أصاب، فكيف إذا أخطأ؟) (3).

وللآمدي رأي مطابق للرأي السابق يقول فيه: (واعلم أن الكلام في الإمامة ليس من أصول الديانات، ولا من الأمور الأبديات بحيث لا يسع المكلف الاعتراض عنها والجهل بها، بل لعمري إن المعرض عنها أرجى من الواغل فيها. فإنها قلما تنفك عن التعصب، والأهواء، وإثارة الفتن، والشحناء، والرجم بالغيب في حق الأئمة والسلف بالازراء، هذا مع كون الخائض فيها سالكاً سبيل التحقيق، فكيف إذا كان خارجاً عن سواء الطريق؟) (3).

وقد انطلق هذا الاعتبار بفرعية الخلافة والإمامة عند أهل السنة وتهميش موقعها ضمن تعاليم الدين من اعتقادهم بعدم تدخل الشريعة من الأساس بتعيين

(1) الماوردي: أدب الدين والدنيا، ص 111.
(2) أبو حامد الغزالي: الإقتصاد في الاعتقاد، ص 234.
(3) الآمدي: غاية المرام في علم الكلام، ص 234.

من يخلف النبي عليه السلام، وإنما يرون أن هذا الأمر قد أوكل إلى الصحابة ابتداء، وإلى الناس في كل عصر ليختاروا أولياء أمورهم استناداً إلى قوله تعالى: (وأمرهم شورى بينهم) [الشورى / 38].

ويستنتج من كل ذلك، أن الخلافة والإمامة في جوهرها منصب سياسي وتنفيذي لتطبيق حدود الشريعة، وحفظ مصالح العباد ومحاربة الأعداء. ولا تقع على عاتق هذا المنصب مسؤولية حفظ الدين أو تفسير ما غمض من حقائقه، أو تبيان حدوده وتوضيح معالمه وغير ذلك من الأمور المتعلقة بفهم الشريعة وتفهيمها.

وأما قول علماء أهل السنة بتحمل الخليفة مسؤولية حراسة الدين، فإنما يقصد من ذلك الدفاع عن وجود الدين ضد أي تهديد سياسي أو عسكري قد يستهدف اجتثاثه أو الإطاحة بالنظام الحاكم، وهو بذلك دفاع عن المجتمع الإسلامي، أو الحكومة الإسلامية ضد أي خطر داخلي أو خارجي ليس إلا.

عند الشيعة

يعطي الشيعة لمنصب الخلافة أو الإمامة دوراً أكثر - (دينياً) - مما يعطيه أهل السنة، وذلك لأنها تعتبر عندهم الخلافة الإلهية في الأرض، ومهمة الإمام الأساسية استخلاف النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في وظائفه من هداية البشر وإرشادهم إلى ما فيه صلاحهم وسعادتهم في الدنيا والآخرة. فالإمام هو الذي يفسر لهم القرآن، ويبين لهم المعارف والأحكام ويشرح لهم مقاصد الشريعة، ويصون الدين من التحريف والدس، وله الولاية العامة على الناس في تدبير شؤونهم ومصالحهم، وإقامة العدل بينهم وصيانتهم من التفرقة والاختلاف.

فالإمامة بذلك تعد منصباً إلهياً، واستمراراً للنبوة في وظائفها باستثناء كل ما يتعلق بالوحي. وهي بهذا المفهوم أسمى من مجرد القيادة والزعامة في أمور السياسة والحكم، ولا يمكن الوصول إليها عن طريق الشورى أو

الانتخاب، بل لا بد أن يكون تنصيب الإمام بتعين من الله (سبحانه وتعالى) على لسان نبيه (صلى الله عليه وآله وسلم).

ويرى الشيعة أن الشورى حسب الآية (وأمرهم شورى بينهم) [الشورى / 38]. لا تصح إلا في الأمور التي لم يرد فيها حكم من الله ورسوله، وأما مسألة تعيين أو اختيار ولاية أمر المسلمين بعد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فهي مما كان للشريعة الحكم القطعي فيها.

ولذلك، فالشيعة يعتبرون الإمامة أصلاً من أصول الدين لا يكتمل الإيمان إلا بالاعتقاد الصادق بإمامة الأئمة أو الخلفاء المعينين من الله ورسوله، وأن تشريعها كان (لطفاً) من الله بعباده، لأن المسلمين لم يكونوا مؤهلين لسد الفراغات التي خلفها النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بغيابه. فالحقبة الزمنية التي قضاها بينهم تعد قصيرة لإعداد أمة كاملة إعداداً كافياً، يؤهلها لإدارة وتدبير شؤونها الدينية والدنيوية بعده، وخصوصاً إذا كان الأمر متعلقاً بإعداد أمة قد ترسخت فيها عادات المجتمع الجاهلي ووحشيته، والذي كانت تحكمه لا أقل من شريعة الغاب فضلاً من أن الغالبية العظمى ممن أسلموا قد تلفظوا بالشهادتين بعد فتح مكة وأواخر حياة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم). فإعداد هكذا أمة لا يمكن أن يتم خلال تلك الحقبة الزمنية القصيرة، لا سيما إذا علمنا أن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قضى أكثر من نصف عمر دعوته في مكة يدعو الناس إلى قول كلمة التوحيد لا غير، ولم يقلها منهم إلا القليل، وقضى ما تبقى من عمر الدعوة في المدينة وكان شغله الشاغل فيها الدفاع عن الإسلام كوجود مهدد بالفناء، وقد أخذت الحروب والغزوات الكثيرة من المسلمين كل مأخذ، والتي محص بعضها - كموقعتي أحد وحنين على سبيل المثال - مدى تغلل الإيمان في نفوسهم!

ولهذه الأسباب يرى الشيعة أن الله (سبحانه وتعالى) لم يطلب من رسوله سوى تبليغ الرسالة للناس، وإقامة الحجة عليهم بها لقوله جل وعلا: (فإن

توليتم فاعلموا أنما على رسولنا البلاغ المبين) [المائدة / 92] وقوله تعالى:

(فإن أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظاً إن عليك إلا البلاغ) [الشورى / 48].

فالحفيظ المقصود في هذه الآية هو المسؤول عن هداية الناس وتعليمهم، كما في قوله تعالى أيضاً: (إنما أنت منذر ولكل قوم هاد) [الرعد / 7].

واعتماداً على هذه الآيات وغيرها يرى الشيعة أن دور الخلافة والإمامة في كل عصر (لكل قوم هاد) هو هداية الإنسان وإصلاح الفرد والمجتمع من خلال حمل الرسالة وحفظها من تحريف المحرفين، وتشكيك المشككين، وإلا فما هي فائدة سلامة تبليغ هذه الرسالة إذا لم تحفظ بعد رحيل مبلغها بأيد أمينة؟ على أن ما حدث للشرائع السابقة فيه الإجابة الوافية على هذا التساؤل، حيث كان أتباعها يأخذون معالم شرائعهم بعد رحيل أنبيائهم عن أي من كان، فحصل التحريف الذي أخبر عنه العلي الحكيم: (أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون) [البقرة / 75].

وهكذا يرى الشيعة أيضا أن قوله تعالى: (يوم ندعوا كل أناس بإمامهم) [الإسراء / 71] وقول النبي (صلى الله عليه وآله وسلم): (من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية) (1) إنما هو للتأكيد على أن أهداف رسالة الإسلام بعد رحيل المصطفى (صلى الله عليه وآله وسلم) لا يمكن أن تتحقق إلا من خلال إمامة الخلفاء الهادين المرشدين: (أفمن يهدي إلى الحق أحق أن يتبع أمن لا يهدي إلا أن يهدى فما لكم كيف تحكمون) [يونس / 35].

---

(1) ستجد مصادر هذا الحديث وتفاصيل بشرحه في الفصل الأول من القسم الثاني.

الفصل الثاني
هوية الخلفاء والأئمة

عند أهل السنة

عند تدخل الشرع بالمسألة

لقد تأسست نظرية الخلافة والإمامة عند أهل السنة على أساس عدم وجود أي نص في تعيين من يخلف النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، وترك أمر اختيار الخليفة للناس وبالأسلوب الذي يرونه مناسباً، محتجين بقوله تعالى: (وأمرهم شورى بينهم) [الشورى / 38].

ويرى أهل السنة - أيضاً - أن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قد أهمل تحديد ذلك لئلا يحرج المسلمين بالتقيد بنمط خاص من أنماط الحكم أو اختيار الحاكم، وذلك يرجع لتطور الزمن وأساليب الحياة التي اختلفت وتعددت مقارنة بما كان عليه الحال في عهده (صلى الله عليه وآله وسلم). ويقول الكاتب المصري المعاصر الدكتور محمد سليم العوا في هذا الشأن: (من الثابت تاريخياً أن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) لم يعين للمسلمين من يقوم بأمر الدولة الإسلامية بعد وفاته، بل لم يحدد الطريقة التي تتبع في اختيار الحاكم بعده، وإنما أوضح للمسلمين القواعد العامة التي يجب أن يراعيها الحاكم في سيرته.

وبين الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) بسيرته وأقواله المثل العليا التي يجب التمسك بها والمحافظة عليها من جانب الحاكم والمحكومين على السواء، دون أن يتضمن ذلك الجانب من سنة الرسول، كما لم تتضمن نصوص القرآن الكريم تفصيلاً لنظام الحكم الذي يجب أن يطبق في الدولة الإسلامية إذ اكتفى في هذا الصدد بالقواعد العامة فحسب) (1).

---

(1) محمد سليم العوا، في النظام السياسي للدولة الإسلامية، ص 71.

وأضاف: إن الإمام الجويني ذهب إلى مثل هذا الرأي عندما يقرر أن (معظم مسائل الإمامة عرية عن مسالك القطع، خلية عن مدارك اليقين) (1).

وبعد قول أهل السنة بعدم وجود نصوص في تعيين من يخلف النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أو في طريقة اختياره وشروط انعقاد البيعة له، فإنهم ذهبوا للاستدلال بأقوال الصحابة وأفعالهم في تشريع القوانين ووضع النظريات في هذه المسائل. وهم يجمعون على كل حال على الاعتقاد بأن الإمامة الحقة تمثلت بخلافة أبي بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، على حسب ترتيب أفضليتهم عندهم، وسموهم بالخلفاء الراشدين. ويعتبرون أيضاً شرعية الخلفاء ممن جاءوا بعدهم كالخلفاء الأمويين، والعباسيين، والعثمانيين، ولم يستثن من هذا الاعتبار سوى قلة نادرة كالخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز الذي عد خليفة راشدياً خامساً.

وعلى وبالرغم من إجماع أهل السنة بعدم وجود أي نص باستخلاف أي أحد بعد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، إلا أن غالبيتهم قالوا إنه ألمح باستخلاف أبي بكر وشذ بعضهم وقالوا إنه (صلى الله عليه وآله وسلم) نص على خلافة أبي بكر، فأما القائلون بالتلميح، فهو لاستنادهم على ما روته عائشة عندما سئلت من كان النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) مستخلفاً لو استخلفه؟ قالت: أبو بكر، فقيل لها: ثم من بعد أبي بكر؟ قالت: عمر، ثم قيل لها: من؟ قالت: أبو عبيدة بن الجراح، ثم انتهت إلى هذا (2). وروت عائشة أيضاً أن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) قال لها في مرضه الأخير:

(ادع لي أبا بكر وأخاك حتى أكتب كتاباً، فإني أخاف أن يتمنى متمن ويقول قائل: أنا أولى، ويأبى الله والمؤمنون إلا أبا بكر) (3).

---

(1) عبد الملك الجويني، غياث الأمم، ص 75.
(2) صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل أبي بكر، ج 5 ص 247.
(3) المصدر السابق، ص 248.

وأما الشاذون بالقول بنص الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) باستخلاف أبي بكر كابن حزم، وابن حجر، فهو لاستنادهم إلى روايات ضعفها علماء الفريقين. ومنها ما نسب إلى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أنه قال لامرأة:

(إن جئت فلم تجديني فأت أبا بكر الخليفة من بعدي) (1).

ومنها أيضاً: (يكون خلفي اثنا عشر خليفة، أبو بكر لا يلبث إلا قليلاً) (2).

ومنها: (إني لا أدري ما قدر بقائي فيكم فاقتدوا باللذين من بعدي أبي بكر وعمر) (3).

ومن هذه الروايات المشكوك في صحتها أيضاً ما نسب إلى الإمام علي عليه السلام أنه قال: (لما قبض رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فوجدنا النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قد قدم أبا بكر في الصلاة، فرضينا لدنيانا من رضي رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) لديننا، فقدمنا أبا بكر) (4).

طرق انعقاد الخلافة

تنعقد الخلافة أو الإمامة عند أهل السنة بإحدى الطريق التالية:

1 - إختيار أهل الحل والعقد

وأهل الحل والعقد هم بمثابة أعضاء مجلس الشورى الذي يمثل الأمة في عملية اختيار الخليفة، ولم يشترط في ذلك عدد معين منهم، فضلاً عن الإجماع، ويذهب معظم علماء أهل السنة إلى تجويز انعقاد البيعة للخليفة ولو بمبايعة شخص واحد له من أهل الحل والعقد.

---

(1) ابن حجر الصواعق المحرقة، ص 20.
(2) المصدر نفسه، ص 20.
(3) المصدر نفسه، ص 20. (4) ابن الجوزي: صفوة الصفوة.

يقول الجويني: (.. فإذا لم يشترط الإجماع في عقد الإمامة لم يثبت عدد معدود، ولا حد محدود، فوجه الحكم بأن الإمامة تنعقد بعقد واحد من أهل الحل والعقد) (1). ويقول القرطبي: (فإن عقدها واحد من أهل الحل والعقد، فذلك ثابت ويلزم الغير فعله. (وهذا) خلافاً لبعض الناس حيث قالوا: لا تنعقد إلا بجماعة من أهل الحل والعقد، ودليلنا أن عمر عقد البيعة لأبي بكر ولم ينكر أحد من الصحابة ذلك!) (2).

وقال عضد الأيجي: (بل الواحد والاثنان من أهل الحل والعقد كاف، لعلمنا أن الصحابة مع صلابتهم في الدين اكتفوا بذلك كعقد عمر لأبي بكر) (3) وقال آخرون: (أقل ما تنعقد به الإمامة منهم خمسة يجتمعون على عقدها، أو يعقدها أحدهم برضا الأربعة استدلالاً بأن عمر جعل الشورى في الستة ليعقد لأحدهم برضا الخمسة) (4).

2 - عهد من الخليفة السابق:

وفي هذه الطريقة يجوز للخليفة أن يعهد بالخلافة لمن شاء ليجعله خليفة بعده، فتنعقد الإمامة بذلك. فيقول التفتازاني على سبيل المثال: أن هذا الاستخلاف يعد بمنزلة الشورى، ودليله على ذلك عهد أبي بكر بالخلافة إلى عمر (5). ويدخل في ذلك أيضا العهد إلى مجموعة من أهل الحل والعقد ليختاروا واحداً منهم إماماً. واستدل على ذلك من فعل عمر عندما عهد بالخلافة إلى ستة.

ويرى بعض العلماء من أهل السنة أن شرعية خلافة يزيد قد اعتبرت انطلاقاً من هذا الأساس (الشرعي) المستنبط من فعل الصحابة لأنها كانت

(1) عبد الملك الجويني، الإرشاد، ص 424.
(2) تفسير القرطبي، ج 1 ص 260.
(3) الأيجي، المواقف، ص 400.
(4) الماوردي، الأحكام السلطانية، ص 7.
(5) التفتازاني، شرح المقاصد، ص 272.

أيضاً بعهد من أبيه معاوية بن أبي سفيان وهو صحابي لا يجوز نقده، ثم كانت (خلافة يزيد) بمبايعة من بعض الصحابة ورضاهم كعبد الله بن عمر وهو أيضاً لا يجوز نقده، بل يجب الاقتداء بما فعله ورضي به!

3 - الغلبة والقهر:

وتكون هذه الطريقة بأخذ الخلافة بالقوة كما في حال الانقلاب العسكري. ويقول التفتازاني: (وتنعقد الإمامة بالقهر والاستيلاء، فإذا مات الإمام وتصدى للإمامة من يستجمع شرائطها من غير بيعة (أهل الحل والعقد) أو استخلاف (بعهد من الإمام السابق) وقهر الناس بشوكته، انعقدت الخلافة له) [1].

ويقول الشربيني: (والطريق الثالث [يكون] باستيلاء شخص متغلب على الإمامة جامع للشروط المعتبرة في الإمامة على الملك بقهر وغلبة بعد موت الإمام لينظم شمل المسلمين. أما الاستيلاء على [إمامة الخليفة] الحي ففيه أمران: فإذا كان هذا الخليفة الحي متغلباً (بمعنى أنه وصل إلى الخلافة عن طريق الغلبة والقهر) انعقدت إمامة المتغلب عليه، وإن كان إماماً ببيعة أو بعهد من الإمام السابق لم تنعقد إمامة المتغلب عليه) [2].

---

(1) المصدر نفسه.

(2) الشربيني، مغني المحتاج، ج 4 ص 131 - 132.

عند الشيعة

لقد تأسست نظرية الخلافة والإمامة عند الشيعة على أساس وجود نص من الله تعالى على لسان نبيه محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) في تعيين هوية الخلفاء والأئمة، فالشيعة يعتقدون أن الخلافة الحقة قد نص عليها بأوثق الأدلة وأوضح العبارات في علي بن أبي طالب ابتدأ، والأئمة من أهل البيت عليه السلام بصورة عامة، ولا تخرج الإمامة من نسلهم أبد الدهر، والذي سيكون آخرهم الإمام محمد المهدي (المنتظر).

وفيما يلي نقدم ما احتج به الشيعة من نصوص رئيسية ومدلولاتها عندهم في معرفة الخلفاء والأئمة، وهي على نوعين:

أولاً: النصوص في إمامة أهل البيت.

ثانياً: النصوص في إمامة علي بن أبي طالب

إمامة أهل البيت

يمكن استخلاص الأدلة التي يحتج بها الشيعة في إمامة أهل البيت، والآراء والتفسيرات التي يقدمونها في ذلك كما يلي:

عدول الكتاب:

أخرج الترمذي، بسنده عن جابر بن عبد الله، أنه سمع رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يقول: (أيها الناس إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا كتاب الله وعترتي أهل بيتي) [1].

وكان قوله (صلى الله عليه وآله وسلم) كما أخرج ذلك مسلم في صحيحه: (ألا أيها الناس فإنما أنا بشر يوشك أن يأتي رسول ربي فأجيب، وإني تارك فيكم ثقلين، أولهما: كتاب

---

(1) صحيح الترمذي، ج 2 ص 308.

الله فيه الهدى والنور فخذوا بكتابه الله واستمسكوا به، وأهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي) (1).

ومن هذا الحديث الذي يسلم علماء الفريقين بصحته يفهم أنه وعلى الرغم من أن الله (سبحانه وتعالى) أنزل القرآن على نبيه بأحكم صور التمام والكمال (ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شئ) [النحل / 89] و (ما فرطنا في الكتاب من شئ) [الأنعام / 38]. إلا أنه لم يكن كافياً لضمان هداية الناس وإبعادهم من الضلال. لماذا؟

يجيب الشيعة عن ذلك بالقول: إن عقول الناس قاصرة عن إدراك أسرار الكتاب ومغازيه والإحاطة بجميع جوانبه (تبياناً لكل شئ)، فكان لا بد وأن يكون لهذا الكتاب من مرافق يقوم بهذه المهمة التوضيحية للناس (هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وآخر متشابهات فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم) [آل عمران / 7]. وهؤلاء الراسخون في العلم كما يوصفوا في موضع آخر (إنه لقرآن كريم * في كتاب مكنون * لا يمسه إلا المطهرون) [الواقعة / 77 - 79].

فكما أن التمسك بالكتاب لا يعني الإمساك به أو القبض عليه باليد، فإن (مس) الكتاب في هذه الآية لا يعني مجرد لمسه باليد، وإنما نزلت فيمن يحق لهم تفسير الكتاب وتأويله، والذين تدخلت الإرادة الإلهية بتطهيرهم (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً) [الأحزاب / 33].

وحتى أن علماء الحديث عند أهل السنة يرون أن الحديث (صلى الله عليه وآله وسلم) (... كتاب الله وعترتي أهل بيتي) والمشهور بحديث الثقلين، أصح مما رواه

(1) صحيح مسلم، كتاب الفضائل، باب فضائل علي، ج 5 ص 272، ط دار الثعب.

أبو هريرة عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قال: (إني قد خلفت فيكم ما لن تضلوا بعدهما أبداً ما أخذتم بهما أو عملتم بهما: كتاب الله، وسنتي) (1). فهذه الرواية التي أخرجها الحاكم في مستدركه ليس فقط يقدم عليها حسب إجماع العلماء (2) ما رواه مسلم في صحيحه (... كتاب الله وعترتي أهل بيتي) في حالة تناقضهما لأنها أوثق سنداً، وإنما أيضاً لعدم وضوح مفاد متنها. فجميع الفرق الإسلامية تقول بالتمسك بالسنة النبوية، ولكن لاختلاف هذه الفرق وتناقضها مع بعضها في كثير من المسائل يجعل لكل منها سنة مختلفة عن السنن الأخرى، فأي من هذه السنن هي سنة محمد (صلى الله عليه وآله وسلم)؟

ومن الأحاديث التي يحتج بها الشيعة تأييداً لحديث الثقلين، قوله (صلى الله عليه وآله وسلم): (مثل أهل بيتي فيكم مثل سفينة نوح من ركبها نجا، ومن تخلف عنها غرق) (3)، وقوله (صلى الله عليه وآله وسلم): (النجوم أمان لأهل الأرض من الغرق، وأهل بيتي أمان لأمتي من الاختلاف) (4).

من هم أهل البيت؟

وقد اختلف المسلمون أيضاً في تحديد هوية أهل البيت، ويقول الشيعة:

إن أهل بيت النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) هم: علي، وفاطمة، والحسن، والحسين، ويحتجون في ذلك بالأحاديث التالية:

فمن صحيح مسلم بالإسناد إلى عائشة قالت: (خرج رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وعليه مرط مرحل من شعر أسود، فجاء الحسن بن علي فأدخله، ثم جاء الحسين

---

(1) المستدرك للحاكم، ج 1 ص 93.
(2) لقد ضعف هذه الرواية كل من البخاري، والنسائي، والذهبي، وغيرهم، وذكر الدكتور أحمد بن حمدان (السني) في تحقيقه لكتاب (شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة) ص 80 بشأن توثيق هذا الحديث: سنده ضعيف، وقال يحيى: ليس بشئ ولا يكتب حديثه، وقال البخاري: منكر الحديث، وقال النسائي: متروك).
(3) المستدرك على الصحيحين للحاكم، ج 2 ص 343، ح 4715.
(4) المصدر نفسه، ج 3 ص 149.

فدخل معه، ثم جاءت فاطمة فأدخلها، ثم جاء علي فأدخله، ثم قال: (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً) (1).

ومن صحيح مسلم أيضاً، قال سعد بن أبي وقاص: (لما نزلت الآية:

(فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم..) [آل عمران / 61] دعا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) علياً، وفاطمة، وحسناً، وحسيناً، فقال:

اللهم هؤلاء أهلي) (2). وقد نزلت هذه الآية في حادثة المباهلة مع نصارى نجران، حيث إن (أبناءنا) إشارة إلى الحسن والحسين، و (نساءنا) إشارة إلى فاطمة، و (أنفسنا) إشارة إلى علي، لقوله (صلى الله عليه وآله وسلم) لعلي: (أنت مني وأنا منك).

ومن صحيح الترمذي، بالإسناد إلى عمرو بن أبي سلمة ربيب النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قال: (لما نزلت الآية (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً) [الأحزاب / 33] في بيت أم سلمة، دعا الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) فاطمة، وحسناً، وحسيناً، وعلي خلف ظهره، فجللهم بكساء ثم قال: (اللهم هؤلاء أهل بيتي فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا. قالت أم سلمة: وأنا معهم يا نبي الله؟ قال: أنت على مكانك وأنت على خير) (3).

وفي مسند أحمد، تروي أم سلمة زوج النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال لفاطمة: (ائتيني بزوجك وابنيك) فجاءت بهم، فألقى عليهم كساء فدكياً، ثم وضع يده عليهم ثم قال: (اللهم إن هؤلاء آل محمد، فاجعل صلواتك وبركاتك على محمد وآل محمد، إنك حميد مجيد). قالت أم سلمة:

فرفعت الكساء لأدخل معهم فجذبه النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) من يدي وقال: إنك على خير) (4).

---

(1) صحيح مسلم، كتاب الفضائل، باب فضائل الحسن والحسين، ج 5 ص 287.
(2) صحيح مسلم، كتاب الفضائل، باب فضائل علي، ص 268.
(3) صحيح الترمذي، ج 2 ص 209.
(4) مسند أحمد، ج 6 ص 306.

وفي صحيح مسلم أيضاً، عن زيد بن أرقم قال: (... فقلنا من أهل بيته؟

نساؤه؟ قال: لا، وأيم والله إن المرأة تكون مع الرجل العصر من الدهر ثم يطلقها فترجع إلى أبيها وقومها. أهل بيته أصله وعصبته الذين حرموا الصدقة بعده) (1).

ولكن أهل السنة يحتجون بالآيات التالية من سورة الأحزاب دليلاً على أن نساء النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) هن أيضاً من أهل البيت: (يا أيها النبي قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحاً جميلاً وإن كنتن...) [الأحزاب / 28] إلى قوله تعالى: (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً) [الأحزاب / 33]. ولكن الشيعة يردون ذلك من عدة وجوه منها:

إن مجئ آية تطهير أهل البيت ضمن سياق الآيات النازلة في نساء النبي لا يعني بالضرورة أن يكون المقصود فيهما واحدا، ذلك أنه يوجد العديد من آيات الكتاب الكريم التي تحوي الواحدة منها أمرين مختلفين تماماً عن بعضهما. ومن أمثلة ذلك قوله تعالى:

(حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع إلا ما ذكيتم وما ذبح على النصب وأن تستقسموا بالأزلام ذلكم فسق اليوم يئس الذين كفروا من دينكم فلا تخشوهم واخشون اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً فمن اضطر في مخمصة غير متجانف لإثم فإن الله غفور رحيم) [المائدة / 3].

ومن وجه آخر: فقد جاء ضمير المخاطب لمن شملهم التطهير ب (عنكم، يطهركم) وليس بغير المخاطب لجمع المؤنث (عنكن - يطهركن)، كما جاء في المواضع السابقة لذلك والتي خوطبت بها نساء النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ب (كنتن، منكن، لستن، تخضعن، وقرن... الخ).

---

(1) صحيح مسلم، كتاب الفضائل، باب فضائل علي، ج 5 ص 274.

ومن وجه ثالث: فإن علياً، وفاطمة، والحسن، والحسين، وحدهم استحقوا تحية (عليهم السلام) دون غيرهم من الصحابة ونساء النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، مما يشير إلى خاصية وميزة فوق عادية ومن الأمثلة على ذلك كما أوردها البخاري: (عن علي عليه السلام، قال: كانت لي... إلى قوله: فلما أردت أن أبني بفاطمة عليه السلام بنت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)...) (1) وأيضاً: (وطرق النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) باب فاطمة وعلي عليه السلام ليلة الصلاة) (2)، وكذلك: (.. قال:

رأيت النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، وكان الحسن بن علي عليه السلام يشبهه) (3).

وهذه المزايا الاستثنائية لأهل البيت عليه السلام جعلتهم يقارنون بآل إبراهيم عليه السلام كما يروي البخاري بسنده عن عبد الرحمن بن أبي ليلى، قال:

(إن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) خرج علينا فقلنا: يا رسول الله، قد علمنا كيف نسلم عليك، فكيف نصلي عليك؟ قال: قولوا اللهم صل على محمد وآل محمد، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد) (4).

إمامة علي بن أبي طالب عليه السلام

لقد أحاط الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) علياً منذ صغره بعناية خاصة، حيث تولى تربيته وإعداده، ودأب على الإشادة بمكانته وفضائله في كثير من المواقف حتى قام بتنصيبه رسمياً حسب اعتقاد الشيعة ليكون خليفة وإماماً للأمة بعده. ومن أشهر وأهم ما يقدمه الشيعة من أدلة على ذلك ما يلي:

1 - بلاغ الغدير

بعد أن أدى الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) حجه الأخير في السنة الحادية عشرة للهجرة، والتي عرفت ب (حجة الوداع) وحضرها معه ما لا يقل عن تسعين ألفاً حسب

---

(1) صحيح البخاري، كتاب البيوع، باب ما قيل في الصواغ، ج 3 ص 171.
(2) المصدر نفسه، كتاب التهجد، ج 2 ص 126.
(3) صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب صفة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، ج 4 ص 486.
(4) المصدر نفسه، كتاب الدعوات، باب الصلاة على النبي، ج 8 ص 45.

أقل ما روي في ذلك، وقبل أن تتفرق هذه الجموع الغفيرة نزل على رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) عند مكان خارج مكة يدعى غدير خم - وهو المكان الذي تتفرق منه الطرق إلى المدينة، والشام، والعراق، ومصر - قوله تعالى: (يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس) [المائدة / 67]. وقد نزلت هذه الآية في الثامن عشر من ذي الحجة والتي يظهر منها أن الله سبحانه وتعالى يأمر نبيه بإعلان بلاغ على أثر ذلك بالتوقف، وخطب فيهم:

(أيها الناس، إني أوشك أن أدعى فأجيب، وإني مسؤول وأنتم مسؤولون، فماذا أنتم قائلون؟ قالوا: نشهد أنك قد بلغت ونصحت وجاهدت، فجزاك الله خيراً. قال: ألستم تشهدون أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، وأن جنته حق، وناره حق، وأن الموت حق، وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من في القبور؟ قالوا: بلى نشهد بذلك. قال: اللهم اشهد، ثم قال: أيها الناس، ألا تسمعون؟ قالوا: نعم.

قال: فإني فرط على الحوض فانظروني كيف تخلفوني في الثقلين. فنادى مناد: وما الثقلان يا رسول الله؟ قال: الثقل الأكبر كتاب الله، والآخر الأصغر عترتي، وإن اللطيف الخبير نبأني أنهما لن يتفرقا حتى يردا علي الحوض، فلا تقدموهما فتهلكوا، ولا تقصروا عنهما فتهلكوا. ثم أخذ بيد علي فرفعها، وعرفه القوم أجمعون فقال: أيها الناس، من أولى بالمؤمنين من أنفسهم؟

قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: إن الله مولاي، وأنا مولى المؤمنين، وأنا أولى بهم من أنفسهم، فمن كنت مولاه فعلي مولاه - قالها ثلاث مرات - اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه، وأحب من أحبه، وأبغض من أبغضه،

---

(1) الرازي: التفسير الكبير، الواحدي: أسباب النزول.

وانصر من نصره، واخذل من خذله، وأدر الحق معه حيث دار، ألا فليبلغ الشاهد الغائب) (1).

ويتلخص تفسير الشيعة لهذه الخطبة بالنقاط التالية:

أ - إن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) أراد من خطبته هذه أن يوصي الأمة بأمر في غاية الأهمية متعلق بما سيكون عليه المسلمون بعد رحيله لأنه افتتح خطبته بالتلميح بقرب الأجل (أوشك أن أدعى فأجيب).

ب - كانت مقدمة خطبته (صلى الله عليه وآله وسلم) بتذكير المسلمين بأهم أركان الإيمان وأصول الدين (التوحيد، النبوة، اليوم الآخر)، ثم أراد أن يضيف إليها أمراً جديداً بقوله: (فانظروني كيف تخلفوني في الثقلين). فما معنى إقران أهل البيت عليه السلام بالقرآن (إنهما لن يفترقا) إلا إذا كان هذا الأمر ركناً جديداً ذا أهمية قصوى ومتعلقاً بالحساب الأخروي (حتى يردا علي الحوض)، بمعنى أن الناس سيسألون عن تمسكهم بأهل البيت تماماً كما سيسألون عن تمسكهم بالكتاب.

ج - جاءت كلمة (مولى) بمعنى أسمى من مجرد المحب والصديق كما يقول المخالفون للشيعة في تفسيرهم لهذا الحديث. فمن المستبعد أن يكون قول الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم): (من كنت مولاه فعلي مولاه) يريد به (من كنت حبيبه وصديقه فهذا علي حبيبه وصديقه). فما الجديد في ذلك وقد وردت الكثير من التوجيهات النبوية التي تحض على حب جميع المؤمنين وموالاتهم بعضهم البعض؟ وإذا كان هذا هو المعنى المقصود، فلماذا سيقتصر هذا التوجيه والبلاغ بعلي وحده دون غيره، فلا بد إذا أن يكون لهذا التخصيص مراد في غاية الأهمية ومنسجم مع أهمية البلاغ والظروف الزمانية والمكانية التي

---

(1) هذه الخطبة بالنص الذي أوردناه هي مجمل ما أخرجه العشرات من رجال الحديث بألفاظ متعددة، فراجع صحيح الترمذي، ج 6 ص 298، وسنن ابن ماجة، ج 1 ص 43، ومسند أحمد ج 4 ص 281، وصواعق ابن حجر ص 25، وخصائص أمير المؤمنين النسائي ص 93.

أحاطت به (وإن لم تفعل فما بلغت رسالته). فجاءت كلمة (مولى) لتكون قرينة لكلمة (أولى) إشارة لولاية علي عليه السلام على المؤمنين، وامتداداً لولاية الرسول (أنا أولى بهم من أنفسهم).

د - ومما يدل على عظمة هذا البلاغ (من كنت مولاه فهذا علي مولاه) أن الله سبحانه وتعالى أنزل على نبيه بعد الانتهاء من خطبة الغدير وقبول تفرق جموع الحجيج [1]: (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً) [المائدة / 3].

وما يرتبط أيضاً بولاية علي عليه السلام - حسب اعتقاد الشيعة - قول الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم): (علي مني وأنا منه وهو ولي كل مؤمن بعدي) [2]، وقوله تعالى: (إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون) [المائدة / 55]. وقد ذكر مفسرو الشيعة وأغلب مفسري أهل السنة أن هذه الآية نزلت في علي عندما تصدق بخاتمه أثناء ركوعه في صلاة غير مفروضة [3]. وكذلك قوله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم) [النساء / 59]. فعن علي إنه سأل الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم): يا نبي الله من هم؟ قال: أنت أولهم [4].

وعن أبي بصير، أنه سأل الإمام محمد الباقر عليه السلام عن قوله تعالى:

(أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم)، قال: (نزلت في علي بن أبي طالب، قلت: إن الناس يقولون: فما منعه أن يسمي علياً وأهل بيته في كتابه، فقال الباقر عليه السلام: قولوا لهم: إن الله أنزل على رسوله الصلاة ولم يسم ثلاثاً ولا أربعاً حتى كان رسول الله يفسر ذلك، وأنزل الحج فلم ينزل

---

(1) السيوطي: الدر المنثور، الخطيب البغدادي تاريخ بغداد.
(2) صحيح الترمذي، ج 2 ص 297.
(3) تفسير الطبري، أسباب النزول للواحدي، شواهد التنزيل للحسكاني.
(4) الحسكاني شواهد التنزيل ج 1 ص 148.

طوفوا سبعاً حتى فسر لهم ذلك رسول الله، وأنزل (وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم) ففسرها رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بقوله: أوصيكم بكتاب الله وأهل بيتي، إني سألت الله أن لا يفرق بينهما حتى يردا علي الحوض، فأعطاني ذلك) (1).

2 ـ منزلة هارون:

قال الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) لعلي عندما خلفه على المدينة يوم غزوة تبوك: (ألا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى، إلا أنه لا نبي بعدي) (2).

والمراد بذلك أن المرتبة التي كانت لعلي من الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) هي نفسها التي كانت لهارون من موسى عليه السلام باستثناء النبوة. ولكن ما هي هذه المرتبة التي كانت لهارون من موسى؟ وتجد الإجابة في سياق الآيات التالية:

(وقال موسى لأخيه هارون اخلفني في قومي وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين) [الأعراف / 142] (قال رب اشرح لي صدري * ويسر لي أمري واحلل عقدة من لساني * يفقهوا قولي * واجعل لي وزيراً من أهلي * هارون أخي * اشدد به أزري * وأشركه في أمري كي نسبحك كثيراً * ونذكرك كثيراً، إنك كنت بنا بصيراً، قال قد أوتيت سؤلك يا موسى) [طه / 25 - 36].

(وأخي هارون هو أفصح مني لساناً، فأرسله معي ردءا يصدقني إني أخاف أن يكذبون * قال سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطاناً فلا يصلون إليكما بآياتنا أنتما ومن اتبعكما الغالبون) [القصص / 34 - 35].

وتتلخص أوجه الشبه بين علي وهارون حسب تفسير الشيعة لذلك الحديث وهذه الآيات بما يلي:

أ ـ كان هارون أخاً للنبي موسى عليه السلام، وكذلك كان اعتبار علي من الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)، كما أخرج الترمذي في صحيحه أنه عندما آخى

(1) المصدر نفسه، ج 1 ص 150.
(2) صحيح البخاري، كتاب المغازي، ج 5 ص 492.

لرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) بين المهاجرين والأنصار، جاءه علي وسأله: آخيت بين أصحابك ولم تؤاخ بيني وبين أحد، فقال له النبي (صلى الله عليه وآله وسلم): (أنت أخي في الدنيا والآخرة) (1)، بل إنه وحسب روايات أخرى كان أكثر من ذلك لقول النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) له: (أنت مني وأنا منك) (2)، ومصداقاً لما جاء في قوله تعالى: (فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندعو أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم..) [آل عمران / 61] حيث دعا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) عند نزول هذه الآية عليا وفاطمة وحسناً وحسيناً، فقال: (اللهم هؤلاء أهلي) (3).

ب - كان هارون وزيراً وشريكاً لموسى عليه السلام لقوله تعالى على لسان موسى: (واجعل لي وزيراً من أهلي هارون أخي * اشدد به أزري * وأشركه في أمري) [طه / 29 - 31]، وكذلك فقد طلب النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) العون من أقاربه عند نزول قوله تعالى: (وأنذر عشيرتك الأقربين) [الشعراء / 214] حيث جمع النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أقاربه من بني عبد المطلب وكانوا يومئذ أربعين رجلاً، وقال لهم: (يا بني عبد المطلب إني قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة، وقد أمرني الله (عز وجل) أن أدعوكم إليه، فأيكم يؤمن بي ويؤازرني على هذا الأمر على أن يكون أخي ووصيي وخليفتي فيكم. فسكت القوم، وأعاد ذلك، وكلما كان يسكت القوم يقول علي: أنا، وحتى إذا كانت المرة الثالثة، أخذ الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) بيد علي وقال: (إن هذا أخي ووصيي وخليفتي فيكم، فاسمعوا له وأطيعوا) (4).

وروى الحافظ المحدث أبو نعيم الأصفهاني، بسنده عن ابن عباس، أن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) قال: (اللهم إن موسى بن عمران سألك وأنا محمد نبيك

---

(1) سنن الترمذي، كتاب المناقب، باب 20، ح 3720.
(2) صحيح البخاري، كتاب فضائل أصحاب النبي، باب 9.
(3) صحيح مسلم، كتاب الفضائل، باب 4، ح 32 - (2404).
(4) مسند أحمد ج 1 ص 111، تاريخ الطبري ج 2 ص 62 - 63.

أسألك أن تشرح لي صدري، وتحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي، واجعل لي وزيراً من أهلي علي بن أبي طالب أخي، اشدد به أزري وأشركه في أمري) (1).

ح - كان هارون المفضل عند موسى على جميع بني إسرائيل ليس لكونه أخاه، وإنما لاتصافه بمزايا تؤهله للقيام بمهام الدعوة والتبليغ والاستخلاف (وقال موسى لأخيه هارون اخلفني في قومي وأصلح) [الأعراف / 142] ولو لم يكن كذلك لاستحال اختياره. وهكذا فإن علياً لا بد وأن يكون كذلك في الأفضلية لنيله واستحقاقه عند النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) المراتب نفسها التي كانت مستحقة لهارون عند موسى عليه السلام.

ومن كل ما سبق، فإن ما كان لهارون عند موسى عليه السلام من مراتب الوزارة، والاستخلاف، والشراكة، والأفضلية تنتقل جميعها إلى علي عليه السلام كمراتب خاصة له باستثناء النبوة.

ومن المعلوم أن هارون عليه السلام مات في حياة موسى ولو عاش بعده لكان خليفته، وحل مكانه يوشع بن نون (أو اليسع كما ذكر في القرآن) (2) كوصي لموسى عليه السلام. وأما وجه الشبه بين علي ويوشع بن نون فهو كما ذكر المحقق السيد مرتضى العسكري: (إن يوشع بن نون كان مع موسى في جبل ولم يعبد العجل، وأمر الله نبيه موسى أن يعينه وصياً من بعده لئلا تكون بني إسرائيل كالغنم بلا راع وكان الإمام علي مع النبي في غار حراء، ولم يعبد صنماً قط وأمر الله نبيه في رجوعه من حجة الوداع أن يعينه بمسمع من الحجيج قائداً للأمة بعده، ولا يترك أمته هملاً، وقد صدع بذلك

(1) الرياض النضرة، ج 2، ص 163.
(2) (وإسماعيل واليسع ويونس ولوطاً وكلا فضلنا على العالمين) الأنعام: 86، (واذكر إسماعيل واليسع وذا الكفل وكل من الأخيار) ص: 48.

رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) في غدير خم. وقد صدق رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) إذ قال: (ليأتين على أمتي ما أتى على بني إسرائيل حذو النعل بالنعل) (1).

3 - باب مدينة العلم والحكمة

في الحديث الشريف، قال الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم): (أنا مدينة العلم وعلي بابها، فمن أراد العلم فيأت الباب) (2). قال الحاكم النيسابوري: هذا حديث صحيح الإسناد على شرط الشيخين (البخاري ومسلم) ولم يخرجاه. وفي صحيح الترمذي، قال الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم): (أنا مدينة الحكمة وعلي بابها) (3).

وقال الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) أيضاً في علم علي: (أنت تبين لأمتي ما اختلفوا فيه من بعدي) (4)، وفي صحيح البخاري، قال عمر بن الخطاب: (أقرؤنا أبي وأقضانا علي) (5)، ومن البديهي أن يكون الأقضى هو الأعلم بقوانين الشريعة وأحكامها.

ولا غرابة في كثرة رجوع الصحابة إليه بعد رحيل المصطفى (صلى الله عليه وآله وسلم) كلما كانت تواجههم معضلة.

ومن ذلك، ما رواه ابن عباس قال: (أتي عمر بمجنونة قد زنت، فاستشار فيها أناساً، فأمر بها عمر أن ترجم، فمر بها على علي بن أبي طالب عليه السلام فقال: ما شأن هذه؟ قالوا: مجنونة بني فلان زنت. فأمر بها عمر أن ترجم فقال:

ارجعوا بها، ثم أتاه وقال: يا عمر أما علمت أن القلم قد رفع عن ثلاثة، عن المجنون حتى يبرأ، وعن النائم حتى يستيقظ، وعن الصبي حتى يعقل؟ قال:

بلى. قال: فما بال هذه ترجم؟ قال: لا شئ، قال: فأرسلها. قال ابن عباس:

---

(1) مرتضى العسكري، معالم المدرستين، ج 1 ص 292، ط 5.
(2) المستدرك على الصحيحين، ج 3 ص 126.
(3) صحيح الترمذي ج 2 ص 299.
(4) المستدرك على الصحيحين ج 3 ص 122.
(5) صحيح البخاري، كتاب التفسير، ج 6 ص 10.

فجعل عمر يكبر [1]. وقد أخرج البخاري هذه الرواية مبتورة [2]. ومن ذلك أيضا " عندما أمر عمر برجم امرأة حامل زنت، فقال له علي: وما سلطانك على ما في بطنها؟

وقد كان عمر يقول تكراراً كلما كان يجيبه علي عليه السلام عما يسأله ليفرج عنه: (لولا علي لهلك عمر). وقوله: (لا أبقاني الله بعدك يا علي) [3].

وقوله: (لا أبقاني الله لمعضلة ليس علي فيها) [4].

وإذا كانت صحبة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) تعتبر شرفاً وعلو منزلة، فإن علياً عليه السلام لم يفارق الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) في حياته. فمنذ صغره قبل البعثة وقد أصاب قريش أزمة شديدة، وكان أبو طالب كثير العيال، فأخذ العباس جعفراً ليخفف عنه، وأخذ النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) علياً، فكان أول من اتبعه وصدقه عندما بعثه الله نبياً ويقول علي عليه السلام في ذلك: (وقد علمتم موضعي من رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بالقرابة القريبة والمنزلة الخصيصة، وضعني في حجره وأنا ولد، يضمني إلى صدره، ويكنفني فراشه ويمسني جسده، ويشمني عرفه، وكان يمضغ الشئ فيلقمنيه، وما وجد لي كذبة في قول ولا خطلة في فعل)... إلى قوله: (ولقد كنت أتبعه اتباع الفصيل أثر أمه، يرفع لي في كل يوم من أخلاقه علماً، ويأمرني بالاقتداء به، ولقد كان يجاور في كل سنة بحراء، فأراه ولا يراه غيري، ولم يجمع بيت واحد يومئذ في الإسلام غير رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وخديجة، وأنا ثالثهما، أرى نور الوحي والرسالة وأشم ريح النبوة) [5]. ويقول أيضاً: (وكان لا يمر بي من ذلك شئ إلا سألته عنه وحفظته) [6].

(1) سنن أبي داود، باب المجنون يسرق أو يصيب أحداً.
(2) صحيح البخاري، كتاب المحاربين، باب لا يرجم المجنون والمجنونة.
(3) ابن حجر، الصواعق المحرقة، ص 107.
(4) فتح الباري في شرح صحيح البخاري، ج 17 ص 105.
(5) نهج البلاغة، الخطبة رقم 190، ج 2 ص 182 - 184.
(6) المصدر نفسه، الخطبة رقم 208.

وقد كان علي عليه السلام فعلاً بعد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) باب لمدينة علمه حيث كان يقول: (علمني رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ألف باب من العلم، وتشعب لي من كل باب ألف باب) (1)، وكان يقول تكراراً: (سلوني قبل أن تفقدوني... والله ما نزلت آية إلا وقد علمت فيما نزلت وأين نزلت) (2).

وفي قول آخر: (فوالله ما من آية إلا وأنا أعلم أبليل نزلت أم بنهار أم في سهل أم في جبل...) (3) وروى ابن عساكر عن سعيد بن المسيب، قال: (لم يكن أحد من أصحاب النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) يقول (سلوني) إلا علي) (4).

4 - ميزان الإيمان:

في صحيح مسلم، قال علي عليه السلام: (والذي فلق الحبة وبرأ النسمة إنه لعهد النبي الأمي إلي أن لا يحبني إلا مؤمن ولا يبغضني إلا منافق) (5). وعن أم سلمة، قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): (لا يحب علياً منافق ولا يبغضه مؤمن) (6). وقال أبو سعيد الأنصاري: (إنا كنا لنعرف المنافقين - نحن معشر الأنصار - ببغضهم علي بن أبي طالب) (7)، وعن أبي ذر الغفاري قال: (ما كنا نعرف المنافقين إلا بتكذيبهم الله ورسوله والتخلف عن الصلوات والبغض لعلي بن أبي طالب) (8).

---

(1) كنز العمال، ج 6 ص 392.
(2) البلاذري: أنساب الأشراف ج 1 ص 98.
(3) ابن سعد: الطبقات الكبرى ج 2 ص 101.
(4) ترجمة الإمام علي من تاريخ مدينة دمشق ج 2 ص 24، رقم 1045.
(5) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب حب علي كرم الله وجهه، ج 1 ص 262.
(6) صحيح الترمذي، ج 2 ص 299.
(7) المصدر نفسه
(8) الحاكم: المستدرك على الصحيحين ج 3 ص 129، وقال (الحاكم): هذا الحديث صحيح على شرط مسلم.

وقال الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم): (من يريد أن يحيى حياتي ويموت موتي ويسكن جنة الخلد التي وعدني ربي فليتول علي بن أبي طالب فإنه لن يخرجكم من هدى ولن يدخلكم في ضلالة) (1).

وقال الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) أيضاً: (يا علي طوبى لمن أحبك وصدق فيك، وويل لمن أبغضك وكذب فيك) (2)، وقال (صلى الله عليه وآله وسلم) أيضاً: (إن الأمة ستغدر بك بعدي وأنت تعيش على ملتي، وتقتل على سنتي، من أحبك أحبني ومن أبغضك أبغضني) (3). وقال (صلى الله عليه وآله وسلم) أيضاً: (من سب علياً فقد سبني، ومن سبني فقد سب الله تعالى) (4).

5 - عديل الحق والقرآن:

قال الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم): (علي مع القرآن والقرآن مع علي لن يتفرقا حتى يردا علي الحوض) (5)، وقال (صلى الله عليه وآله وسلم) أيضاً: (علي مع الحق والحق معه، يدور الحق معه حيث دار) (6). ومن الواضح أن هذه الأحاديث منسجمة في معناها مع حديث الثقلين الذي مر سابقاً. في صفحات هذا الكتاب.

وقال الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم): (إن منكم من يقاتل على تأويله (القرآن) كما قاتلت على تنزيله). قال أبو سعيد الخدري: فقام أبو بكر وعمر. فقال الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم):

(لا، ولكن خاصف النعل. وكان علي يخصف نعله) (7) وقد فهم مفسرو القرآن من الشيعة من هذا الحديث أن الآية: (وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم) [آل عمران / 7] نزلت في أهل البيت عليه السلام.

---

(1) المصدر نفسه ج 3 ص 128، وقال (الحاكم): هذا الحديث صحيح الإسناد.
(2) المصدر نفسه ج 3 ص 135، حديث صحيح الإسناد.
(3) المصدر نفسه، ج 3 ص 142.
(4) المصدر نفسه، ج 3 ص 121.
(5) المصدر نفسه ج 3 ص 124.
(6) الهيثمي: مجمع الزوائد ج 7 ص 234.
(7) مسند أحمد ج 3 ص 34.

الفصل الثالث
مؤهلات الخلفاء والأئمة

عند أهل السنة

الشروط الأساسية:

يذكر البغدادي الشروط الأساسية التالية التي ينبغي توفرها في الخلفاء والأئمة، ويمثل رأيه موقف غالبية العلماء عند أهل السنة:

1 - العلم: وأقل ما يكفيه منه أن يبلغ فيه مبلغ المجتهدين بالحلال والحرام.

2 - العدل والورع: وأقل ما يجب فيه من هذه الخصلة أن يكون ممن يجوز قبول شهادته.

3 - الاهتداء إلى وجوه السياسة، وحسن التدبير، والمعرفة بمراتب الناس، والحروب.

4 - أن يكون نسبه من قريش [1]. ويضيف آخرون للشروط المذكور: - الذكورة، والبلوغ، والعقل، والشجاعة، والحرية، وغيرها.

ولا يشترط أهل السنة في الخليفة أو الإمام أن يكون أفضل أهل زمانه، ودليل ذلك يوضحه الباقلاني بقوله: (وأما ما يدل على جواز العقد للمفضول وترك الأفضل لخوف الفتنة والتهارج فهو أن الإمام إنما ينصب لدفع العدو، وحماية البيضة، وسد الخلل، وإقامة الحدود، واستخراج الحقوق، فإذا خيف بإقامة أفضلهم الهرج، والفساد، والتغالب، وترك الطاعة، واختلاف

(1) البغدادي، أصول الدين، ص 277.

السيوف، وتعطيل الأحكام والحقوق، وطمع عدد من المسلمين في اهتضامهم وتوهين أمرهم، صار ذلك عذراً واضحاً في العدول عن الفاضل إلى المفضول [1]. ودليله على ذلك أن عمر بن الخطاب أجاز استخلاف أي واحد من الستة الذين عينهم ليختاروا واحداً منهم ليكون الخليفة بعده، مع علمه أن فيهم فاضلاً ومفضولاً، ولم ينكر عليه أحد من الصحابة ذلك، فثبتت بذلك إمامة المفضول على الفاضل.

ويقول ابن حجر المكي: (إنه لو لزم تعيين الأفضل، لقام عمر بتعيين عثمان دون الحاجة لجعلها شورى في ستة) [2]، لأن عثمان برأيه كان أفضل من علي عليه السلام والأربعة الآخرين.

وأما بشأن العلم اللازم للخليفة أو إمام الأمة، فالباقلاني يقول: (إن الأمة لا تحتاج إلى علم متميز له، وإن غلط في شئ من مهماته الموكلة إليه، فإن الأمة من ورائه ستقومه) [3] حيث إن الأمة ستمارس سلطاتها من خلال هيئة تمثلها تعرف ب (مجلس أهل الحل والعقد).

العصمة للخلافة وليست للخليفة

ومما يلفت الانتباه أن أحد علماء أهل السنة البارزين يقول بعصمة منصب الخلافة والإمامة وإن لم يكن الخليفة أو الإمام معصوماً. فهذا فخر الدين الرازي يرى في تفسير قوله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم) [النساء / 59]، أن فيها دلالة على هذه العصمة، فهو يقول: (إن الله تعالى أمر بطاعة أولي الأمر على سبيل الجزم والقطع، فلا بد أن يكون [ولي الأمر] معصوماً عن الخطأ، إذ لو لم يكن

---

(1) الباقلاني، التمهيد، ص 184.
(2) ابن حجر، الصواعق المحرقة، ص 9.
(3) الباقلاني، التمهيد، ص 184.

معصوماً عن الخطأ كان بتقدير إقدامه على الخطأ يكون قد أمر الله باتباعه، فيكون ذلك أمراً بفعل ذلك الخطأ، والخطأ لكونه منهياً عنه، فهذا يفضي إلى اجتماع الأمر والنهي في الفعل الواحد بالاعتبار الواحد، وإنه محال، فثبت أن الله تعالى أمر بطاعة أولي الأمر على سبيل الجزم، وجب أن يكون معصوماً عن الخطأ، فثبت قطعاً أن أولي الأمر المذكورين في هذه الآية لا بد وأن يكونوا معصومين) (1).

ولأنه وافق برأيه هذا قول بعض الفرق الأخرى القائلة بعصمة الأئمة، فإنه استدرك على الفور قائلاً: (إننا في زماننا عاجزون عن معرفة الإمام المعصوم، عاجزون عن الوصول إليه، عاجزون عن استفادة الدين والعلم منه، فإذا كان الأمر كذلك، فالمراد ليس بعضاً من أبعاض الأمة، بل المراد هو أهل الحل والعقد من الأمة) (2).

وأهل الحل والعقد هم الذين تثق بهم الأمة من العلماء ورؤساء الجنود، والسرايا، وأولياء الدولة، وسراة القوم، وغيرهم من يمثلون الأمة، فتكون العصمة للمجلس الذي يضم هؤلاء الممثلين وليس لأي فرد منهم، ورأيهم النهائي لا يمكن وقوع الخطأ فيه على حسب رأي الرازي، بل لا بد وأن يكون دائماً مصيباً وموافقاً للكتاب والسنة، وهو من عناية الله على الأمة. ثم يستدل على ذلك بما نسب قوله إلى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم): (لا تجتمع أمتي على خطأ) (3).

بماذا ينخلع الخليفة؟

تبين مما سبق أن أهل السنة لا يشترطون في إمام الأمة العصمة ولا الأعلمية ولا حتى الأفضلية، بل يكتفون بأن يكون عنده قدر من العلم وإن قل، ودرجة من العدالة والتقوى تكفي لقبول شهادته، وحسن التدبير في شؤون

---

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب، ج 10 ص 144.
(2) جعفر السبحاني، مع الشيعة الإمامية، ص 62.
(3) الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن ج 5 ص 403.

السياسة والحرب والنسب القرشي وغيرها كما مر في الصفحات السابقة، ولكن هل ينخلع الخليفة أو الإمام في حالة عدم توفره على الحد الأدنى لهذه المؤهلات أو انتفاء أحدها كلية فيه؟

يجيب أبو بكر الباقلاني عن ذلك: (لا ينخلع الإمام بفسقه وظلمه بغصب الأموال، وضرب الأبشار، وتناول النفوس المحرمة، وتضييع الحقوق، وتعطيل الحدود، ولا يجب الخروج عليه، بل يجب وعظه وتخويفه، وترك طاعته في شئ مما يدعو إليه من معاصي الله) (1).

ويقول الطحاوي: (ولا نرى الخروج على أئمتنا وولاة أمورنا وإن جاروا، ولا ندعو عليهم، ولا ننزع يداً من طاعتهم ونرى طاعتهم من طاعة الله (عز وجل) فريضة ما لم يأمر بمعصية وندعو لهم بالصلاح والمعافاة) (2).

وقال أيضاً: (والحج والجهاد ماضيان مع أولي الأمر من المسلمين برهم وفاجرهم إلى قيام الساعة) (3).

ويرد سعد الدين التفتازاني موقف أهل السنة في عدم جواز الخروج عن طاعة الإمام الفاسق بقوله: (ولا ينعزل الإمام بالفسق أو بالخروج عن طاعة الله تعالى أو بالجور، لأنه قد ظهر الفسق وانتشر الجور من الأئمة والأمراء بعد الخلفاء الراشدين، وكان السلف ينقادون لذلك، ويقيمون الجمع والأعياد بإذنهم، ولا يرون الخروج عليهم) (4).

---

(1) الباقلاني، التمهيد، ص 181.
(2) الطحاوي: شرح العقيدة الطحاوية، ص 397.
(3) المصدر نفسه، ص 387.
(4) سعد الدين التفتازائي، الشرح، ص 185 - 186.

عند الشيعة

نظراً لعلو منصب الإمامة عند الشيعة، واعتبارهم له منصباً إلهياً وامتداداً للنبوة في وظائفها الرسالية، فإنهم يعتقدون بوجوب اتصاف الأئمة بمواصفات استثنائية، وفوق مستوى الناس العاديين. وأهم هذه المواصفات:

1 - العصمة

بمعنى إستحالة ارتكاب الإمام لأي من الرذائل صغيرها وكبيرها، وما ظهر منها وما بطن. وأهم ما يستدل به الشيعة على مبدأ العصمة من آيات الكتاب ما يلي:

أ ـ قوله تعالى: (وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال إني جاعلك للناس إماماً قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين) [البقرة / 124]. فالآية الكريمة تشير إلى أن نيل عهد الله وهو إمامة البشرية المتمثلة بالأنبياء وخلفائهم، لا يمكن أن تكون من نصيب ظالم، والخطيئة كبيرها وصغيرها، ظاهرها وباطنها تجعل من مرتكبها ظالماً.

ب ـ قوله تعالى: (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً) [الأحزاب / 33]. فالرجس في هذه الآية هو الإثم، والمراد من إذهابه الرجس عن أهل البيت هو تنزيههم عن كل ما يوجب نقصاً فيهم، وأي ذنب مهما صغر وبطن فإنه موجب في نقص متصرفة، فكانت إرادة الله عز وجل) تطهيرهم من كل الذنوب. ويرى الشيعة إن المراد بالتطهير في هذه الآية لا يمكن أن يكون مجرد التقوى بالاجتناب عن النواهي، حيث إن هذا المعنى لا يختص بأهل البيت عليه السلام وحدهم، وإنما هو لعموم الناس لقوله تعالى: (ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم) [المائدة / 6]،

ج - قوله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم) [النساء / 59]. ويعتقد الشيعة أن أولي الأمر في هذه الآية هم الأئمة الاثنا عشر عليه السلام، ويقولون: إنه لو احتمل ارتكاب أحدهم المعصية والإثم لما أمر الله سبحانه وتعالى الناس بطاعتهم، لا سيما وأن هذا الأمر جاء مطلقاً دون أن يكون محصوراً بأي قيد أو شرط، وقد اعتبرت طاعتهم بمستوى طاعة الله ورسوله كما يظهر جلياً من تسلسل الأمر في الآية. وهذا التفسير مطابق لتفسير الفخر الرازي - كما مر سابقاً مع اختلاف في تحديد هوية أولي الأمر.

2 - الأفضلية

ويعتقد الشيعة أيضاً أن الإمام ينبغي أن يكون أفضل أهل زمانه في صفات الكمال من شجاعة، وكرم، وعفة، وصدق، وعدل، وتدبير، وعقل، وحكمة، وخلق.

3 - الأعلمية

ولأن الإمام عند الشيعة ليس مجرد رجل سياسة وحرب كما هو عند غيرهم، بل الحافظ للشرع بعد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) والمبين للناس أحكام الدين والكاشف لأسراره، فإنه ينبغي أن يكون علمه منسجماً مع هذه المهمة العظيمة. وبالتأكيد، فإن هذا الانسجام لا يتحقق إلا بدرجة استثنائية من العلم وليس مجرد معرفة الحلال والحرام.

يقول الشيخ محمد رضا المظفر في هذا الصدد: (أما علمه، فهو يتلقى المعارف والأحكام الإلهية وجميع المعلومات من طريق النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أو الإمام الذي قبله، وإذا استجد شئ لا بد أن يعلمه من طريق الإلهام بالقوة الحدسية التي أودعها الله فيه، ولا يحتاج في ذلك إلى البراهين العقلية، ولا إلى تلقينات المعلمين) (1).

---

(1) محمد رضا المظفر، عقائد الإمامية، ص 68 - 69.

ثم يوضح أن هذا النوع من الإلقاء هو غير الوحي المخصوص بالأنبياء بقوله: (لقد ثبت في الأبحاث النفسية أن كل إنسان له ساعة أو ساعات في حياته قد يعلم فيها ببعض الأشياء عن طريق الحدس الذي هو فرع من الإلهام، بسبب ما أودع الله تعالى فيه من قوة على ذلك. وهذه القوة تختلف شدة وضعفاً وزيادة ونقيصة في البشر باختلاف أفرادهم، فيظفر ذهن الإنسان في تلك الساعة إلى المعرفة من دون أن يحتاج إلى التفكير، وترتيب المقدمات، والبراهين أو تلقين المعلمين، ويجد كل إنسان من نفسه ذلك في فرص كثيرة في حياته، وإذا كان الأمر كذلك فيجوز أن يبلغ الإنسان من قوته الإلهامية أعلى الدرجات وأكملها، وهذا أمر قرره الفلاسفة المتقدمون والمتأخرون) - إلى أن يقول: (والأئمة عليه السلام كالنبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، فإنهم لم يتربوا على أحد، ولم يتعلموا على يد معلم، من مبدأ طفولتهم إلى سن الرشد، حتى القراءة والكتابة، ولم يثبت عن أحدهم إنه دخل الكتاتيب أو تتلمذ على يد أستاذ في شئ من الأشياء، مع ما لهم من منزلة علمية لا تجارى، وما سئلوا عن شئ أجابوا عنه في وقته، ولم تمر على ألسنتهم (لا أدري). في حين إنك لا تجد شخصاً من فقهاء الإسلام ورواته وعلمائه إلا ذكرت في ترجمته تربيته وتلمذته وأخذه الرواية على غيره، وتوقفه في بعض المسائل أو شكه في كثير من المعلومات كعادة البشر في كل عصر ومصر) (1).

بقي أن نذكر أن هذه المؤهلات هي مما يخص الأئمة الاثني عشر من أهل البيت عليه السلام المنصوص على خلافتهم حسب اعتقاد الشيعة. وأما في عصر غيبة الإمام الثاني عشر المهدي المنتظر عليه السلام، فإنه لا يشترط فيمن ينوب عنه (وهم في هذه الحالة: الفقهاء العدول) العصمة، وهؤلاء النواب، هم كسائر البشر يجدون ويجتهدون في تحصيل العلم، فيصيبون ويخطئون.

---

(1) المصدر نفسه.

القسم الثاني
الخلافة والإمامة
في
الواقع التاريخي

تقديم

عند دراسة الواقع التاريخي للخلافة والإمامة، فإنه ينبغي اعتبار كل من جوانبها السياسية وهي المتعلقة بطرق الوصول إلى هذا المنصب والصراعات والتحولات التي رافقت ذلك، وجوانبها الدينية وهي المتعلقة بتشريع الأحكام وحفظها والاجتهاد فيها عن طريق الخلفاء، وذلك لما كان لهم على مر التاريخ الإسلامي من تأثير مباشر ليس فقط في التحليل والتحريم وصك الفتاوي، وإنما في تكون الفرق والمذاهب وانتشارها من جهة، وتحجيم بعضها والقضاء عليها من جهة أخرى.

ولا غرابة في ذلك باعتبار المكانة السامية التي أرادها الله (جل وعلا) لمنصب خلافة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، بالإضافة إلى ما اجتمعت عليه الفرق والمذاهب الإسلامية في عدم الفصل بين الدين والدولة.

وفي الوقت الذي يفرض فيه المنطق الإسلامي جعل الدولة وسياساتها أداة لخدمة الدين الإلهي ووسيلة لتحقيق غاياته، فإن حكام المسلمين على مر التاريخ لم يلتزموا بالضرورة بهذا المبدأ، إن لم يكن قد عمل معظمهم ضده!

وعلى كل حال، فإننا سنحاول دراسة هذا الواقع التاريخي بإلقاء الضوء على تلك الجوانب في ثمانية فصول، كل فصل خصص لاستعراض أهم الأحداث التاريخية التي حدثت في عهد كل من الخلفاء الثمانية الأوائل في أهم مرحلة من مراحل تاريخنا الإسلامي، وهي مرحلة صدر الإسلام والتي رسمت فيها الخطوط العريضة والملامح الأساسية لصورة دولة الخلافة، والتي بقيت محافظة عليها لحين سقوطها في مطلع القرن الحالي.

الفصل الأول
خلافة أبي بكر

إنكار عمر لوفاة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)

بعد انتقال الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) إلى الرفيق الأعلى، وانشغال علي ومن معه من أهل البيت عليه السلام وبني هاشم بتجهيز الجسد الطاهر، كان وجوه المهاجرين مجتمعين في المسجد، وقد علا صوت عمر معلنا إنكاره لوفاة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) بقوله: (والله ما مات رسول الله، وليبعثنه الله، فليقطعن أيدي رجال وأرجلهم) (1).

وكان أبو بكر في غضون تلك الأثناء في السنح، خارج المدينة، ولما رجع وعلم بوفاة المصطفى (صلى الله عليه وآله وسلم)، خرج إلى المسجد وقال لعمر: (أيها الحالف على رسلك.. ألا من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت) (2) ثم تلا قوله تعالى: (وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل، أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزي الله الشاكرين) [آل عمران / 144].

إجتماع سري للأنصار

وأما الأنصار، فقد اجتمعوا سراً في سقيفة بني ساعدة لاختيار خليفة منهم، كان أبرز الطامحين لذلك المنصب زعيم الخزرج، سعد بن عبادة، وزعيم الأوس، أسيد بن حضير، وكان بين القبيلتين تنافس قديم وتحاسد.

---

(1) صحيح البخاري، كتاب فضائل الصحابة، ج 5 ص 13.
(2) المصدر نفسه.

وقام سعد وخطب فيهم: (يا معشر الأنصار، إن لكم سابقة في الدين، وفضيلة في الإسلام ليست لقبيلة من العرب، إن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) لبث في قومه بضع عشرة سنة، يدعوهم إلى عبادة الرحمن، وخلع الأوثان، فما آمن به إلا قليل... حتى أراد الله تعالى لكم الفضيلة، وساق إليكم الكرامة، وخصكم بالنعمة، ورزقكم الإيمان به وبرسوله (صلى الله عليه وآله وسلم)، والمنع له ولأصحابه والإعزاز لدينه، والجهاد لأعدائه - إلى قوله: ودانت بأسيافكم له العرب، وتوفاه الله تعالى وهو راض عنكم، قرير العين، فشدوا أيديكم بهذا الأمر، فإنكم أحق الناس وأولاهم به) (1).

وقد كان طمع الأنصار بالإمارة ليس فقط للأسباب التي ذكرها سعد بن عبادة، وإنما أيضاً بسبب تخوفهم من بعض قبائل قريش إذا استلموا الإمارة، والذين قتل منهم الأنصار عدداً كبيراً في غزواتهم مع الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم).

ولما كان سعد بن عبادة هو المرشح الأقوى للخلافة بين الأنصار، ذهب اثنان من قبيلة الأوس حسداً لسعد وهما معن بن عدي، وعويم بن ساعدة، وأخبرا أبا بكر وعمر - اللذين كانا حينئذ في بيت الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) - باجتماع الأنصار، فأنطلق الشيخان مسرعين إلى السقيفة دون أن يخبرا أحداً بالأمر، ولقيا أبا عبيدة بطريقهما فرافقهما.

أبو بكر وعمر في مواجهة ساخنة مع الأنصار

وفور دخول الثلاثة إلى السقيفة، قام سعد بن عبادة، مخاطبهم: (أما بعد، فنحن أنصار الله وكتيبة الإسلام، وأنتم معشر المهاجرين رهط، وقد دفت دافة من قومكم، فإذا هم يريدون أن يختزلونا من أصلنا، وأن يحضنونا من الأمر) (2).

---

(1) ابن قتيبة الدينوري، الإمامة والسياسة، ج 1 ص 22 (تحقيق علي شيري).
(2) صحيح البخاري، كتاب المحاربين من أهل الكفر، ج 4 ص 541.

فأراد عمر أن يرد عليه، فقال له أبو بكر على رسلك فقام وخطب قائلاً:

(... فكنا معشر المهاجرين أول الناس إسلاماً، والناس لنا فيه تبع، ونحن عشيرة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، ونحن مع ذلك أوسط العرب أنساباً، ليست قبيلة من قبائل العرب إلا لقريش فيها ولادة. وأنتم أيضاً والله الذين آووا ونصروا، وأنتم وزراؤنا في الدين، ووزراء رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وأنتم أحق الناس ألا يكون هذا الأمر اختلافه على أيديكم، وأبعد عن أن تحسدوا إخوانكم على خير ساقه الله تعالى إليهم، وإنما أدعوكم إلى أبي عبيدة أو عمر، وكلاهما قد رضيت لكم وهذا الأمر، وكلاهما له أهل) (1). فقال عمر: (بل نبايعك أنت، فأنت سيدنا وخيرنا وأحبنا إلى رسول الله) (2).

فقام الحباب بن المنذر وهو أحد وجهاء الأنصار والمؤيد لتأمير سعد بن عبادة وقال: (فنحن لا نحسدكم على خير ساقه الله إليكم... ولكنا نشفق مما بعد اليوم، ونحذر أن يغلب على هذا الأمر من ليس منا ولا منكم، فلو جعلتم اليوم رجلاً منا ورجلاً منكم بايعنا ورضينا، على أنه إذا هلك اخترنا آخر من الأنصار، فإذا هلك اخترنا آخر من المهاجرين أبداً ما بقيت هذه الأمة) (3). وكان قول الحباب حسب رواية البخاري: (أنا جذيلها المحكك، وعذيقها المرجب، منا أمير ومنكم أمير يا معشر قريش. فكثر اللغط، وارتفعت الأصوات، حتى فرقت من الاختلاف) (4).

ومع تأزم الموقف إلى هذا الحد، قام عمر وقال بشدة: (هيهات أن يجتمع سيفان في غمد واحد، إنه والله لا يرضى العرب أن تؤمركم ونبيها من غيركم، ولكن العرب لا ينبغي أن تولي هذا الأمر إلا من كانت النبوة فيهم،

---

(1) ابن قتيبة الدينوري، الإمامة والسياسة، ج 1 ص 23.
(2) صحيح البخاري، كتاب فضائل الصحابة، ج 5 ص 14.
(3) ابن قتيبة الدينوري، الإمامة والسياسة، ج 1 ص 23 - 24.
(4) صحيح البخاري، كتاب المحاربين من أهل الكفر، ج 8 ص 542.

وأولو الأمر منهم، لنا بذلك على من خالفنا من العرب الحجة الظاهرة والسلطان المبين. من ينازعنا سلطان محمد وميراثه، ونحن أولياؤه وعشيرته إلا مدل بباطل، أو متجانف لإثم أو متورط في هلكة!) (1).

فرد الحباب بن المنذر: (يا معشر الأنصار، أملوا عليكم أمركم ولا تسمعوا مقالة هذا وأصحابه، فيذهبوا بنصيبكم من هذا الأمر، فإن أبوا عليكم ما سألتم، فاجلوهم عن بلادكم، وتولوا هذا الأمر عليهم، فأنتم والله أولى بهذا الأمر منهم، فإن دان لهذا الأمر ما لم يكن يدين له بأسيافنا. أما والله إن شئتم لنعيدنها جذعة، والله لا يرد علي أحد إلا حطمت أنفه بالسيف) (2).

إنشقاق الأنصار ومبايعة أبي بكر

لما رأى بشير بن سعد الخزرجي ما اتفق عليه قومه من تأمير ابن عمه سعد بن عبادة - كما يروي ابن قتيبة - قام حسداً لسعد، وأعلن تأييده للمهاجرين واستعداده لإعطاء البيعة لهم، فقام أبو بكر ورشح عمر أو أبا عبيدة للإمارة، ولكنهما قدماه للأمر وبايعاه. ولما سبقهما إليه بشير الأنصاري وبايعه، ناداه الحباب بن المنذر قائلاً: يا بشير بن سعد، حسدت ابن عمك على الإمارة؟ قال: لا والله، ولكني كرهت أن أنازع قوماً حقاً لهم (3).

ولما رأت قبيلة الأوس ما صنعه بشير بن سعد، وعلمهم برغبة الخزرج من تأمير سعد بن عبادة، قال زعيمهم أسيد بن حضير: لئن وليتموها سعدا عليكم، لا زالت لهم بذلك عليكم الفضيلة، ولا جعلوا لكم نصيباً فيها أبدا ، فقوموا فبايعوا أبا بكر، فقاموا إليه وبايعوه. وترى عائشة حسب ما رواه البخاري أن العامل الحاسم في إعطاء البيعة لأبيها لم يكن تحاسد الأنصار،

---

(1) ابن قتيبة الدينوري، الإمامة والسياسة، ج 1 ص 25.
(2) المصدر نفسه.
(3) المصدر نفسه.

وإنما: (فما كان من خطبتهما - أبي بكر وعمر - من خطبة إلا نفع الله بها، لقد خوف عمر الناس، وأن فيهم لنفاقاً فردهم الله بذلك) (1).

وهكذا بايع كل من حضر السقيفة من الأوس والخزرج باستثناء الحباب ابن المنذر وسعد بن عبادة، والذي اعترضهم أثناء تقدمهم لإعطاء البيعة، فطرح أرضاً حتى كادوا أن يطأوا عليه، فقال: قتلتموني. فقال عمر: اقتلوه، قتله الله (2). ومن المعلوم أن سعداً فارقهم منذ ذلك الوقت، ولم يصل معهم، ولم يجتمع باجتماعاتهم حتى قيل إنه لو وافقه أحد على قتالهم لقاتلهم. ولم يزل كذلك حتى ولي عمر بن الخطاب، فخرج إلى الشام دون أن يبايع لأحد، بل قال لعمر عند خروجه: إني أصبحت كارهاً لجوارك. وعلى حسب بعض المصادر التاريخية أن سعداً قتل في الشام على يد الجن!

وبعد حصولهم على بيعة الأنصار، انتقل أبو بكر، وعمر، وأبو عبيدة إلى المسجد حيث وجدوا بني أمية وقد اجتمعوا على عثمان، وبني زهرة على سعد بن أبي وقاص وعبد الرحمن بن عوف. فقال لهم عمر: قوموا فبايعوا أبا بكر، فقد بايعته وبايعه الأنصار، فقام عثمان وسعد وعبد الرحمن فبايعوا.

ويذكر المؤرخون أن عمر كان يحمل بيده عسيب نخل يحث بها الناس على البيعة.

موقف علي عليه السلام

كان علي عليه السلام ومن معه من بني هاشم وبعض الصحابة (أمثال الزبير، وطلحة، وعمار، وسلمان، وأبي ذر، والمقداد، وخزيمة ذي الشهادتين، وخالد بن سعيد، وأبي بن كعب، وأبي أيوب الأنصاري، وغيرهم) منشغلين بما أصاب المسلمين من وفاة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)، والقيام بالواجب من تجهيز الجثمان الطاهر وتهيئته للتشييع إلى المثوى الأخير، ولم يعلموا بما حصل في

---

(1) صحيح البخاري، كتاب فضائل الصحابة، ج 5 ص 15.
(2) المصدر نفسه، ج 5 ص 14، ج 8 ص 542، ابن قتيبة، ج 1 ص 27.

السقيفة والبيعة التي تمت إلا بعد خروج أبي بكر وعمر ومن معهما من المسجد في ضجيجهم وسماعهم لتكبيرهم. وروي أن علياً قال عندما علم باحتجاج أبي بكر وعمر على الأنصار بقرشيتهم كأساس لاستحقاقهم للخلافة: (احتجوا بالشجرة وأضاعوا الثمرة) (1).

وامتنع علي ومن معه عن البيعة عندما جاءهم عمر طالباً منهم ذلك، حتى أن الزبير بن العوام أشهر سفيه تحدياً في وجه عمر ومن معه. ويذكر عباس محمود العقاد هذه الحقيقة التاريخية في كتابه (عبقرية عمر) كما يلي:

(واستكثروا من عمر صرامته في الدعوة علي إلى مبايعة أبي بكر كما جاء في بعض الروايات التي نرجح صحتها، وخلاصتها: إن عمر أتى منزل علي وبه طلحة والزبير ورجال من المهاجرين، فقال: والله لأحرقن عليكم الدار أو لتخرجن إلى البيعة، فخرج الزبير مصلتا بالسيف، فسقط السيف من يده فوثبوا عليه فأخذوه. أو قال لهما عمر في رواية: أخرى: والله لتبايعان وأنتما طائعان أو لتبايعان وأنتما كارهان). (2).

ثم ذهب علي ليعبر عن احتجاجه ورفضه في حضرة أبي بكر قائلاً: (أنا عبد الله وأخو رسوله وأحق بهذا الأمر منكم، وأنتم أولى بالبيعة لي، أخذتم هذا الأمر من الأنصار واحتججتم عليهم بالقرابة من النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، وتأخذونه [أمر الخلافة] منا أهل البيت غصباً؟... وأنا أحتج عليكم بمثل ما احتججتم به على الأنصار، نحن أولى برسول الله حياً وميتاً، فأنصفونا إن كنتم تؤمنون، وإلا فبؤوا بالظلم وأنتم تعلمون. إلى قوله: لنحن أحق به لأنا أهل البيت، ونحن أحق بهذا الأمر منكم ما دام فينا القارئ لكتاب الله، الفقيه في دين الله، العالم بسنن رسول الله، المضطلع بأمر الرعية، الدافع عنهم الأمور

(1) محمد رضا المظفر، السقيفة، ص 134.
(2) عباس محمود العقاد، عبقرية عمر، ص 165.

السيئة، القاسم بينهم بالسوية، والله إنه لفينا، فلا تتبعوا الهوى فتضلوا عن سبيل الله، فتزدادوا عن الحق بعداً) [1].

فقال له عمر: أنت لست متروكاً حتى تبايع. فقال له علي عليه السلام:

إحلب حلباً لك شطره، واشدد له اليوم أمره يردده عليك غداً. والله يا عمر لا أقبل قولك ولا أبايع [2]. ثم خرج دون أن يبايع، وبقي كذلك هو ومن معه لمدة ستة شهور. ويؤكد البخاري هذه الحقيقة بما يرويه عن عمر: (وإنه كان من خبرنا حين توفى الله نبيه (صلى الله عليه وآله وسلم)، إلا أن الأنصار خالفونا، واجتمعوا بأسرهم في سقيفة بني ساعدة، وخالف منا علي والزبير ومن معهما) [3].

ومما روي أيضاً عن عمر أثناء خلافته أنه قال لابن عباس: (إن الناس كرهوا أن يجمعوا لكم النبوة والخلافة، وإن قريش اختارت لنفسها فأصابت) [4].

وقد ثبت تاريخياً أنه لو كان لعلي عليه السلام القوة الكافية لانتزاع حقه دون حصول الفتنة لفعل. ومن ذلك ما يرويه البخاري من قول عائشة:

(.. وعاشت فاطمة بعد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ستة أشهر، فلما توفيت دفنها زوجها علي ليلاً ولم يؤذن بها أبا بكر وصلى عليها. وكان لعلي من الناس وجه حياة فاطمة، فلما توفيت استنكر علي وجوه الناس، فالتمس مصالحة أبي بكر ومبايعته، ولم يكن يبايع تلك الأشهر، فأرسل إلى أبي بكر أن ائتنا ولا يأتنا أحد معك، كراهية لمحضر عمر. فقال عمر: لا والله لا تدخل عليهم وحدك. فقال أبو بكر: وما عسيتهم أن يفعلوا بي؟ والله لآتينهم) [5].

---

(1) ابن قتيبة الدينوري، الإمامة والسياسة، ج 1 ص 29.
(2) المصدر نفسه.
(3) صحيح البخاري، كتاب المحاربين، ج 8 ص 540.
(4) العقاد، عبقرية عمر، ص 167.
(5) صحيح البخاري، كتاب المغازي، ج 5 ص 382.

ويتضح من ذلك أن علياً وطوال ستة شهور كان يفكر بأخذ حقه، ولكن بالكيفية التي لا يحصل فيها شقاق وفتنة، وقد روي عن علي أنه قال: (لو وجدت أربعين ذوي عزم منهم لناهضت القوم) (1). ولكنه مع وفاة فاطمة الزهراء عليه السلام، فقد انصرفت عنه وجوه الناس، وتضاءلت بذلك إمكانية أخذه الخلافة، وذلك باعتبار مكانة الزهراء عليه السلام من الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)، ووقوفها إلى جانبه بالمطالبة بحقه، وتنديدها بالشيخين، لا سيما بعد محاولتهما أخذ البيعة من علي ومن معه بالقوة عندما كانوا مجتمعين في بيتها، وتهديد عمر لهم عند رفضهم الخروج إليه.

ويوضح العالم الشيعي المعروف السيد عبد الحسين شرف الدين الموسوي: (إن عليا عليه السلام لم ير أثراً للقيام ضدهم سوى الفتنة التي كان يفضل ضياع حقه على حدوثها في تلك الظروف، وبسبب الفتن الخطيرة التي أحاطت بالإسلام من كل جانب. فخطر يهدد الإسلام من المنافقين من أهل المدينة ومن حولهم من الأعراب، بالإضافة إلى خطر مسيلمة الكذاب وطليحة بن خويلد الأفاك وسجاح الدجالة، والرومان والفرس وغيرهم ممن كانوا للمسلمين بالمرصاد.

ولو أسرع علي عليه السلام إليهم في المبايعة حين عقدها، لما تمت له حجة ولا سطع لشيعته برهان، لكنه جمع فيما فعل بين حفظ الدين، والاحتفاظ بحقه في الخلافة، فالظروف يومئذ لا تسمح لمقارعة بحجة ولا مقاومة بسيف، والتي قد ينتهزها أعداء الإسلام لإحداث هدم في دين محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) تكون مصيبته أعظم على الإمام علي عليه السلام من ذهاب الخلافة إلى غيره) (2).

ومن هؤلاء الذين حاولوا استغلال ذلك لهدم الدين أبو سفيان الذي سعى إلى علي عليه السلام أكثر من مرة يحضه على قتالهم بقوله: (إن شئت لأملأنها

---

(1) المظفر، السقيفة، ص 151.
(2) عبد الحسين شرف الدين الموسوي، المراجعات، ص 385 - 387.

عليهم خيلاً ورجالاً، ولأسدنها عليهم من أقطارها) (1). لكن علياً عليه السلام كان يرفض هذا النوع من المساعدة لعلمه اليقين بغاية أبي سفيان من تلك المساعدة، وقد أجابه قائلاً: (إنك والله ما أردت بهذا إلا الفتنة، وإنك والله طالما بغيت للإسلام شراً لا حاجة لنا في نصيحتك) (2).

وليس غريباً بعد هذه الأحداث، وكل ما فيها من مواجهات ساخنة وتهديدات واتهامات على جميع الألوان أن يصف عمر بيعة أبي بكر بما يلي:

(.. فلا يغترن امرؤ أن يقول إنما كانت بيعة أبي بكر فلتة وتمت، إلا وإنها قد كانت كذلك، ولكن الله وقى شرها) (3).

غضب فاطمة الزهراء عليه السلام إرثها

من المواجهات المشهودة في تلك الأثناء ما حصل بين ابنة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) فاطمة الزهراء عليه السلام والخليفة أبي بكر، ولم يكن ذلك بسبب وقوفها بجانب علي عليه السلام فحسب، وإنما أيضاً بسبب حرمان أبي بكر لها من ميراثها من النبي (صلى الله عليه وآله وسلم). وتروي عائشة هذه الحادثة بقولها: (سألت فاطمة عليها السلام بنت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) أبا بكر الصديق أن يقسم لها ميراثها (الذي تركه) رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) مما أفاء الله عليه. فقال لها أبو بكر: إن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال: لا نورث، ما تركنا من صدقة. فغضبت فاطمة بنت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فهجرت أبا بكر، فلم تزل مهاجرته حتى توفيت، وعاشت بعد رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ستة أشهر. وكانت فاطمة تسأل أبا بكر نصيبها مما ترك رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) من خمس خيبر، وفدك، وصدقته بالمدينة، فأبى أبو بكر عليها ذلك) (4).

---

(1) خالد محمد خالد، خلفاء الرسول، ص 418.
(2) المظفر، السقيفة، ص 156.
(3) صحيح البخاري، كتاب المحاربين، ج 8 ص 540.
(4) المصدر نفسه، كتاب الخمس، ج 4 ص 208.

وكان غضب فاطمة على أبي بكر عظيماً لدرجة أنها أوصت علياً عليه السلام أن لا يصلي عليها أبو بكر ولا حتى أن يحضر دفنها كما يظهر ذلك من رواية عائشة: (... فأبى أبو بكر أن يدفع إلى فاطمة منها شيئاً، فوجدت فاطمة على أبي بكر في ذلك، فهجرته ولم تكلمه حتى توفيت، وعاشت بعد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ستة أشهر، فلما توفيت دفنها زوجها علي ليلاً، ولم يؤذن بها أبا بكر وصلى عليها) (1).

وأرض فدك التي كانت تطالب بها فاطمة عليه السلام قرية من الحجاز كان يسكنها اليهود، وقد صالحوا الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) عليها بعد هزيمتهم في خيبر، فكانت ملكاً للرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) لأنها مما لم (يوجف عليها بخيل ولا ركاب).

وذلك بالإضافة إلى ما ملكه الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) من خمس خيبر وصدقات النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بالمدينة. فكانت هذه كلها ملكاً خاصاً به، ولا حق فيها لأحد غيره.

فالزهراء عليه السلام في هذه المسألة كانت - على رأي أبي بكر - تطالب بما ليس لها فيه حق، وهي بذلك تكون على أحد أمرين لا ثالث لهما. أولهما: إنها كانت كاذبة - والعياذ بالله - تطمع بأخذ ما تعلم أنه ليس لها فيه حق، وثانيهما: إنها كانت جاهلة بالعلم الذي يعلمه أبو بكر وقد التبست عليها أحكام الميراث.

ولا أحسب أننا بحاجة إلى تفنيد الاحتمال الأول. وأما الثاني فقد تكفلت الزهراء عليه السلام نفسها بتفنيده حين واجهت أبا بكر وهو في حشد من المهاجرين والأنصار بالقول: (... وأنتم الآن تزعمون أن لا إرث لنا ولا حظ (أفحكم الجاهلية تبغون ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون) [المائدة / 50]، ويهاً معشر المسلمة، أفي كتاب الله ترث أباك ولا أرث أبي؟ لقد جئت شيئا فريا... أعلى عمد تركتم كتاب الله ونبذتموه وراء ظهوركم إذ يقول:

(وورث سليمان داوود) [النمل 16]، وقال فيما اقتص من خبر زكريا: (فهب

(1) المصدر السابق، كتاب المغازي، ج 5 ص 382 حديث رقم 4240 / 4241.

لي من لدنك ولياً * يرثني ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضيا) [مريم / 5 - 6]، وقال: (يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين) [مريم / 5 - 6]، وقال: (كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيراً الوصية للوالدين والأقربين بالمعروف حقاً على المتقين) [البقرة / 180]...

إلى قولها: أخصكم الله بآية أخرج أبي منها؟ أم أنتم أعلم بخصوص القرآن من أبي وابن عمي؟ أم تقولون أهل ملتين لا يتوارثان؟...) [1].

وأكثر ما رويت هذه الحادثة من طرق أهل البيت عليه السلام كما رويت عن طرق غيرهم. وتضعيف أكثر علماء الحديث عند أهل السنة لهذه الرواية لا يلغي حجيتها، ذلك أن ما جاء فيها من استدلالات بغض النظر عن قائلها الحقيقي، وليكن أي كائن، الزهراء عليه السلام أو غيرها - يكفي لإثبات صحة موقف الزهراء عليه السلام وينفي عنها أي احتمال لجهل، لا سيما أن أباها رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) أو زوجها أمير المؤمنين عليه السلام كانا جديرين بأن يعلماها الحكم الصحيح في حالة افتراضنا جدلاً أنها كانت لا تعلم أحكام المواريث.

وعلى فرض صحة رواية أبي بكر عن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) بأنه قال: (نحن معشر الأنبياء لا نورث)، فإنها لا تعني عدم انطابق قوانين الميراث على الأنبياء كما اجتهد في ذلك أبو بكر، وإنما أراد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بذلك القول بأن الأنبياء لا يجمعون الأموال أو يكدسون الذهب والفضة ليكون ميراثاً بعدهم، كما يفعل الملوك وطلاب الدنيا. والميراث الذي جاء في الآيتين بشأن داود وزكريا لا يراد به الحكم والنبوة لأنهما ليسا مما يعطى عن طريق التوريث، وإنما قصد به عموم المعنى من توريث الأموال والعقار.

ومن أغرب وأطرف ما قيل في هذه الحادثة، قول ابن حجر في تأييده لموقف أبي بكر:

(ودعواها (الزهراء) أن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) نحلها فدكاً، لم تأت

---

(1) ابن الأثير، منال الطالب، ص 501، ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة ج 16 ص 211 - 213.

عليها (بشهود) إلا بعلي وأم أيمن، فلم يكمل نصاب البينة، على أن في قبول شهادة الزوج لزوجته خلافاً بين العلماء (!!)) [1].

حروب الردة

كان من بين الذين حاربهم أبو بكر في الحروب التي عرفت باسم بحروب الردة من ادعى النبوة كمسيلمة الكذاب وطليحة بن خويلد الأفاك وسجاح الدجالة. وكان من بينهم بعض القبائل العربية التي ارتدت عن الدين كقبيلة بني سليم وغيرها، وقد أرسل الخليفة أبو بكر إليهم خالد بن الوليد على رأس جيش لقتالهم، حيث روي أنه كان يجمع المرتدين منهم في الحظائر ثم يحرقها عليهم بالنار) [2]، وهكذا فعل أبو بكر بإياس بن عبد الله المعروف بالفجاءة حيث أمر بإحراقه. وقد اشتهرت هذه الحادثة في كتب التاريخ لا سيما لاحتجاج الصحابة واعتراضهم على الخليفة لقول الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم): (لا يعذب بالنار إلا رب النار) [3].

وقد دلت روايات تاريخية عديدة على أن معظم القبائل العربية التي حاربها الخليفة لم يكن بسبب ردتها عن الدين، وإنما بسبب رفضها دفع الزكاة أو تريثها في ذلك لارتيابها بشأن الخلافة التي تنازعها المهاجرين والأنصار، واختلاط الأمر على هذه القبائل في مدى أهلية الحكومة الجديدة واعتقادها (أن من سيقوم مقام الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) في حراسة الدين وسياسة الدنيا لن يصل إلى منزلته في العصمة من الخطأ، فخافوا على مستقبلهم في ظل الحكم الجديد) [4]، أو كما قال الباحث حسن إبراهيم: (كما لا يبعد أن

(1) ابن حجر، الصواعق المحرقة، ص 37.
(2) الرياض النضرة ج 1 ص 100.
(3) صحيح البخاري، كتاب الجهاد، باب لا يعذب بعذاب الله.
(4) منصور الحرابي، الدولة العربية الإسلامية: نشأتها ونظامها السياسي، ص 94.

يعلي مركز الخلافة من شأن القبيلة التي ينتمي إليها الخليفة وبغض من شأن غيرها من القبائل فيميل ميزان العدل بين الناس) (1).

وقد كان الخليفة عمر معارضاً لقتال هذه القبائل التي لم تعلن ردتها عن الإسلام وإنما اختلط عليها الأمر في فهم بعض الأحكام الشرعية أو التطورات السياسية التي حصلت بعد وفاة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)، وقال عمر لأبي بكر: (كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فمن قالها عصم مني ماله ودمه إلا بحقها، وحسابهم على الله) (2)، ولكن أبا بكر كان مصراً على موقفه، وقال:

(والله لو منعوني عقالاً كانوا يؤدونه إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) لقاتلتهم على منعه) (3).

ومن ضحايا سياسة أبي بكر هذه مالك بن نويرة (والذي كان قد سبق وأن ولاه الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) على صدقات قومه لثقته به واعتماده عليه) (4) حيث أرسل الخليفة قائد جيوشه خالد بن الوليد لمقاتلة مالك وقومه بذريعة الردة عن دين الإسلام. ولما علم مالك بقدوم خالد، أخلى له الديار وأمر أصحابه بالتفرق تجنباً للاقتتال. ولكن خالداً أرسل في أثرهم حتى جئ إليه بمالك ونفر من قومه فحبسهم عنده، ولما كان وقت الصلاة صلوا جميعاً بمن فيهم مالك ومن معه، ثم سيق مالك ومعه زوجته وأصحابه إلى خالد. وبعد محاورات بين الفريقين، أصر خالد على قتل مالك وجماعته بالرغم من صلاتهم وكل تأكيداتهم له بإسلامهم، حتى أن مالكاً طلب من خالد أن يرسله إلى أبي بكر

---

(1) حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام، دار إحياء التراث العربي، ج 1 ص 344.
(2) صحيح مسلم، كتاب الإيمان.
(3) تاريخ الخلفاء للسيوطي، دار الكتب العلمية، بيروت، ص 56 - 57، تاريخ الإسلام، حسن إبراهيم حسن، ج 1 ص 350.
(4) ابن حجر، الإصابة في تمييز الصحابة، ج 3 ص 336.

ليحكم بأمرهم. ولكن دون جدوى، حيث كان لخالد ما أراد من قتلهم، وقد أوعز بالمهمة إلى ضرار بن الأزور [1].

والحقيقة في هذه الحادثة أن مالكاً لم يرتد عن الإسلام وإنما رفض دفع الزكاة لأبي بكر تريثاً لما ستسفر عنه الصراعات التي خلفتها فلتة السقيفة، أو كما قال ابن القيم الجوزية التلميذ الشهير لابن تيمية: إن رفض دفع مالك وجماعته لم يكن بسبب ردة عن دين، وإنما لشبهة شرعية تخيلوا بها أن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) بعد أن خاطبه الله (سبحانه وتعالى) بالآية: (خذ من أموالهم صدقة تطهرهم بها) هو وحده المخول بجمع الزكاة منهم، ولما توفاه الله، أصبحوا في حل من دفعها.

ومن الثوابت التاريخية أنه وفي يوم مقتل مالك، قام خالد بالدخول في زوجته والتي روي أنها كانت من أجمل نساء العرب [2]، وقد قال مالك لخالد قبل مقتله: هذه التي قتلتني (يعني زوجته). فقال له خالد: بل الله قتلك برجوعك عن الإسلام، فقال له مالك: إني مسلم. فقال خالد: يا ضرار اضرب عنقه.

وكان عبد الله بن عمر وأبو قتادة الأنصاري من شاهدي تلك الواقعة، وقد كلما خالداً في أمر مالك قبل قتله، ولكنه كره كلامهما [3]. ومما يشير أيضاً إلى عظيم ما اقترفته يدا خالد، أن أبا قتادة أقسم أن لا يشارك بعد تلك الحادثة بجيش فيه خالد. وأما عمر بن الخطاب، فقد ثارت ثائرته لفعل خالد وطالب الخليفة أبا بكر بإقامة حدي القتل والزنا عليه. وكان جواب الخليفة له بالرفض بحجة أن ما فعله خالد يعد من التأول والاجتهاد وإن أخطأ فيه (؟!) ثم قال: يا عمر ما كانت لأغمد سيفاً سله الله عليهم [4].

---

(1) تاريخ الطبري، ج 3 ص 276 - 280.
(2) المصدر نفسه، وأيضاً: العقاد: عبقرية خالد.
(3) تاريخ أبي الفداء ج 1 ص 158، وفيات الأعيان ج 6 ص 14.
(4) المصدر نفسه.

ولأن عمراً لم يقتنع (باجتهاد) خالد وتأويله، ولا بصفح أبي بكر عنه، فإنه عندما تسلم الخلافة، كان من قراراته الأولى عزل خالد عن قيادة جيش المسلمين والذي كان حينها في غمرة انشغاله بقتال الروم في الشام. ودع عنك تلك التبريرات المصطنعة القائلة بأن عزل الخليفة لخالد كان يعود لخشيته افتتان المسلمين بانتصاراته الباهرة على حساب شعورهم بصنع الله (سبحانه وتعالى) لتلك الانتصارات! (1).

---

(1) أنظر: العقاد: عبقرية عمر ص 180.

الفصل الثاني
خلافة عمر

إستخلاف أبي بكر لعمر

يروي الطبري في تاريخه: (لما نزل بأبي بكر المرض، دعا عثمان بن عفان وقال له:

أكتب بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما عهد به أبو بكر بن أبي قحافة إلى المسلمين. أما بعد ـ فأغمي عليه ـ فكتب عثمان تكملة لما بدأ بكتابته أبو بكر: أما بعد، فإني أستخلف عليكم عمر بن الخطاب ولم آلكم خيراً. ثم أفاق أبو بكر وقرأ ما كتبه عثمان فقال: أراك خفت أن يختلف الناس إن أسلمت نفسي في غشيتي. قال: نعم. قال أبو بكر: جزاك الله خيراً عن الإسلام وأهله. وأقرها أبو بكر من هذا الموضع) (1).

وخرج عمر يحمل بيده كتاب الاستخلاف قائلاً: (أيها الناس اسمعوا وأطيعوا قول خليفة رسول الله، إنه يقول: إني لم آلكم نصحاً) (2). فقال له رجل:

ما في هذا الكتاب يا أبا حفص؟ فقال عمر: لا أدري، ولكني أول من سمع وأطاع. قال له الرجل: لكني والله أدري ما فيه أمرته عام أول، وأمرك العام (3).

ويذكر ابن قتيبة أنه حين بلغ المهاجرون والأنصار خبر استخلاف أبي بكر لعمر، دخلوا على الخليفة الأول وقالوا: نراك استخلفت علينا عمر، وقد عرفته وعلمت بوائقه [بمعنى غلظته وتشدده] فينا وأنت بين أظهرنا، فكيف إذا

(1) تاريخ الطبري، تاريخ دمشق لابن عساكر.
(2) المصدر نفسه.
(3) ابن قتيبة الدينوري، الإمامة والسياسة، ج 1 ص 38.

وليت عنا وأنت ملاق الله عز وجل فسائلك، فما أنت قائل؟ فقال أبو بكر:

لئن سألني الله لأقولن: استخلفت عليهم خيرهم في نفسي) (1).

ومن المعلوم أن أبا بكر في نزاعه الأخير وقد اشتد به المرض، قال في تبرير عهده بالخلافة لعمر وعدم تركها للتشاور، هو خشيته من الاختلاف بعده، وقالت عائشة إن أباها فعل ذلك لحكمة بالغة وهي للحيلولة دون حصول الفتنة بعده، وهكذا قال كل من أيد فعل أبي بكر، بل وعد فعله هذا من دلائل حيطته وعبقريته.

ولكن ما يثير انتباه الباحثين هو أن حال المسلمين عند وفاة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) كانت أقرب إلى الاختلاف والفتنة من حالهم عند وفاة أبي بكر، وأي فتنة ستكون أكبر من فقدان صاحب الرسالة، حتى أن عمر قد فقد صوابه عند سماعه خبر الوفاة، وذهب ينكر إمكانية موت النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ومهدداً بقتل كل من يقول بذلك، بالإضافة إلى ما حصل في السقيفة والردة وخطر الفرس والروم، أفلم يفطن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) إلى ما فطن إليه أبو بكر؟

والتساؤل الآخر: لماذا لم يوصف حال أبي بكر بالهجران مع أنه أغمي عليه قبل أن يتم كتابة وصيته باستخلاف عمر، كما رمي الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) بهذا الوصف في مرضه الأخير؟

منع الخليفة تدوين السنة النبوية أو التحدث بها

عن عروة، قال: (أراد عمر بن الخطاب أن يكتب السنن، فاستفتى أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) في ذلك، فأشاروا عليه أن يكتبها، فطفق عمر يستخير الله شهراً، ثم أصبح يوماً وقد عزم الله له، فقال: إني كنت أريد أن أكتب السنن وإني ذكرت قوماً كانوا قبلكم كتبوا فأكبوا عليها، وتركوا كتاب الله، وإني والله لا أشوب كتاب الله بشئ أبداً) (2).

---

(1) المصدر السابق، ص 37.

(2) الطبقات الكبرى لابن سعد ج 3 ص 206، كنز العمال ص 239 حديث رقم 4860.

ويتضح من قول عمر في هذه الرواية وغيرها أن ما دفعه لمنع تدوين أحاديث رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) هو خشيته من أن يكون اهتمام المسلمين بها على حساب اهتمامهم بكتاب الله!

وعن القاسم بن محمد قال: (إن الأحاديث كثرت على عهد عمر بن الخطاب، فأنشد الناس أن يأتوه بها، فلما أتوه بها أمر بإحراقها) (1).

وقال كرظة بن كعب: (لما سيرنا عمر إلى العراق مشى معنا وقال:

أتدرون لم شيعتكم؟ قالوا: نعم، مكرمة لنا. قال: ومع ذلك، إنكم تأتون أهل قرية لهم دوي بالقرآن كدوي النحل، فلا تصدوهم بالأحاديث فتشغلوهم.

جردوا القرآن وأخلوا الرواية عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وأنا شريككم) (2).

وقال عمر لأبي هريرة الدوسي: (لتتركن الحديث عن رسول الله أو لألحقنك بأرض دوس) (3)، وقال أبو هريرة: (لو حدثتكم بأحاديث، ولو حدثت بها زمن عمر بن الخطاب لضربني عمر بالدرة) (4). وأخرج الحاكم عن إبراهيم بن عبد الرحمن قوله: (إن عمر بن الخطاب قال لابن مسعود، ولأبي الدرداء ولأبي ذر: ما هذا الحديث عن رسول الله؟ وأحسبه حبسهم بالمدينة حتى أصيب) (5).

وقد سبق عمر إلى هذا الموقف في منع تدوين السنة النبوية أبو بكر، حيث جمع أيام خلافته خمسمئة حديث، وكما تروي عائشة: (إنه بات ليلته يتقلب كثيراً فهمني تقلبه، فلما أصبح قال لي: أي بنية، هلمي الأحاديث التي عندك. فجئته بها فأحرقها) (6).

---

(1) الطبقات الكبرى لابن سعد، ج 5 ص 188.
(2) سنن ابن ماجة، ج 1 ص 16، سنن الدارمي، ج 1 ص 85.
(3) تاريخ ابن كثير، ج 8 ص 106، كنز العمال، ج 5 ص 239.
(4) جامع بيان العلم، ج 2 ص 121.
(5) المستدرك على الصحيحين للحاكم النيسابوري، ج 1 ص 110.
(6) كنز العمال، ج 1 ص 285.

وقد اقتفى سيرة الشيخين هذه في منع تدوين الأحاديث وحرقها جمهور المسلمين ولفترة طويلة من الزمن، حتى جاء الخليفة عمر بن عبد العزيز وأمر بتدوين السنة النبوية.

والحقيقة أن مسألة منع الخليفة عمر من تدوين السنة النبوية أو التحدث بها تعد من أكثر المسائل المستغربة والمثيرة للتساؤلات، ذلك أنه لا يخفى على أحد أهمية تدوين أحاديث رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) في ذلك العهد القريب من حياة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، لأنها ستكون أكثر صدقاً وسلامة من حالة تدوينها في عصور متأخرة، وقد تناقلتها ألسنة كثيرة على امتداد أجيال عديدة، لا سيما بعد تلك الحروب الطاحنة بين المسلمين أنفسهم واستشراء العداء بينهم وانتشار ظاهرة الوضع في الأحاديث لمدح فريق وذم آخر، أو لوضع الفضائل والمبالغة فيها لفريق، وطمسها والتقليل منها لفريق آخر.

وعن أهمية السنة النبوية هذه يقول العلامة الأميني: (هل خفي على الخليفة أن ظاهر الكتاب لا يغني الأمة عن السنة، وهي لا تفارقه حتى يردا على النبي الحوض، وحاجة الأمة إلى السنة، لا تقل عن حاجتها إلى الكتاب؟ والكتاب كما قال الأوزاعي ومكحول: هو أحوج إلى السنة من السنة إلى الكتاب) (1) ذلك أن في السنة ما يوضح متشابه القرآن ويبين مجمله، ويخصص عامه، ويقيد مطلقه، ويوقف أولي الألباب على كنهه، فبحفظها حفظه، وبضياعها ضياع لكثير من أحكامه (2).

اجتهادات الخليفة مقابل نصوص الكتاب والسنة

لقد اشتهر الخليفة عمر بكثرة اجتهاده في كثير من الأحكام الثابتة والمؤيدة بنصوص من الكتاب والسنة. وأما إذا كانت تلك النصوص مما

(1) الأميني، الغدير في الكتاب والسنة والأدب، ج 6 ص 296.
(2) عبد الحسين شرف الدين، النص والاجتهاد، ص 143.

يمكن الاجتهاد فيها، فهذا ما ترك الحكم فيه لاجتهاد القارئ الذكي من خلال التمعن في الأمثلة التالية:

1 - تحريمه زواج المتعة (المؤقت)

يعرف الفقهاء هذا النوع من الزواج بأنه الزواج المحدد بمهر معلوم وإلى أجل معلوم بعقد جامع لشرائط الصحة الشرعية، وللزوجين أن يمدداه لفترة مؤقتة أخرى أو يحولاه إلى عقد زواج دائم. وإذا ولد لهما مولود فإنه يلحق بأبيه، ويجب على الزوجة أن تعتد بعد انقضاء مدة الزواج. ويجد القارئ هذا التعريف في الموسوعات الفقهية ك: شرائع الإسلام للحلي، والروضة البهية في شرح اللمعة الدمشقية للشهيد الثاني، الجبعي العاملي.

ومما لا خلاف فيه أن الله (سبحانه وتعالى) أقر هذا النكاح بقوله: (فما استمتعتم به منهن فآتوهن أجورهن فريضة ولا جناح عليكم فيما تراضيتم به من بعد الفريضة) [النساء / 24]. وكما يروي ابن عباس: (كنا مع النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وليس معنا نساء، فقلنا: ألا نختصي؟ فنهانا النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) عن ذلك، ورخص لنا بعد ذلك أن نتزوج المرأة بالثوب (يعني مهرها) إلى أجل. ثم قرأ النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قوله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم، ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين) [1]) [المائدة / 87]. وحسب رواية أخرى نادى مناد: (إن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قد أذن لكم أن تستمتعوا يعني متعة النساء) [2].

ومما خلاف فيه ما يراه عموم أهل السنة من حرمة لهذا الزواج لاعتقادهم أن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قد نهى عنه أخيراً بعد أن أباحه للمسلمين، واستندوا إلى روايات تظهر أن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أباح هذا الزواج ثم حرمه ثم

---

(1) صحيح البخاري، كتاب التفسير، ج 6 ص 110، صحيح مسلم، كتاب النكاح باب نكاح المتعة ج 3 ص 552.
(2) صحيح مسلم، كتاب النكاح، باب نكاح المتعة، ج 3 ص 55.

أحله، وهكذا عدة مرات مما يجعل تلك الروايات المتضاربة موضع سؤال، وخصوصاً مع وجود روايات عديدة مقطوعة الصحة تظهر أن تحريم المتعة قد وقع بعد وفاة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وليس قبلها، ومنها:

ما أخرجه البخاري بالرواية عن عمران بن حصين قال: (نزلت آية المتعة في كتاب الله ففعلناها مع رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، ولم ينزل قرآن يحرمه ولم ينه عنها حتى مات، قال رجل برأيه ما شاء) (1).

وهذا الرجل الذي لم يذكر اسمه في هذه الرواية هو الخليفة عمر بن الخطاب حسب ما ذكر في شرح الباري على صحيح البخاري (2).

وما يؤكد أيضاً تحريم الخليفة عمر للمتعة بعد رحيل النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) دون أن ينهى عنها ما أخرجه مسلم في صحيحه بالرواية عن جابر بن عبد الله قال:

استمتعنا على عهد رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وأبي بكر عمر) (3). وفي رواية أخرى قال: (كنا نستمتع بالقبضة من التمر والدقيق لأيام على عهد رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وأبي بكر حتى نهى عنه عمر في شأن عمرو بن حريث) (4). فأما عمرو بن حريث هذا فقد استمتع بجارية، وأوتي بها الخليفة عمر وهي حبلى فسألها، فقالت: استمتع بي عمرو بن حريث) (5). فغضب الخليفة وقام معلناً تحريمه لهذا النوع من النكاح، بل قرر رجم كل من يخالف تحريمه هذا، كما يروي جابر: (تمتعنا على عهد رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، فلما قام عمر قال: إن الله يحل لرسوله بما يشاء... وأبتوا نكاح هذه النساء، فلن أوتي برجل نكح امرأة إلى أجل إلا رجمته بالحجارة) (6).

---

(1) صحيح البخاري، كتاب التفسير، ج 6 ص 34.
(2) فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج 4 ص 177.
(3) المصدر السابق، ص 555.
(4) المصدر نفسه، ص 556.
(5) المصدر نفسه، ج 11 ص 76.
(6) صحيح مسلم، كتاب الحج، باب مذاهب العلماء في تحلل المعتمر المتمتع، ج 3 ص 332.

وقد اشتهر قول الإمام علي عليه السلام: (لولا أن نهى عمر عن المتعة ما زنى إلا شقي) (1).

ومن المتع الأخرى التي لم ترق للخليفة عمر ما عرف ب (متعة الحج)، وهي تكون بإباحة محظورات الإحرام في المدة المتخللة بين إحرامي العمرة والحج، ذلك أن الاعتمار قبل الحج فرض على من لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام كما في قوله تعالى: (فمن تمتع بالعمرة إلى الحج فما استيسر من الهدي فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجعتم تلك عشرة كاملة ذلك لمن يكن أهله حاضري المسجد الحرام واتقوا الله وأعلموا أن الله شديد العقاب) [البقرة / 196].

وقد تواتر عن الخليفة عمر قوله: (متعتان كانتا على عهد رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وأنا أنهى عنهما) (2) وقال جابر بن عبد الله بشأن اختلاف عبد الله بن عباس وعبد الله بن الزبير في متعتي النساء والحج: (فعلناهما مع رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ثم نهانا عنهما عمر، فلم نعد لهما) (3).

والرواية التالية تشير بوضوح إلى وجود منهجين من السنة بعد رحيل المصطفى (صلى الله عليه وآله وسلم)، حيث يروي البخاري عن سعيد بن المسيب قال: (اختلف عثمان وعلي (رضي الله عنهما) وهما بعسفان في المتعة (متعة الحج)، فقال علي: ما تريد إلا أن تنهى عن أمر فعله رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، ثم أهل بهما جميعاً (لبيك بعمرة وحج) وقال: ما كنت لأدع السنة لقول أحد) (4) يقصد الخليفة عمر.

وكان عبد الله بن عمر مخالفاً لأبيه في هذا التحريم، حيث يروى أنه سأله أحد من أهل الشام عن التمتع بالعمرة إلى الحج، فقال عبد الله بن عمر: هي

---

(1) جامع البيان، الطبري، ج 5 ص 9، ط بولاق مصر.
(2) التفسير الكبير للرازي، ج 5 ص 153.
(3) صحيح مسلم، كتاب النكاح، باب نكاح المتعة، ج 3 ص 55.
(4) صحيح البخاري، كتاب الحج، ج 2 ص 371 و 374.

حلال. قال الشامي: إن أباك قد نهى عنها. فقال عبد الله بن عمر: أرأيت إن كان أبي نهى عنها، وصنعها رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، أأمر أبي نتبع أم أمر رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)؟ فقال الرجل: بل أمر رسول (صلى الله عليه وآله وسلم). فقال: لقد صنعها رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) (1).

2 - ابتداعه صلاة التراويح

فهذه الصلاة النافلة ذات العشرين ركعة، والتي يمارسها بهذا الاسم قطاع واسع من المسلمين جماعة في ليالي شهر رمضان، لم تكن مما شرع أيام الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم). فقد سنت بعض النوافل لتصلى فرادى في ليالي شهر رمضان دون أن تعرف في عهده (صلى الله عليه وآله وسلم) بهذا الاسم، ولا بهذا الكم من عدد الركعات.

وقد أخرج البخاري في صحيحه قول الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم): (من قام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه). قال ابن شهاب: فتوفي الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) والناس على ذلك، ثم كان الأمر على ذلك في خلافة أبي بكر وصدراً من خلافة عمر (معناه كما في شرح النووي على صحيح مسلم:

استمر الأمر هذه المدة على أن كل واحد يقوم رمضان في بيته منفرداً حتى انقضى صدراً من خلافة عمر) (2). قال ابن شهاب: خرجت مع عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) ليلة في رمضان إلى المسجد فإذا الناس أوزاع متفرقون... فقال عمر: إني أرى لو جمعت هؤلاء على قارئ واحد لكان أمثل، ثم عزم فجمعهم على أبي بن كعب. ثم خرجت معه ليلة أخرى والناس يصلون بصلاة قارئهم، فقال عمر: نعم البدعة هذه) (3). وما يثبت قطعاً اختلاق عمر لهذه الصلاة هو قوله: (إني أرى)! حيث نسب تشريعها إلى نفسه. ثم قوله: (نعم البدعة هذه)! وما (البدعة) في اللغة والاصطلاح إلا ما

---

(1) الجامع الصحيح - سنن الترمذي، ج 3 ص 185 - 186، ح 824، ط دار الكتب العلمية - بيروت. (غير مؤرخ) (2) صحيح مسلم بشرح النووي، ج 2 ص 410.

(3) صحيح البخاري، كتاب صلاة التراويح، ج 3 ص 126.

كان جديداً ليس له أي وجود قبل ذلك، فضلاً عن أن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) قد ثبت حثه في أكثر من حديث لإتيان النوافل في البيوت.

3 - تصرفه في الأذان

لم يكن أذان الفجر زمن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يتضمن عبارة (الصلاة خير من النوم)، وإنما كانت من إضافات الخليفة عمر كما يروي الإمام مالك في موطئه:

(.. إذ بلغه أن المؤذن جاء إلى عمر بن الخطاب يؤذنه بصلاة الصبح، فوجده نائماً. فقال: الصلاة خير من النوم. فأمره عمر أن يجعلها في نداء الصبح) (1).

وكان الأذان زمن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يتضمن عبارة (حي على خير العمل) والتي كانت تأتي بعد قول (حي على الفلاح)، ولكن الخليفة عمر أسقط هذا الجز من الأذان حتى يفهم عامة الناس أن خير العمل هو الجهاد في سبيل الله ليندفعوا إليه (2). وعن عكرمة قال: (قلت لابن عباس: أخبرني لأي شئ حذف من الأذان (حي على خير العمل) قال: أراد عمر ألا يتكل الناس على الصلاة ويدعوا الجهاد، فلذلك حذفها من الأذان) (3).

4 - اجتهاده في حكم الطلاق

من المعلوم أن المرأة إذا طلقها زوجها للمرة الثالثة لا يجوز رجوعه إليها إلا بمحلل شرعي، والمقصود بالطلقة الثالثة هي تلك المسبوقة برجعتين وطلقتين، كما في قوله تعالى: (الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان) [البقرة / 229]... (فإن طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجا غيره) [البقرة / 230]. وأما إذا جاءت الثلاث طلقات في جملة واحدة كأن يقول الرجل لزوجته (أنت طالق، طالق، طالق) فتعد طلقة واحدة، إلا أنه وعندما جاء

---

(1) الموطأ لإمام مالك بن أنس ص 58 حديث رقم 151.
(2) سنن البيهقي، ج 1 ص 524 - 25، السيرة الحلبية ج 2 ص 105.
(3) دراسات وبحوث في التاريخ والإسلام ج 1 ص 238، والنص والاجتهاد ص 239.

الخليفة عمر جعلها ثلاث طلقات كما لا يزال الحال عند معظم فقهاء أهل السنة في عصرنا.

ففي صحيح مسلم، عن ابن عباس، قال: (كان الطلاق في عهد رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وأبي بكر وسنتين من خلافة عمر طلاق الثلاث واحدة. فقال عمر بن الخطاب: إن الناس قد استعجلوا في أمر قد كانت لهم فيه أناة. فلو أمضيناه عليهم. فأمضاه عليهم) (1). وفي رواية أخرى: (قال ابن الصهباء لابن عباس:

ألم يكن الطلاق الثلاث على عهد رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وأبي بكر واحدة. فقال: قد كان كذلك، فلما كان في عهد عمر تتابع الناس في الطلاق فأجازه عليهم) (2).

5 - تحريمه البكاء على الميت

البكاء كما هو معروف عند البشر من طبيعة النفس الإنسانية، ويأتي للتعبير عن مشاعر الرحمة والحزن لا سيما عند فقدان الإنسان لعزيز عليه.

وقد بكى الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) كما تواتر عنه في كتب السير والحديث. فهذا البخاري مثلاً يروي بشأن بكائه (صلى الله عليه وآله وسلم) عند زيارته لسعد بن عبادة وقد اشتد عليه المرض، فظن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) أنه مات: (... فلما دخل عليه فوجده في غاشية أهله فقال: قد قضى؟ قالوا: لا يا رسول الله. فبكى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، فلما رأى القوم بكاء النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بكوا، فقال: ألا تسمعون؟ إن الله لا يعذب بدمع العين ولا بحزن القلب، ولكن يعذب بهذا، وأشار إلى لسانه) (3).

ولكن الخليفة عمر كان ينهى عن البكاء على الميت بقوله: (إن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) قال: إن الميت يعذب في قبره بما نيح عليه) (4). وفي رواية أخرى، عن عبد الله بن قال: (لما طعن عمر أغمي عليه، فصيح عليه.

---

(1) صحيح مسلم، كتاب الطلاق، باب الطلقات الثلاث، ج 3 ص 668.
(2) المصدر السابق، ص 670.
(3) صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب البكاء عند المريض، ج 2 ص 220.
(4) صحيح مسلم، كتاب الجنائز، ج 2 ص 590.

فلما أفاق، قال: أما علمتم أن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال: إن الميت ليعذب ببكاء الحي) (1). وحتى أن الخليفة عمر أحياناً لم يكن يكتفي بالنهي عن ذلك بلسانه. ففي صحيح البخاري: (وإن الميت يعذب ببكاء أهله عليه. وكان عمر (رض) يضرب فيه بالعصى ويرمي بالحجارة ويحثي بالتراب) (2).

وقد روي أن عائشة كانت تنفي قول عمر حول هذه المسألة كما يذكر ابن عباس: (فلما مات عمر ذكرت ذلك لعائشة، فقال: يرحم الله عمر، لا والله ما حدث رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) أن الله يعذب المؤمن ببكاء أحد، ولكنه قال: إن الله يزيد الكافر عذاباً ببكاء أهله عليه، ثم قالت: حسبكم القرآن: (ولا تزر وازرة وزر أخرى) [الإسراء / 15]. وقال ابن عباس: وعند ذلك والله أضحك وأبكي) (3).

6 - تجاوزه الحد الشرعي بإقامة الحدود

ومن ذلك أن ابنه عبد الرحمن لما شرب الخمر في مصر، قام واليه هناك عمرو بن العاص بحلق رأسه وجلده الحد الشرعي بحضور أخيه عبد الله بن عمر. ولكن الخليفة عمر عندما علم بذلك أمر بإحضاره مقيداً بإحكام إلى المدينة ثم أقام عليه الحد مرة ثانية وبغلظة بالرغم من مرضه الشديد وصياحه المتكرر: قتلتني يا أبتاه. وقد مات الابن بعد شهر من الحبس (4).

ومن ذلك أيضاً محاولته رجم امرأة مجنونة زنت، لولا قول الإمام علي عليه السلام له: أما علمت أن القلم رفع عن ثلاثة... إلخ، وكذلك محاولته رجم امرأة حامل زنت لولا قول الإمام على عليه السلام: وما سلطانك على ما في بطنها (5).

---

(1) المصدر السابق.
(2) صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب البكاء عند المريض، ج 2 ص 220 - 21.
(3) صحيح مسلم، كتاب الجنائز، ج 2 ص 593 - 594.
(4) سنن البيهقي، ج 8 ص 312. العقد الفريد لابن عبد ربه، ج 3 ص 470.
(5) راجع مصادر هاتين الحادثتين في موضع سابق من هذا الكتاب.

7 - إلغاء سهم المؤلفة قلوبهم

من المعلوم أن الله (سبحانه وتعالى) أمر بصرف سهم من مصاريف الزكاة للمؤلفة قلوبهم، وهم غالباً من الذين يسلمون ونياتهم ضعيفة، فيؤلف قلوبهم بهذا العطاء كما في قوله تعالى: (إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب...) [التوبة / 60].

ولكن الخليفة عمر منع هذا السهم عنهم، ولما جاءه بعض المؤلفة قلوبهم يسألونه حصتهم، قال لهم: (لا حاجة لنا بكم فقد أعز الله الإسلام وأغنى عنكم، فإن أسلمتم وإلا السيف بيننا وبينكم) (1).

أمر الخليفة بالعمل بسيرة الشيخين بجانب الكتاب والسنة

قام عمر بن الخطاب قبل موته بإصدار أمر بالعمل بكل ما صدر عنه وعن سلفه أبي بكر أثناء خلافتهما من قول أو فعل بما في ذلك كل التأويلات والاجتهادات والتي عرفت بمجموعها بسيرة الشيخين أو سنة الشيخين وليكون العمل بها ملازماً للعمل بكتاب الله وسنة نبيه أبد الدهر. وهذا ما يفسر استمرار العمل باجتهادات عمر والتي عرضنا أمثلة منها عند كثير من المسلمين بالرغم من وضوح معارضتها لكتاب الله وسنة نبيه.

وسترى فيما يلي ماذا أفرزه أول تطبيق عملي لسيرة الشيخين هذه.

استخلاف عمر مجلساً للشورى

عندما طعن الخليفة عمر، دخل عليه المهاجرون وقالوا: يا أمير المؤمنين استخلف علينا. قال: والله لا أحملكم حياً وميتاً، إن استخلفت فقد استخلف من هو خير مني، يعني أبا بكر، وإن أدع فقد ودع من هو خير مني، يعني النبي (صلى الله عليه وآله وسلم). ولما أحس بالموت قال لابنه: إذهب إلى عائشة واستأذنها أن

---

(1) الجوهرة النيرة على مختصر القدوري في الفقه الحنفي، ج 1 ص 164.

أقبر في بيتها مع رسول الله ومع أبي بكر. فأتاها عبد الله بن عمر فأعلمها، فقالت: نعم وكرامة. ثم قالت: يا بني أبلغ عمر سلامي وقل له: لا تدع أمة محمد بلا راع، واستخلف عليهم، ولا تدعهم بعدك هملاً، فإني أخشى عليهم الفتنة. فأتى عبد الله إلى أبيه وأخبره. فقال عمر: ومن تأمرني أن أستخلف؟ لو كان أبو عبيدة بن الجراح حياً لاستخلفته، ولو كان سالم مولى أبي حذيفة حياً لاستخلفته وما جعلتها شورى (1).

ثم قال: إن رجالاً يقولون إن بيعة أبي بكر فلتة وقى الله شرها، وإن بيعة عمر كانت من غير مشورة، والأمر بعدي شورى، وقد جعلت أمركم شورى إلى ستة نفر من المهاجرين الأولين وهم: علي، وعثمان، وطلحة، والزبير، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، ودعاهم إليه (2).

ثم قال: إن استقام أمر خمسة منكم وخالف واحد، فاضربوا عنقه، وإن استقام أمر أربعة وخالف اثنان، فاضربوا أعناقهما وإن استقر ثلاثة واختلف ثلاثة فاحتكموا إلى ابني عبد الله، فلأي الثلاثة قضى، فالخليفة منهم وفيهم، فإن أبى الثلاثة الآخرون فاضربوا أعناقهم (3). وفي رواية الطبري: (فإن لم يرغبوا بحكم عبد الله بن عمر فكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف، ولكن بشرط أن يعاهد من يبايع له بأن يعمل بسيرة الشيخين بجانب العمل بكتاب الله وسنة نبيه) (4).

وأما بالنسبة للمرشحين الستة، فإنه كل من كان بمعرفة بمواقفهم السابقة يعلم أنهم كانوا سينقسمون إلى ثلاثتين كما حصل فعلاً. فقد كان علي وطلحة والزبير في جانب ومرشحهم للخلافة هو علي، وفي الجانب الآخر كان سعد

---

(1) طبقات ابن سعد، ج 3 ص 248.
(2) تاريخ الطبري (وفاة عمر بن الخطاب).
(3) ابن قتيبة الدينوري، الإمامة والسياسة، ج 1 ص 42 - 43.
(4) طبقات ابن سعد ج 3 ص 61، تاريخ الطبري، تاريخ ابن الأثير.

عثمان وعبد الرحمن بن عوف ومرشحهم للخلافة هو عثمان. وبما أن الترجيح جعل بيد ابن عوف على حسب الشرط المذكور، فإن جواب الإمام علي عليه السلام بشأن العمل بسيرة الشيخين كان بالرفض قائلاً: (أعمل بكتاب الله وسنة نبيه واجتهادي) (1)، بينما كان جواب عثمان بالقبول، فآلت إليه الخلافة تبعاً لذلك.

وفي صحيح البخاري تجد جزءاً من هذه الحادثة كما يرويها ابن مخرمة، قال: (طرقني عبد الرحمن بعد هجع من الليل فضرب الباب حتى استيقظت، فقال:

أراك نائماً، فوالله ما اكتحلت هذه الثلاث بكثير نوم، انطلق فأدع لي الزبير وسعداً، فدعوتهما له فشاورهما، ثم دعاني فقال: أدع لي علياً فدعوته، فناجاه حتى ابهار الليل. ثم قام علي من عنده وهو على طمع (بمعنى رفضه شرط العمل بسيرة الشيخين)، ثم قال: ادع لي عثمان فدعوته، فناجاه حتى فرق بينهما المؤذن بالصبح، فلما صلى بالناس الصبح، واجتمع أولئك الرهط عند المنبر، فأرسل عبد الرحمن بن عوف إلى من كان حاضرا من المهاجرين والأنصار، وأرسل إلى أمراء الأجناد، وكانوا وافوا تلك الحجة مع عمر فلما اجتمعوا، تشهد ثم قال: أما بعد، يا علي، إني قد نظرت في أمر الناس فلم أرهم يعدلون بعثمان، فلا تجعلن على نفسك سبيلاً. فقال عثمان: أبايعك على سنة الله ورسوله والخليفتين من بعده، فبايعه عبد الرحمن وبايعه الناس) (2).

ولنا أن نتساءل: لماذا أضاف الخليفة عمر شرط العمل بسيرة الشيخين فضلاً عن استحداث مثل هكذا مصطلح أصلاً؟ ولماذا أعلن عمر عند وفاة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) اكتفاءه بكتاب الله، وأصبح الآن عند وفاته هو يقول وكأن كتاب الله وسنة نبيه لا يكفيان إلا إذا أضيف إليهما سنة الخليفتين؟؟

(1) خالد محمد خالد، خلفاء الرسول، ص 272.
(2) صحيح البخاري، كتاب الأحكام، باب كيف يبايع الإمام الناس.

الفصل الثالث
خلافة عثمان

ولادة الدولة الأموية

يذكر المؤرخون أن أبا سفيان قال لابن عشيرته عثمان بن عفان بعد انعقاد البيعة له: (يا بني أمية تلقفوها تلقف الكرة، فوالذي يحلف به أبو سفيان ما زلت أرجوها لكم، ولتصيرن إلى صبيانكم وراثة) (1). وأبو سفيان الذي لا يريد أن يصرح بحلفه باللات والعزى يعبر بقوله هذا عن طبيعة التفكير القبلي والجاهلي الذي تطبع على أساسه وشاب.

والخليفة عثمان - على كل حال - لم يخيب ظنه، حيث بدأ فور تسلمه الخلافة بعزل جميع الولاة الذين عينهم سلفه عمر باستثناء ابن عمه معاوية، واستبدلهم بأقاربه من بني أمية.

ومن ذلك تعيين عثمان لابن عمه مروان بن الحكم معاوناً له، وهو بمثابة منصب وزير الدولة الأول، وعزل سعد بن أبي وقاص من ولاية الكوفة وتوليته عليها بدلاً منه أخاه لأمه الوليد بن عقبة بن أبي معيط ثم توليته عليها فيما بعد سعيد بن العاص وهو أحد أقاربه أيضاً. وكذلك عزل أبا موسى الأشعري عن ولاية البصرة وعين مكانه ابن خاله عبد الله بن عامر، وعزل أيضاً عمرو بن العاص من حكومة مصر وولاها لأخيه بالرضاعة عبد الله بن سعد بن أبي سرح. وكان معاوية في خلافة عمر قد عهد إليه ولاية دمشق وحدها أو حسب روايات أخرى بعض أعمالها، وعندما جاء عثمان جمع له

---

(1) المسعودي، مروج الذهب: 2 / 230.

ولاية بلاد الشام كلها، حيث كانت هذه المنطقة من الناحية العسكرية أهم مناطق الدولة الإسلامية، لأنها كانت بمثابة السد العازل، بمقدور حاكمها أن يعزل الولايات الشرقية عن الغربية، وقد تربع معاوية على سدتها مدة طويلة حتى استقرت جذوره فيها لدرجة جعلته يشعر أن بمقدوره الاستقلال عن العاصمة المركزية، بل ومحاربتها كما حصل فعلاً زمان خلافة علي.

وبهذه التعيينات يكون عثمان قد وضع البذور لدولة أموية، أو كما وصف العلامة أبو الأعلى المودودي بأن عهد عثمان كان بداية التحول من الخلافة الراشدة إلى الملك، وأنه لم تكن هناك حجة كافية لأن تخضع الدولة كلها من خراسان شرقاً إلى شمال إفريقيا غرباً لحكام من بيت واحد (1).

وفي شرحه لتركيبة العائلة الأموية، يقول المودودي: (إن أفراد هذه العائلة الذين ارتقوا في عهد عثمان كانوا جميعاً من الطلقاء. والمراد بالطلقاء تلك البيوت المكية التي ظلت إلى آخر وقت معادية للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وللدولة الإسلامية، فعفا الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) عنهم بعد فتح مكة ودخلوا في الإسلام.

ومعاوية، والوليد بن عقبة، ومروان بن الحكم كانوا من تلك البيوت التي أعطيت الأمان وعفا الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) عنهم. أما عبد الله بن أبي سرح فقد ارتد بعد إسلامه، وكان واحداً من الذين أمر الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) بقتلهم حتى ولو وجدوا تحت أستار الكعبة. وبالطبع ما من أحد يقبل أن يعزل السابقون الأولون الذين خاطروا بأرواحهم في سبيل رفعة الإسلام فارتفع لواء الدين بتضحياتهم، وأن يحكم الأمة بدلاً منهم مثل هؤلاء الناس الذين لم يكونوا يصلحون لتولي زعامة المسلمين... وهم يقفون في آخر صفوف الصحابة والتابعين لا في أولها) (2).

(1) المودودي، الخلافة والملك (تعريب أحمد إدريس)، ص 65.
(2) المصدر السابق، ص 65 - 66.

عثمان وسيرة الشيخين في الحكم

من الواضح أن الخليفة عثمان قد حاد عن سيرة الشيخين والتي عقدت له الخلافة على أساس تعهده بالعمل بها، وذلك بإعطائه لأقاربه المناصب الكبرى، وبإغداقه عليهم الأموال من بيت مال المسلمين، وبخصهم بامتيازات أخرى اعترض الناس عليها. ويضرب المودودي مثالاً لفداحة ما صنعه عثمان في هذا الأمر: (ولنأخذ وضع مروان بن الحكم مثالاً: فقد أسلم أبوه الحكم بن العاص عم سيدنا عثمان (رض) في فتح مكة، ثم قدم المدينة واستقر بها، ولكن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) أخرجه منها - بعد أن بدت منه بعض الأمور - وأمره بالإقامة في الطائف. وقد ذكر ابن عبد البر في الإستيعاب أن من أسباب ذلك أن الحكم بن العاص كان يفشي المشاورات التي كانت تتم سراً بين الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وأكابر الصحابة والتي كان يسمعها بطريقة أو بأخرى وثاني الأسباب أنه كان يقلد الرسول حتى رآه ذات مرة وهو يفعل ذلك. وعلى أي حال، فلا بد أنه ارتكب ذنباً كبيراً أصدر الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) على أساسه أمراً بإخراجه من المدينة، وكان مروان وقتئذ في الثامنة من عمره فسكن الطائف مع أبيه، ولما تولى الخلافة كل من أبي بكر وعمر كان يلتمس في كل مرة منهما السماح بالعودة إلى المدينة ورفضا. ولما تولى عثمان (رض) الخلافة أعاده المدينة... فكان صعباً على الناس أن يصدقوا أن ابن هذا الشخص الذي أخطأ في حق رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يكون أهلاً لأن يصبح معاون الخليفة من دون أكابر الصحابة (رضوان الله عليهم)، خاصة إذا كان الوالد المذنب على قيد الحياة وله قدر من النفوذ على أمور الدولة عن طريق ابنه) (1). وبقي الحكم بن العاص حياً حتى آخر عهد عثمان وتوفي سنة 32 هجرية.

---

(1) المودودي: الخلافة والملك، (تقريب أحمد إدريس)، ص 66 - 67.

وهكذا كان، فقد استغل مروان بن الحكم منصبه كمعاون للخليفة ومستشاره الأول في ارتكاب الأعمال الفاسدة، واختلاس الأموال، وتهديد الصحابة الكبار بكلمات لم يكن يتحمل سماعها من لسان الطلقاء، حتى أن نائلة نصحت الخليفة (وهي زوجته) قائلة: (فإنك متى أطعت مروان قتلك، ومروان ليس له عند الله قدر ولا هيبة ولا محبة) (1). إلا أن الخليفة عثمان أصغى إلى نصيحتها هذه على ما يبدو بإعطائه لمروان (500 خمسمئة ألف دينار)، وهي قيمة خمس غنائم إفريقيا!

إيذاء خيرة الصحابة

لم تكن اعتراضات الناس ونقمتهم على الخليفة لمجرد إسناده أهم مناصب الدولة لأقاربه، والإغداق عليهم من بيت مال المسلمين، وإنما أيضاً للانتهاكات الخطيرة في تعاليم الإسلام وآدابه، والمظالم التي ارتكبت بحق خيرة صحابة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، لا سيما أبي ذر الغفاري، وعبد الله بن مسعود، وعمار بن ياسر، وإليك قصة ما حدث لكل واحد منهم:

1 - أبو ذر الغفاري

وهو الذي قال فيه النبي (صلى الله عليه وآله وسلم): (ما أظلت الخضراء، ولا أقلت الغبراء أصدق من أبي ذر) (2)، ولكنه لاقى النفي إلى الشام لاعتراضه على الخليفة عثمان في مسألة توزيع الأموال وتبذيرها على أقاربه، ثم لاقى النفي مرة أخرى، ولكن هذه المرة إلى البادية في قرية تدعى (الربذة) خارج المدينة عقاباً له من الخليفة لاعتراضه على والي الشام معاوية بن أبي سفيان لاكتنازه الأموال وتبذيرها على حساب بيت مال المسلمين.

ويروي زيد بن وهبة هذه الحادثة قائلاً: (مررت بالربذة، فإذا أنا بأبي ذر الغفاري (رض) فقلت له: ما أنزلك منزلك هكذا؟ قال: كنت بالشام

(1) تاريخ الطبري ج 3 ص 296، البداية والنهاية ج 7 ص 172.
(2) أسير، هل قوت أبا ذر 4، ص 90.

فاختلفت أنا ومعاوية في الآية (والذين يكنزون الذهب والفضة وينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم) [التوبة / 34]. قال معاوية: نزلت في أهل الكتاب، فقلت: نزلت فينا وفيهم. فكان بيني وبينه في ذلك، وكتب إلى عثمان يشكوني، فكتب إلي عثمان: أن أقدم المدينة فقدمتها) (1).

وكانت شكوى معاوية إلى الخليفة أن أبا ذر قد أفسد الناس بالشام، حتى تعالت كلماته على لسان الناس في البيوت والطرقات: (بشر الكانزين بمكاو من نار يوم القيامة) (2).

2 - عبد الله بن مسعود

وهو الذي كان صاحب بيت المال في الكوفة، وقد كان يعترض على والي الخليفة عثمان الوليد بن عقبة - وهو أخوه لأمه - بسبب عدم إرجاعه المال الذي يستدينه من بيت مال المسلمين، ولكثرة إدمانه الخمر، حتى أنه صلى الصبح بالناس أربع ركعات وهو سكران، ثم التفت إلى الناس وقال:

أزيدكم؟

ولكن عبد الله بن مسعود هو الذي عوقب أولاً من الخليفة لاعتراضه على الوليد حيث قال له عثمان: (إنما أنت خازن لنا) (3) ثم أمر غلمانه بضربه حتى لاقى كسراً في أضلاعه. وبعد كثرة تذمر الناس من تصرف الخليفة هذا، أمر بإقامة الحد على الوليد (4).

ومما يجدر ذكره أن الوليد بن عقبة كان من الذين أسلموا بعد فتح مكة، وكلفه الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ذات مرة بجباية صدقات بني المصطلق، إلا أنه بعد أن

---

(1) صحيح البخاري، كتاب الزكاة، ج 2 ص 278.
(2) خالد محمد خالد، رجال حول الرسول، ص 79.
(3) تاريخ الطبري ج 5 ص 134.
(4) صحيح مسلم، كتاب الحدود، باب حد الخمر. الخلافة والملك للمودودي ص 67 - 68.

وصل حدود المنطقة التي تسكنها هذه القبيلة خاف لسبب ما ورجع إلى المدينة، وكذب على النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بالقول أن بني المصطلق رفضوا دفع الزكاة وأرادوا قتله، فغضب الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وأرسل إليهم جيشاً لقتالهم، وكادت أن تقع واقعة كبرى لولا أن رؤساء بني المصطلق علموا بالأمر وجاءوا إلى المدينة ليخبروا الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) أنه لم يأتهم أحد لجباية الزكاة، فنزل قوله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين) [الحجرات / 6]، عندما أصبح عثمان خليفة، عزل عن ولاية الكوفة سعد بن أبي وقاص بطل القادسية، وعين بدلاً منه هذا الفاسق.

3 - عمار بن ياسر

وهو الذي قام بالصلاة على عبد الله بن مسعود ودفنه دون إعلام الخليفة بذلك بناء على وصية من ابن مسعود حتى لا يصلي عليه لما لقيه منه من أذى (1). وكان هذا العمل مما أغضب الخليفة، إلا أن تصرف عمار الذي أثار حفيظة عثمان ضده وجعله يعاقبه عليه أشد العقاب هو - كما يروي ابن قتيبة - تجرؤه بحمل كتاب احتجاج ضد الخليفة وأقاربه كتبه عشرة من الصحابة من ضمنهم المقداد، وذكروا فيه مخالفات عثمان لسنة رسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وسنة صاحبيه (أبي بكر وعمر) وما كان من هبته لخمس خراج إفريقيا لمروان وفيه حق الله ورسوله، ومنهم ذوو القرابة واليتامى والمساكين، وما كان من تطاوله في البنيان، حتى عدوا سبع دور بناها بالمدينة لأهله وبناته، وبنيان مروان القصور، وما كان من الوليد في الكوفة إذ صلى بالناس الصبح أربعة وهو سكران وتعطيله ثم تأخيره الحد عليه، وتركه المهاجرين والأنصار لا يستعملهم على شئ ولا يستشيرهم، وضربه ظهور الناس بالسياط وغير ذلك

(1) تاريخ اليعقوبي، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد.

مما كتب في ذلك الكتاب الاحتجاجي والذي قام عمار بتقديمه إلى الخليفة.

فقال مروان: يا أمير المؤمنين، إن هذا العبد الأسود قد جرأ عليك الناس، وإنك إن قتلته نكلت به من ورائه. فقال عثمان لغلمانه: اضربوه! فضربوه وضربه عثمان معهم حتى فتقوا بطنه وغشي عليه، فجروه حتى طرحوه على باب الدار، فأمرت به أم سلمة زوج النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فأدخل منزلها، وغضب له بنو المغيرة وكان حليفهم، وغضب له أيضاً علي عليه السلام وكبار الصحابة، حتى أن علياً قال لعثمان: (... فأنا أقول كما قال العبد الصالح (فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون) [يوسف / 18].. إلى آخر الرواية) (1).

وغضبت له عائشة أيضاً، فكانت تحمل قميص النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وتقول: (هذا قميص النبي لم يبل وقد أبليت سنته) إلى أن قالت: (اقتلوا نعثلاً فقد كفر) (2).

كيف كان مقتل الخليفة؟

مع كل تلك الممارسات التي قام بها عثمان وأقاربه بانتهاك كل الشرائع والسنن، فقد كان فضلاء الصحابة يحاولون نصح الخليفة، ولكن دون جدوى، وكانت تأتيه الوفود من الأقاليم تحمل معها رسائل احتجاج ومطالبات معينة، فكانت ترفض بشدة في كل مرة، ولا يعطي الخليفة لها أية قيمة أو انتباه.

فلم يكن مستغرباً بعد كل ذلك أن تثور ثورة الثائرين، والذين تزعم حركتهم أناس من مصر، والكوفة، والبصرة، حيث تبادلوا الاتصالات فيما بينهم سراً، حتى توجهوا بعدد يزيد على الألفين، وحاصروا الخليفة لمدة أربعين يوما، وطالبوا بعزله. إلا أن عثمان رفض التفاوض معهم. وعند

(1) ابن قتيبة الدينوري، الإمامة والسياسة ج 1 ص 50 - 51.
(2) تاريخ الطبري ج 5 ص 172، تاريخ ابن الأثير، ابن سعد: الطبقات الكبرى 3 / 66.

اشتداد الحصار عليه، قام باستشارة عبد الله بن عمر بالأمر (وكأن فكرة التنازل قد بدأت تراوح في ذهنه) فأشار عليه ابن عمر بالبقاء في الحكم قائلاً: (لا أرى أن تسن هذه السنة في الإسلام، كلما سخط قوم على أميرهم خلعوه) [1]. وبعد ذلك اقتحم الثوار القصر وقتلوا الخليفة، وبقي جسده مسجى على الأرض لثلاثة أيام دون أن يدفن.

(1) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج 3 ص 66.

الفصل الرابع
خلافة علي

مبايعة الإمام

بعد مقتل الخليفة عثمان، توجهت أنظار الناس إلى الإمام علي عليه السلام وطلبوا مبايعته، أو كما يقول المودودي: (تقول الروايات الصحيحة كلها إن صحابة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وغيرهم من أهل المدينة راحوا إليه، وقالوا له إنه لا يصلح الناس إلا بإمرة، ولا بد للناس من إمام، ولا نجد اليوم أحق بهذا الأمر منك) (1).

ولكن الإمام علي عليه السلام رفض عليهم ذلك، لا لأنه لم يجد في نفسه القدرة على تحمل تبعات الخلافة، بل لأنه (رأى المجتمع الإسلامي قد تردى في هوة من الفوارق الاجتماعية والاقتصادية، والتي زادت عمقا واتساعاً بسبب سياسة ولاة عثمان خلال مدة الخلافة، ورأى أن التوجيهات الإسلامية ومفاهيمها العظيمة التي عمل النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) طيلة حياته على إرساء أصولها في المجتمع الإسلامي الناشئ قد فقدت فاعليتها في توجيه حياة الناس، وإنما صار الناس إلى واقعهم هذا لأنهم فقدوا الثقة بالقوة الحاكمة التي تهيمن عليهم).

ويفهم أيضاً أن سبب رفض الإمام عليه السلام قبوله الفوري لطلبهم هو لاختبارهم وكشف مدى استعدادهم لتحمل المنهج الإسلامي الصحيح في الحكم، حيث خاطبهم قائلاً: (دعوني والتمسوا غيري، فإنا مستقبلون أمراً له

(1) أبو الأعلى المودودي، الخلافة والملك، ص 75

وجوه وألوان، لا تقوم له القلوب، ولا تثبت عليه العقول، وإن الآفاق قد أغامت، والمحجة قد تنكرت، واعلموا أني إن أجبتكم ركبت بكم ما أعلم، ولم أصغ إلى قول القائل وعتب العاتب، وإن تركتموني فأنا كأحدكم ولعلي أسمعكم وأطوعكم لمن وليتموه أمركم) (1). وعندما أصر الناس بمطالبتهم، استجاب لهم الإمام عليه السلام وتمت له البيعة، والتي اعترفت بها جميع الولايات الإسلامية باستثناء ولاية الشام.

منهج الإمام وسياسته في الحكم

حينما تولى الإمام علي عليه السلام أمور المسلمين، فإنه ورث من سلفه عثمان صعوبات كثيرة، وواقعاً في غاية الفساد والانحراف، لا سيما انشقاق معاوية عن الدولة الإسلامية وتفرده بالشام، الأمر الذي شق المجتمع الإسلامي إلى شقين، في كل منهما كيان لا يعترف بالآخر. وقد سارع الإمام إلى إعلان منهجه وسياسته إلى الناس منذ اللحظة الأولى لتوليه الحكم وبين لهم: (إن المسألة بالنسبة إليه ليست تبديل شخص بشخص آخر، وليست مسألة فارق اسمي بين زعيم الأمس وزعيم اليوم، وإنما المسألة اختلاف شامل للمنهج، وفي كل القضايا المطروحة) (2).

ومن هذه القضايا، إلغاء مبدأ التفاضل في العطاء وإعلان مبدأ المساواة بين المسلمين، واعتبارهم سواء في الحقوق والواجبات، وهو يقول: (الذليل عندي عزيز حتى آخذ الحق له، والقوي عندي ضعيف حتى آخذ الحق منه) (3). ويقول في كتابه لمالك الأشتر عندما عينه والياً على مصر: (إنصف الله وانصف الناس في نفسك، ومن خاصة أهلك، ومن لك فيه هوى من

(1) الأديب، دور أئمة البيت في الحياة السياسة، ص 86.
(2) نهج البلاغة، ج 1، ص 59.
(3) نهج البلاغة، ج 1 ص 217.

رعيتك، فإنك إلا تفعل تظلم، ومن ظلم عباد الله كان الله خصمه دون عباده... وليكن أحب الأمور أوسطها في الحق وأعمها في العدل) (1).

وبشأن سياسته عليه السلام في توزيع المال يقول: (وإني حاملكم على منهج نبيكم ومنفذ فيكم ما أمره، ألا وإن كل قطيعة أقطعها عثمان، وكل مال أعطاه من مال الله فهو مردود في بيت المال، فإن الحق لا يبطله شئ) (2). وبهذه الإجراءات فقد صادر الإمام عليه السلام جميع ما وهبه عثمان من الأموال العظيمة لطبقة الإرستقراطيين، وألغى كذلك كل أشكال التمييز في توزيع المال على الناس مؤكداً أن التقوى والسابقية في الإسلام، وهي الأسس التي كان يعتمدها الخليفة عمر في توزيع العطاء أمور لا تمنح أصحابها امتيازات في الدنيا، فالله يتولى جزاءه، أما في هذه الدنيا فالناس سواسية في الواجبات والحقوق (3) ويقول الإمام عليه السلام في ذلك: (وأيما رجل من المهاجرين والأنصار من أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يرى أن الفضل له على سواه لصحبته، فإن الفضل النير غداً عند الله، وثوابه وأجره على الله) (4).

وعلى الصعيد الإداري والسياسي، فقد قام الإمام عليه السلام بعزل الولاة الذين عهد إليهم عثمان ولاية الأقاليم الإسلامية. وبين أسباب عزلهم بقوله:

(ولكني آسى أن يلي أمر هذه الأمة سفهاؤها وفجارها، فيتخذوا مال الله دولاً، وعباده خولاً، والصالحين حرباً، والفاسقين حزباً، فإن فيهم من شرب فيكم الحرام، وجلد حداً في الإسلام، وإن منهم من لم يسلم حتى رضخت له على الإسلام الرضائخ) (5). وكما يوضح الشهيد الصدر: (فإن الإمام

---

(1) المصدر السابق، ص 438.
(2) المصدر السابق، ص 59.
(3) الأديب، دور أئمة أهل البيت في الحياة السياسة، ص 89 - 90.
(4) شرح نهج البلاغة لمحمد عبده، ج 1 ص 269. (5) نهج البلاغة ج 1 ص 59.

علياً عليه السلام لو كان قد أمضى هذه الأجهزة الفاسدة التي خلفها عثمان من قبله، فليس من المعقول بمقتضى طبيعة الأشياء أن يستطيع أن يمارس عملية التغيير الحقيقي في هذه التجربة التي يتزعمها) (1).

وأمام هذا الواقع الجديد الذي أراد الإمام عليه السلام إجراءه، فإنه ولدوافع متعددة لم يرق لبعض الناس هذه التغييرات، ولا رؤية الإمام علي في سدة الحكم، فقاموا ضده وأثاروا الفتن وسيروا الجيوش معلنين العصيان والتمرد وحتى أولئك الذين وقفوا موقف الحياد كان لهم دورا كبير في تفاقم الأوضاع وسلبيتها حيث يصف العلامة المودودي موقفهم بقوله: (إن وقوف بعض أكابر الصحابة موقف الحياد في بيعة علي (رضي الله عنه) قد ساعد على تفاقم الفتنة التي أرادوا درأها (ومن هؤلاء الصحابة: عبد الله بن عمر، وسعد بن أبي وقاص، ومحمد بن سلمة الأنصاري، وغيرهم) ممن كان له نفوذا كبير، فبعث حيادهم وانعزالهم الشك والارتياب في قلوب الناس، في حين كان على الأمة أن تتعاون مع سيدنا علي لإعادة أمن وسلام نظام الخلافة الراشدة) (2).

وسترى فيما يلي تفصيلاً لحوادث العصيان والتمرد التي سيرت ضد خليفة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وإمام المسلمين.

خروج عائشة وموقعة الجمل

عندما علمت عائشة بمقتل عثمان ومبايعة الناس للإمام علي عليه السلام، قالت لعبد الله بن أم كلاب (والله ليت أن هذه انطبقت على هذه إن تم الأمر لصاحبك، ردوني ردوني، فانصرف إلى مكة وهي تقول: قتل والله عثمان مظلوماً، والله لأطلبن بدمه، فقال لها ابن أم كلاب: ولم؟ فوالله إن فوالله إن أول من أمال حرفه لأنت! ولقد كنت تقولين: اقتلوا نعثلاً فقد كفر، قالت: إنهم

(1) تقديم كتاب (تاريخ الإمامية وأسلافهم من الشيعة) للدكتور عبد الله فياض.
(2) المودودي: الخلافة والملك، م. س.

استتابوه ثم قتلوه، وقد قلت وقالوا، وقولي الأخير خير من قولي الأول، فقال لها ابن أم كلاب:

فمنك البداء ومنك الغير * ومنك الرياح ومنك المطر
وأنت أمرت بقتل الإمام * وقلت لنا إنه قد كفر
فهبنا أطعناك في قتله * وقاتله عندنا من أمر... إلخ

فانصرف إلى مكة، فنزلت على باب المسجد، فقصدت للحجر، فسيرت واجتمع إليها الناس، فقالت: يا أيها الناس، إن عثمان قتل مظلوماً، ووالله لأطلبن بدمه (1). وقد وقف إلى جانب عائشة كل من طلحة والزبير، وكان الإمام قد استرد منهما ولايتي اليمن والبحرين، ورفض إعطاءهما ولايتي البصرة والكوفة كما رغبا، فنكثا عهديهما مع الإمام وادعا أنهما كانا قد أكرها على مبايعته، وذهبا إلى مكة يحثان أم المؤمنين عائشة على محاربته بحجة المطالبة بدم عثمان والاقتصاص من قاتليه الذين زعم أنهم قد اندسوا في جيش الإمام علي عليه السلام وما شجع أم المؤمنين على الاستجابة لحثهما هو علمها بخبر رفض معاوية وأهل الشام مبايعة علي، وكذلك وصول عبد الله بن عامر الذي كان آخر وال لعثمان على البصرة، ودعوته لها بالتوجه إلى البصرة ووعده إياها هناك بالمساندة بالمال والرجال.

فأمرت عائشة بعمل هودج لها من حديد، وخرجت متوجهة إلى البصرة ومعها الزبير، وطلحة، وعبد الله بن الزبير، ومحمد بن طلحة، وأتباعهم من بني أمية وعلى رأسهم مروان بن الحكم والذي كان هارباً من المدينة بعد أن علم أن الإمام علياً عليه السلام يطلبه (2). وحاولت عائشة أن تقنع أمهات المؤمنين بمرافقتها إلى البصرة، ولم يوافقها إلى ذلك سوى حفصة إلا أن أخاها

(1) تاريخ الطبري، دار المعارف، ط 5، القاهرة، ج 4 ص 459.
(2) ابن قتيبة الدينوري، الإمامة والسياسة، ج 1 ص 70 - 72.

عبد الله بن عمر المحايد منعها من الذهاب. وأما أم سلمة فقد نصحت عائشة بعدم الخروج.

ويذكر ابن قتيبة أنه عند وصول موكب أم المؤمنين إلى البصرة، اصطف لهم الناس بالطريق وهم يتساءلون: ما الذي أخرج أم المؤمنين من بيتها؟

فقامت عائشة وقالت في خطبة لها: (أيها الناس، والله ما بلغ من ذنب عثمان أن يستحل دمه، ولقد قتل مظلوماً. غضبنا لكم من السوط والعصا (تقصد سوط عثمان وغلمانه) ولا نغضب لعثمان من القتل؟ وإن من الرأي أن تنظروا إلى قتلة عثمان فيقتلوا به، ثم يرد هذا الأمر شورى على ما جعله عمر بن الخطاب). فمن قائل يقول: صدقت، وآخر يقول: كذبت [1].

وعندما بدأت تظهر ملامح الاقتتال، تعاهد والي الإمام على البصرة عثمان بن حنيف الأنصاري مع أم المؤمنين وجيشها على صلح مؤقت لغاية قدوم علي عليه السلام. وقد تعاهدا على أن يحتفظ عثمان بدار الإمارة ومسجدها وبيت المال، وأن ينزل القادمون من مكة حيث شاؤوا عدا هذه الأماكن.

ولم تمض أيام قليلة على هذه المعاهدة حتى أتى طلحة، والزبير، ومروان بن الحكم بجماعة منهم دار الإمارة في منتصف الليل، وقتلوا أربعين من الحرس، ثم أسروا عثمان وقتلوا معاونيه، وحتى أن مروان قام بتعذيب عثمان ونتف لحيته ورأسه وحاجبيه [2]. وكان هذا التصرف إيذاناً بإعلانهم الحرب وقد عبأوا جيشهم انتظاراً لوصول الإمام علي عليه السلام.

ولكن الإمام في ذلك الحين كان يعد العدة للتوجه إلى الشام وقمع تمرد معاوية الذي أعلن نفسه خليف هناك. ثم اضطر إلى العدول عن هذا المخطط لدى علمه بما حصل لواليه على البصرة، وقرر التوجه إلى العراق بجيش لردع المعتدين هناك. وكان من بين أفراد جيشه

(1) المصدر السابق، ص 87 - 88.
(2) المصدر السابق، ص 88 - 89.

المعتدين هناك. وكان من بين أفراد جيشه خيرة صحابة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) كعمار بن ياسر، وعبد الله بن عباس ومحمد بن أبي بكر، وأخيه عبد الرحمن وغيرهم.

وقد حاول الإمام عليه السلام لدى وصوله البصرة إقناع المتمردين بالعدول عن مخططهم، فبدأ بالزبير بن العوام حيث خرج إليه علي حاسراً على بغلة رسول الله لا سلاح معه، فنادى: يا زبير أخرج إلي، فخرج إليه الزبير شاكاً في سلاحه، فقيل ذلك لعائشة، فقالت: واثكلك يا أسماء (وهي أختها وزوج الزبير)، فقيل لها: إن علياً حاسر، فاطمأنت، واعتنق كل واحد منهما صاحبه. فقال علي: ويحك يا زبير، ما الذي أخرجك، قال: دم عثمان، قال علي: قتل الله أولانا بدم عثمان، أتذكر يوم لقيت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)...

فضحك إلي رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، وضحكت إليه، وأنت معه، فقلت أنت: يا رسول الله ما يدع علي زهوه، فقال لك: ليس به زهو، أتحبه يا زبير؟ فقلت:

إني والله لأحبه، فقال لك: إنك والله ستقاتله وأنت ظالم له، فقال الزبير:

أستغفر الله، والله لو ذكرتها ما خرجت، فقال له: يا زبير، إرجع. فقال الزبير:

كيف أرجع الآن وقد التفت حلقتا البطان؟ هذا والله العار الذي لا يغسل، فقال: يا زبير إرجع بالعار قبل أن تجمع العار والنار، فرجع الزبير وهو يقول:

اخترت عاراً على نار مؤججة * ما إن يقوم لها خلق من الطين
نادى علي بأمر لست أجهله * عار لعمرك في الدنيا وفي الدين (1)

وأثناء انسحابه مبتعداً عن ساحة القتال، لحق به عمرو بن جرموز، وهو من أنصار أم المؤمنين وقتله (2).

وبعد تراجع الزبير، نادى علي طلحة، وقال له: يا أبا محمد، ما الذي أخرجك؟ فقال: الطلب بدم عثمان، قال علي: قتل الله أولانا بدم عثمان، يا

---

(1) مروج الذهب، ج 2 ص 400 - 402.
(2) ابن قتيبة الدينوري، الإسلامية والسياسة، ج 2 ص 95.

طلحة أما سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يقول: (اللهم وال من والاه وعاد من عاداه)، وأنت أول من بايعني، ثم نكثت، وقد قال الله عز وجل: (فمن نكث فإنما ينكث على نفسه) [الفتح / 10]، فقال طلحة: أستغفر الله ثم رجع.

وعندما رأى مروان بن الحكم ذلك وهو حليفه، قال: رجع الزبير ويرجع طلحة، ما أبالي رميت ههنا أم ههنا، فرماه في أكحله بسهم فقتله، وقال طلحة وهو يجود بنفسه:

ندمت ما ندمت وضل حلمي * ولهفي ثم لهف أبي وأمي
ندمت ندامة الكسعي لما * طلبت رضى بني جرم بزعمي

وقد التحم الجيشان بعد فشل مساعي الإمام في موقعة ساخنة، كان النصر فيها حليف علي، وقتل فيها ثلاثة عشر ألفاً من الطرفين، وأسرت عائشة، فجهز لها الإمام موكباً يؤمن رجوعها سالمة إلى المدينة. وأسر كذلك مروان بن الحكم وبعض رؤوس بني أمية، وعفا عنهم الإمام بعد أن طلبوا الصفح منه وبايعوه. وقد تمكن عبد الله بن الزبير من الهرب عندما لاحت تباشير النصر لجيش الإمام، وأما محمد بن طلحة فقد قتل أثناء المعركة، وكانا من أشد المحرضين على قتال الإمام حتى اللحظات الأخيرة.

وقد عرفت هذه الحادثة بموقعة الجمل، لاتخاذ عائشة جملاً قوياً جعلت عليه هودجها الفاخر، والذي أصبح بمثابة العلم الذي يتقدم الجيوش المحتشدة حوله، وكان صمود هذا الجمل والهودج الذي عليه رمزاً لصمود الجيش بكامله طوال المعركة. وقد كان انتهاء المعركة عندما ضرب الجمل، وأسر الهودج.

وبعد انقضاء هذه المعركة، وما ولدته من مقتضيات وظروف جديدة، فقد قرر الإمام نقل عاصمة الخلافة الإسلامية من المدينة إلى الكوفة. ومن الأسباب التي شجعته لذلك أيضاً هو موقع الكوفة الجغرافي المتوسط بين البقاع الإسلامية، وقربها من الشام والبصرة، وهما عاصمتا التمرد، بالإضافة

إلى طاقتها البشرية المعتبرة، وقدراتها الاقتصادية وغير ذلك من الاعتبارات (الاستراتيجية).

تمرد معاوية وموقعة صفين

كان قميص عثمان الممزق والمخضب بالدماء الوسيلة التي استخدمها ابن عمه معاوية، كما استخدمها أصحاب الجمل من قبله لتأليب الناس وشحنهم لتأييده في محاربة علي والمطالبة بعزله، حيث إن الإمام كان على زعمهم المحرض على قتل عثمان والمدافع عن قاتليه بسماحه لهم بالإندساس في جيشه. وقد بايع أهل الشام معاوية خليفة كما طلب منهم ذلك، بحجة أنه لا يمكن المطالبة بدم عثمان من غير خليفة.

وبعد العديد من المراسلات بين الإمام ومعاوية، ومشاورة كل منهما معاونيه، لم يكن هناك بد من الاقتتال، وقد فشلت كل محاولات الإمام بإصلاح الموقف سلمياً، وكان آخر كلام معاوية لرسل الإمام: (انصرفوا عني، فليس عندي إلا السيف) (1).

وهكذا التحم الجيشان بالقرب من الفرات بمكان يدعى صفين، وبعد أربعين يوماً من القتال، وسقوط عشرات الآلاف قتلى، لاحت تباشير النصر لصالح جيش الإمام وهزيمة أهل الشام، فلجأ معاوية إلى خدعة رفع المصاحف على رؤوس السيوف والرماح كما أشار عليه عمرو بن العاص، وبالتعاون مع جماعة في جيش الإمام أغراهم معاوية بالمال. حيث قام أحد رجال معاوية منادياً بين الجيشين: الله الله في دمائنا ودمائكم المتبقية، بيننا وبينكم كتاب الله، فقام المتآمرون مع معاوية في جيش الإمام بزعامة الأشعث بن قيس مع الذين انطوت عليهم الخدعة، لا سيما ذوي القلوب الضعيفة والذين ملوا القتال بمطالبة علي بضرورة وقف الحرب قائلين: (قد

(1) ابن الصباغ المالكي، الفصول المهمة، ص 93.

أعطاك معاوية الحق، ودعاك إلى كتاب الله، فاقبل منه) (1). وبهذا انشق جيش الإمام إلى شقين، وفشلت كل محاولات الإمام بإقناعهم بزيف لعبة المصاحف، مما اضطره إلى قبول التحكيم. وقام الأشعث بن قيس وهو الذي ترأس حركة المؤيدين للتحكيم في جيش الإمام بترشيح أبي موسى الأشعري ليكون ممثلاً عن معسكر الإمام في مفاوضات التحكيم، ولكن الإمام عارض ذلك قائلاً: (إن موسى ضعيف عن عمرو [وهو ممثل معسكر الأمويين] ومكائده... وإنه ليس بثقة، وقد فارقني وخذل الناس عني يوم الجمل] (2).

وكان الإمام أيضاً قد عزله قبل ذلك عن ولاية الكوفة بعد تسلمه مهام الخلافة. ومع إصرار الأشعث وجماعته عليه، ورفضهم رأي الإمام بإسناد مهمة تمثيل معسكر الإمام في التفاوض إلى عبد الله بن عباس أو مالك الأشتر، لم يجد الإمام مناصاً من القبول واحتساب الأمر إلى الله قائلاً: فاصنعوا ما أردتم. ثم وقع الفريقان وثيقة التحكيم الأولية تعهدا بها التوقف عن القتال لغاية ظهور نتيجة التحكيم.

وقد اجتمع الحكمان بعد هذه الموقعة بثمانية شهور في دومة الجندل ومع كل منهما أربعمئة من صحبه. وبعد أيام من المفاوضات قبل عمرو بن العاص اقتراح أبي موسى الأشعري بخلع كل من علي ومعاوية، وتعيين عبد الله بن عمر - والذي لم يكن حاضراً آنذاك - إماماً للأمة بدلاً منهما (!) ثم قاما ليعلنا للحضور نتيجة التحكيم، فبدأ أبو موسى الأشعري، وهو صهر عبد الله بن عمر قائلاً: (إن هذه الفتنة قد أكلت العرب، وإني رأيت وعمرو أن نخلع علياً ومعاوية، ونجعلها لعبد الله بن عمر، فإنه لم يبسط في هذه الحرب يداً ولا لساناً).

ثم قام ابن العاص خاطباً: (أيها الناس، هذا أبو موسى شيخ المسلمين، وحكم أهل العراق، ومن لا يبيع الدين بالدنيا، قد خلع علياً وأنا

---

(1) ابن قتيبة الدينوري، الإمامية والسياسة، ج 1 ص 135.
(2) ابن الجوزي، تذكره الخواص، ص 79.

أثبت معاوية)، فاختلط الناس، وعمت الفوضى، وتشاتم الحكمان بأخس الكلمات. ثم انصرف عمرو ومن معه إلى معاوية بالشام، ولحق أبو موسى بمكة، ورجع من كان بصحبته إلى الكوفة [1]. ويقول المودودي في تعليقه على مجمل أحداث صفين: (وتصرف سيدنا علي عليه السلام وما سلكه في هذه الحرب يظهر الفرق بين خليفة راشد وملك من الملوك) [2].

الخوارج وتفكك جيش الإمام

ظهر أثناء عودة جيش الإمام من موقعة صفين مجموعة من المقاتلين ندموا على التحكيم الذي كانوا قد أرادوه وأصروا عليه، وتبين لهم أن ذلك كان خطأ وذنباً عظيماً لا يمحوه إلا العودة إلى القتال، فذهبوا إلى الإمام يطلبون منه ذلك ونقض وثيقة التحكيم، ولكنه أجابهم: (قد كتبنا بيننا وبينهم كتاباً، وشرطنا شروطاً، وأعطينا عليها عهودنا ومواثيقنا) فانشقوا عن جيش الإمام، واستقروا عند قرية الحرورية قرب الكوفة، واعتبروا أن التحكيم مخالف لكتاب الله، وأن كل من لم يتب عن قبوله يعد كافراً.

وعندما أصر الإمام على رفض مقولتهم هذه والرجوع إلى القتال عزموا على مقاتلته، وولوا عليهم عبد الله بن وهب الراسبي، ثم انتقلوا إلى مكان يعرف بجسر النهروان، وجعلوه مركزاً لدعوتهم وتحركهم. وقد عرفت هذه المجموعة باسم الخوارج، وهم الذين تنبأ الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) بظهورهم حيث وصفهم قائلاً: (قوم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية... يتلون القرآن لا يتجاوز تراقيهم)، وأطلق عليهم لقب الجباه السود لكثرة سجودهم) [3].

---

(1) ابن قتيبة الدينوري، الإمامة والسياسة، ج 1 ص 157.
(2) المودودي، الخلافة والملك، ص 82.
(3) الحسني، سيرة الرسول وخلفائه، ج 7 ص 196.

ولما علم الإمام بما حصل في دومة الجندل بين الحكمين، أصبح في حل من وثيقة التحكيم، وقرر استئناف القتال ضد متمردي الشام، فأرسل إلى الخوارج: (أما بعد، فإن هذين الرجلين اللذين ارتضيناهما حكمين قد خالفا كتاب الله واتبعا هواهما بغير هدى من الله، فإذا بلغكم كتابي هذا فاقبلوا، فإنا سائرون إلى عدونا وعدوكم، ونحن على الأمر الأول الذي كنا عليه والسلام).

فكتبوا إليه: (أما بعد، فإنك لم تغضب لربك، وإنما غضبت لنفسك، فإن شهدت على نفسك بالكفر، واستقبلت التوبة، نظرنا فيما بيننا وبينك، وإلا فقد نبذناك على سواء، إن الله لا يحب الخائنين). فلما قرأ الإمام كتابهم أيس منهم، ورأى أن يتركهم ويمضي بجيشه حتى يلقى أهل الشام (1).

ولكن الخوارج أخذوا يعترضون الناس في الطرقات، ويفعلون بهم الأفعال المنكرة، كنهب من يخالفهم والتشنيع بجثته، فاضطر الإمام أن يغير وجهة سيره، ومواجهة هذه العصابة المنشقة المفسدة في الأرض أولاً. فسار إليهم بجيشه ووعظهم أولاً، ودعاهم إلى العودة والتوبة، ولكنهم أصروا على تشددهم وعنادهم، فقاتلهم الإمام وألحق بهم شر هزيمة. ويروي المسعودي في (مروج الذهب) أنه قتل من أصحاب علي يوم النهروان تسعة نفر، ولم يفلت من الخوارج إلا عشرة بعد أن كان عددهم عند بدء القتال أربعة آلاف (2).

وبعد أن انتهى الإمام من الخوارج، أراد أن يواصل سيره من النهروان نحو الشام، ولكن غالبية أفراد جيشه أبوا عليه ذلك، متذرعين بالقول: (يا أمير المؤمنين، نفذت نبالنا وكلت أذرعنا وتقطعت سيوفنا ونصلت أسنة رماحنا، فارجع بنا نحسن عدتنا). وكان الإمام يدرك كل هذه الضرورات، ولكنه كان يدرك أيضاً أن معنويات جيشه في تنازل، سيفضلون الراحة، في

---

(1) المصدر السابق، ص 202 - 203.
(2) المصدر السابق، ص 222.

حالة عودتهم إلى الكوفة، فأراد أن يسير بهم مباشرة إلى الشام وهم في عدة القتال وعزيمة الحرب. وعندما أصروا على موقفهم بالعودة إلى الكوفة، نزل بهم الإمام في معسكر قرب الكوفة، وأمرهم أن يلزموا معسكرهم ويوطنوا أنفسهم على الجهاد، وأن يقللوا من زيارة بيوتهم حتى يسيروا إلى عدوهم من أهل الشام وهم بعزيمة وقوة، ولكنهم لم يصبروا على هذه الحال سوى أيام معدودات، وبدأوا يرجعون ويتسللون إلى الكوفة، حتى تركوا الإمام ومن معه إلا نفر قليل من رجاله المخلصين، فلما رأى الإمام ذلك، رجع بمن تبقى معه إلى الكوفة، وانكسر عليه رأيه في المسير، وحاول الإمام بعد ذلك استنهاض روح الغيرة والحمية فيهم، ولكنهم تقاعسوا وكرهوا الخروج إلى الحرب (1).

غارات معاوية على الولايات الإسلامية

استغل معاوية حالة التفكك التي أصابت معسكر الإمام في العراق، وأخذ يتطلع لتوسيع رقعة إمارته، فبدأ يرسل الجيوش إلى مختلف الولايات الخاضعة لخلافة الإمام علي عليه السلام للإغارة عليها. وكانت ولاية مصر من أهم ما كان يطمح إليه معاوية لكثرة خراجها، فأرسل إليها عمرو بن العاص بجيش كبير، وتمكن من احتلالها، وقتل واليها محمد بن أبي بكر، والتمثيل فيه. ويروي المؤرخون أن عمرو بن العاص ومعاونه معاوية بن خديج وآخرين أخذوا محمد بن أبي بكر بعد إصابته وجعلوه في جوف حمار ميت وأحرقوه بالنار وهو لا يزال حياً (2).

وكان الإمام قبل وصوله خبر مقتل محمد بن أبي بكر قد أرسل مالك الأشتر بجيش إلى مصر للدفاع عنها واستلام ولايتها، ولكن معاوية بن أبي

---

(1) ابن قتيبة الدينوري، الإمامة والسياسة ج 1 ص 170 (بتوصيف).
(2) المسعودي، مروج الذهب، ج 2 ص 420.

سفيان أبرق إلى أحد رجاله بالعريش بأن يغتال مالك الأشتر قبل أن يصل إلى مصر. وهكذا حصل، فعند مرور مالك الأشتر بالعريش دعاه رئيس هذه المنطقة التابعة لمعاوية وتحايل عليه وقتله بالسم (1).

ومن هذه الغارات أيضاً التي كان يشنها رجال معاوية على المناطق الموالية للإمام علي عليه السلام غارة النعمان بن بشير على عين التمر وهي قرية قريبة من الأنبار غربي الكوفة (2)، وغارة الضحاك بن قيس الفهري على بعض القرى في الطريق بين مكة والكوفة، وقد أرسل لهم الإمام حجر بن عدي بجيش وهزمهم. وغارة سفيان بن عوف الغامدي على الأنبار غربي العراق، حيث قام جنود معاوية بقتل عامل الإمام على هذه المنطقة أشرس بن حسان البكري، وأمعنوا في النهب وقتل السكان الآمنين (3).

وكانت أبشع هذه الغارات هي تلك التي شنها بسر بن أرطأة العامري، وهو أشد المخلصين لبني أمية والمعروف بالفظاظة والقسوة إلى أبشع الحدود، وأغار بجيش كبير على الحجاز واليمن حيث أعمل فيها المجازر الوحشية، ونهب الأموال، وهدم البيوت، لأن أهاليها رفضوا إعطاء الطاعة والولاء لمعاوية، وأرغم أهل المدينة المنورة والتي كانت بعهدة أبي أيوب الأنصاري على مبايعة معاوية، واستخلف عليهم أبا هريرة - المعروف بكثرة روايته للحديث والولاء لبني أمية - بعد أن قتل فيها أناساً كثيرين من الموالين للإمام عليه السلام. وهكذا فعل في مكة ونجران. وفي همدان أقدم على سبي النساء وبيعهن في السوق وكان يأمر بكشف سوقهن فأيتهن كانت أعظم ساقاً اشتريت على عظم ساقها. وفي اليمن، ارتكب أفظع الجرائم، وقتل فيها خلقاً كثيراً من ضمنهم طفلي عبيد الله بن العباس عامل الإمام علي عليه السلام على

---

(1) المصدر نفسه.
(2) علي فضل الله الحسني، سيرة الرسول وخلفائه، ج 7 ص 291.
(3) المصدر السابق، ص 302.

اليمن، ويروى أنه ونظراً للطريقة الوحشية التي قتل فيها الطفلان فإن أمهما التي رأت ذلك أصابها الجنون وهامت على وجهها في الجبال والوديان.

وعندما وصل الإمام خبر هذه المجازر، أمر بتجهيز جيش فتثاقلوا، حتى أجابه إلى ذلك جارية بن قدامة السعدي، فبعثه الإمام في سرية من ألفي رجل، فتعقب رجال ابن أرطأة حتى أخرجهم من جميع تلك المناطق التي عاثوا فيها الفساد (1).

آخر أيام الإمام واستشهاده

ظل الإمام يحاول جاهداً تجهيز جيش يسير به لإخماد التمرد والفساد في وكره بالشام، إلا أن أهل العراق قد بدا منهم الضعف والتقاعس عن نصرته، وعندما يئس من استنهاض هممهم، ولم يجد معهم حثه لهم على الجهاد في سبيل الله، قام وخطب فيهم خطبة طويلة تفيض بالمرارة والتأسف لما آل إليه حال المسلمين وما سيؤول. ونقتطف من خطبته هذه ما يلي: (أما بعد، فإن الجهاد باب من أبواب الجنة، فتحه الله لخاصة أوليائه، وهو لباس التقوى ودرع الله الحصينة وجنته الوثيقة، فمن تركه رغبة عنه ألبسه الله ثوب الذل وشمله البلاء...

ألا وإني قد دعوتكم إلى قتال هؤلاء ليلاً ونهاراً، سراً وإعلاناً، وقلت لكم أغزوهم قبل أن يغزوكم، فوالله ما غزي قوم قط في عقر دارهم إلا ذلوا، فتواكلتم وتخاذلتم حتى شنت عليكم الغارات وملكت عليكم الأوطان... فيا عجباً!

عجباً!، ـ والله يميت القلب ويجلب الهم من اجتماع هؤلاء القوم على باطلهم، وتفرقكم عن حقكم... فقبحاً لكم وترحاً حين صرتم غرضاً يرمى، يغار عليكم ولا تغيرون، وتغزون ولا تغزون، ويعصى الله وترضون!... يا أشباه الرجال ولا رجال!... قاتلكم الله، لقد ملأتم قلبي قيحاً، وشحنتم صدري غيظاً...، وأفسدتم علي رأيي بالعصيان والخذلان، حتى لقد قالت قريش: إن ابن أبي

---

(1) مروج الذهب للمسعودي ج 3 ص 30، وانظر كذلك الإستيعاب.

طالب رجل شجاع ولكن لا علم له بالحرب، لله أبوهم! وهل أحد منهم أشد لها مراساً، وأقدم فيها مقاماً مني! لقد نهضت فيهم وما بلغت العشرين، وها أنا ذا قد ذرفت على الستين، ولكن لا رأي لمن لا يطاع) (1).

وصدق من قال إن الإمام علي علياً عليه السلام عاش في غير زمانه، فكل من يتأمل أقوال الإمام وما صارت إليه الأحداث، يتقين أن الإمام وصل إلى ما وصل إليه نبي الله نوح عليه السلام عندما: (قال رب إني دعوت قومي ليلاً ونهاراً، فلم يزدهم دعائي إلا فراراً) [نوح / 5 - 6]. وأن استمرار وجوده بينهم لا يزيده إلا آلاماً وقهراً، وكأن الإمام في هذه الأحوال قد انتهت مهمته على وجه الأرض، وحانت ساعة الرحيل عن هذه الدنيا.

وهكذا كان، ففي غضون تلك الأيام كان نفر من الخوارج يجتمعون في مكة ويخططون لقتل الإمام. ويروي المؤرخون هذه القصة كما يلي: حج ناس من الخوارج سنة 39 ه، وقد اختلف عامل علي وعامل معاوية فيمن يحج بالناس، فاصطلح الناس على ثالث هو شبيب بن عثمان، فلما انقضى الموسم أقام النفر من الخوارج مجاورين بمكة، فقالوا: كان هذا البيت معظماً في الجاهلية، جليل الشأن في الإسلام، وقد انتهك هؤلاء حرمته، فلو أن قوماً منا شروا أنفسهم لله فقتلوا هذين الرجلين (علي ومعاوية) اللذين قد أفسدا في الأرض، واستحلا حرمة هذا البيت، استراحت الأمة واختار الناس لهم إماماً، فقال عبد الرحمن بن ملجم المرادي لعنة الله: أنا أكفيكم أمر علي، وقال الحجاج بن عبد الله الصريمي وهو البرك: أنا أقتل معاوية، فقال عمرو بن بكر: والله ما عمرو بن العاص بدونهما، فأنا به. فتعاقدوا على ذلك، ثم اعتمروا عمرة رجب، واتفقوا على يوم واحدة يكون فيها وقوع القتل منهم في علي ومعاوية وعمرو (2).

---

(1) محمد دشتي: المعجم المفهرس لألفاظ نهج البلاغة، ص 21 خطبة رقم (27).
(2) ابن قتيبة الدينوري، الإمامة والسياسة، ج 1 ص 179 - 80.

وحسب هذا الموعد، قعد ابن ملجم للإمام في مسجد الكوفة حين خروجه لصلاة الصبح، وطعنه في رأسه الشريف أثناء سجوده بسيف مسموم، فأصيب الإمام عليه السلام على أثر ذلك إصابة بالغة أذنت معها ساعة الرحيل إلى الرفيق الأعلى بعد الحادثة بيومين في ليلة الجمعة من الحادي والعشرين من رمضان عام 40 ه. وقد أقتص من القاتل اللعين والذي كان الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) قد وصفه بأشقى الآخرين.

وأما البرك فإنه انطلق إلى الشام، وعندما كان ميعادهم، قعد لمعاوية عند خروجه لصلاة الصبح، وقصد لضربه ولكن معاوية تمكن من الإدبار قليلاً فوقعت الضربة في أسفل إليته، وسببت له جرحاً شفي منه ولم تحدث له ضرراً سوى قطع نسله، فقال: عندي يزيد وعبد الله ما يقر عيني وحسبي بهما، وأمر بقتل البرك (1). وقيل إن معاوية لم يقتله وإنما قطع يده ورجله، وذهب ليقيم بالبصرة وأن ابن زياد والي معاوية هناك هو الذي قام بقتله لما بلغه خبره (2).

وأما الثالث فقصد عمرو بن العاص في مصر، ولما كانت ليلة الميعاد، لم يخرج عمرو لصلاة الصبح لألم في بطنه، فصلى بالناس بدلاً منه ابن حذافة العدوي، فقصده عمرو بن بكر التميمي وقتله ظناً به أنه ابن العاص.

ولما قبض عليه، أخذ إلى عمرو بن العاص وقتله.

---

(1) المصدر السابق، ص 182.
(2) المسعودي مروج الذهب ج 2 ص 464.

الفصل الخامس
خلافة الحسن

عهد الإمام علي عليه السلام قبل استشهاده بالخلافة لابنه الحسن عليه السلام، وبايعه الناس على ذلك. وعند وصول خبر استشهاد الإمام إلى الشام، تحرك معاوية بجيش كبير قوامه 60 ستون ألفاً نحو العراق ليضمه إلى ملكه، ويجبر الإمام الحسن عليه السلام على الاستسلام.

ونظراً لانهيار معنويات جيش الإمام والاضطرابات التي سادت البصرة والكوفة، بالإضافة إلى تهيؤ الرومان بجيش عظيم لحرب المسلمين، الأمر الذي سيجعل من الحرب مع معاوية بنظر الإمام الحسن عليه السلام كارثة على الإسلام والمسلمين، فإنه لم يجد حلاً سوى المصالحة والمسالمة وحقن الدماء. وقد دامت خلافة الحسن عليه السلام لستة شهور فقط.

وكانت أهم بنود الصلح تسليم الخلافة على بلاد المسلمين كلها إلى معاوية على أن يعمل بالكتاب والسنة النبوية، وأن يكون الأمر بعده إلى الحسن عليه السلام، وإن توفي قبل ذلك يكون الأمر للحسين عليه السلام.

ويتعهد معاوية كذلك بوقف الشتائم ضد الإمام علي عليه السلام على المنابر وغيرها، وعدم التعرض للموالين لأهل البيت عليه السلام بالملاحقة والأذى، وأن يبقى ما في بيت مال الكوفة تحت تصرف الحسن عليه السلام.

وبعد توقيع معاهدة الصلح، اجتمع الفريقان في مسجد الكوفة، فسبق معاوية إلى المنبر وخطب: (أما بعد، فإنه لم تختلف أمة بعد نبيها، إلا غلب باطلها حقها، إلا ما كان من هذه الأمة، فإن حقها غلب باطلها (!). ثم ذكر

علياً عليه السلام ونال منه، ونال كذلك من الحسن عليه السلام إلى قوله: ألا وإن كل شئ (عهد) أعطيته الحسن تحت قدمي هاتين لا أفي به) (1).

فقام الإمام الحسن عليه السلام وخطب خطبة مطولة رد فيها على معاوية بقوله: (أيها الناس إن الله هداكم بأولنا، وحقن دماءكم بآخرنا، وإن لهذا الأمر مدة، والدنيا دول... وإن معاوية زعم لكم أني رأيته للخلافة أهلاً، ولم أر نفسي لها أهلاً، فكذب معاوية. نحن أولى الناس بالناس في كتاب الله (عز وجل) وعلى لسان نبيه، ولم نزل - أهل البيت - مظلومين منذ قبض الله نبيه، فالله بيننا وبين من ظلمنا، وتوثب على رقابنا، وحمل الناس علينا، ومنعنا سهمنا من الفئ، ومنع أمنا ما جعل لها رسول الله، وأقسم بالله لو أن الناس بايعوا أبي، حين فارقهم رسول لأعطتهم السماء قطرها، والأرض بركتها، ولما طمعت فيها يا معاوية... فلما خرجت (الخلافة) من معدنها، تنازعتها قريش بينها، فطمع فيها الطلقاء وأبناء الطلقاء، أنت وأصحابك. وقد قال رسول الله: ما ولت أمة أمرها رجلاً وفيهم من هو أعلم منه، إلا لم يزل أمرهم يذهب سفالاً حتى يرجعوا إلى ما تركوا (يقصد الجاهلية). ثم دار بوجهه إلى معاوية قائلاً: أيها الذاكر علياً، أنا الحسن وأبي علي، وأنت معاوية وأبوك صخر، وأمي فاطمة وأمك هند، وجدي رسول الله وجدك عتبة بن ربيعة، وجدتي خديجة وجدتك فتيلة. فلعن الله أخملنا ذكراً وألأمنا حسباً وشرنا قديماً وحديثاً وأقدمنا كفراً ونفاقاً) (2).

ولم يمكث الإمام الحسن عليه السلام في الكوفة بعد الصلح سوى أيام معدودات، حيث اتجه إلى المدينة واستقر فيها. ويروي المؤرخون أن الله (سبحانه وتعالى) صب على الكوفة بعد خروج آل محمد منها الطاعون الجارف عقوبة عاجلة لها بسبب موقف أهلها المتخاذل من هؤلاء البررة

(1) تاريخ ابن كثير ج 8 ص 131، مقاتل الطالبيين للأصفهاني ص 70.
(2) راضي آل ياسين، صلح الحسن، ص 287.

الميامين، وقد أخذ هذا المرض أرواح آلاف الناس حتى أن والي معاوية على الكوفة المغيرة بن شعبة خرج منها فراراً من المرض، وعندما ظن أن هذا الوباء قد ذهب رجع إلى الكوفة فأصيب بالمرض ومات فيه (1).

واستشهد الإمام الحسن عليه السلام في سنة 49 ه بعد أن دست له زوجته جعدة بنت المنافق المعروف الأشعث بن قيس السم بتحريض من معاوية، وقد وعدها بمئة ألف دينار وبالتزويج من ابنه يزيد. فأوفاها بما وعدها من مال، وأبى عليها التزويج من ابنه قائلاً لها: (أخشى أن تفعلي به كما فعلت بابن رسول الله) (2). وكان ذلك في منتصف خلافة معاوية، وهو الوقت الذي بدأ فيه يخطط بتوريث الخلافة إلى ابنه يزيد. ويروي ابن قتيبة أن معاوية لما أتاه خبر وفاة الحسن عليه السلام أظهر فرحاً وسروراً، حتى سجد وسجد من كان معه (3).

---

(1) مروج الذهب للمسعودي، ج 2 ص 290.
(2) المصدر السابق، ص 50.
(3) ابن قتيبة الدينوري، الإمامة، السياسة، ج 1 ص 196.

الفصل السادس
خلافة معاوية

وجاء الملك العضوض

وأخيراً صفا الجو لمعاوية بعد مقتل الإمام علي عليه السلام وتسليم الحسن عليه السلام الخلافة إليه، وعندما دخل الكوفة، خطب بالناس هناك معبراً عن حقيقة نواياه تجاه الخلافة والحكم قائلاً: (إني والله ما قاتلتكم لتصلوا ولا لتصوموا، وإنما قاتلتكم لأتأمر عليكم، وقد أعطاني الله ذلك وأنتم كارهون) (1). وبشأن ما صالح عليه الحسن عليه السلام قال: (ألا وإن كل شئ أعطيته الحسن فتحت قدمي هاتين) (2).

والحقيقة فإن سلوك معاوية طوال مدة خلافة، بل ومنذ أن ولاه الخليفة عمر بن الخطاب ولاية الشام، في الولاية والحكم كان مصداقاً لسلوك الملك المستبد، وهو لم يضع تحت قدميه معاهدة صلحه مع الإمام الحسن عليه السلام فقط، وانما قام بإنزال تعاليم الاسلام الربانية وقيمه السامية ذلك المنزل أيضاً. وإضافة لكل ما ذكرناه بشأن معاوية في مواضع سابقة، سترى فيما يلي بعض الشواهد الصارخة التي تؤكد هذه الحقيقة:

---

(1) تاريخ ابن كثير، ج 8 ص 131.
(2) مقاتل الطالبيين للأصفهاني.

الأمر بلعن الإمام علي عليه السلام على المنابر

كان معاوية يعمل غاية جهده في التقليل من شأن الإمام علي عليه السلام وانكار فضائله، بل والطعن فيه حتى تجاوز كل ذلك بأمره جميع عماله في الولايات بسب الإمام ولعنه على المنابر في كل جمعة وعيد وقنوت الصلوات.

ويروي الجاحظ: (إن معاوية كان يقول في آخر خطبته: اللهم أن أبا تراب [يعني علياً] ألحد في دينك، وصد عن سبيلك، فالعنه لعناً وبيلاً، وعذبه عذاباً أليماً. وكتب بذلك إلى الآفاق، فكانت هذه الكلمات يشاد بها على المنابر إلى أيام عمر بن عبد العزيز، وأن قوماً من بني أمية قالوا لمعاوية: يا أمير المؤمنين، إنك قد بلغت ما أملت، فلو كففت عن هذا الرجل. فقال: لا والله حتى يربو عليه [سب الإمام] الصغير ويهرم عليه الكبير، ولا يذكر له ذاكر فضلاً) (1). وقال الزمخشري: إنه كان في أيام بني أمية أكثر من سبعين ألف منبر يلعن عليها علي بن أبي طالب بما سنه لهم معاوية من ذلك (2).

وروي أيضاً أنه عندما كتب معاوية إلى عماله أن يلعنوا علياً على المنابر ففعلوا، كتبت أم سلمة زوج النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) إلى معاوية: إنكم تلعنون الله ورسوله على منابركم، وذلك أنكم تلعنون علي بن أبي طالب ومن أحبه، وأنا أشهد أن الله أحبه ورسوله. فلم يلتفت معاوية إلى كلامها (3).

وأخرج مسلم في صحيحه (أن معاوية أمر سعد بن أبي وقاص فقال: ما منعك أن تسب أبا التراب (يعني علياً)؟ فقال: أما ذكرت ثلاثاً قالهن له رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فلن أسبه، لئن تكون لي واحدة منها أحب إلي من حمر النعم...

إلى آخر ما قال) (4). وفي صحيح مسلم أيضاً: (استعمل معاوية على المدينة

---

(1) الأميني، الغدير في الكتاب والسنة والأديب، ج 2 ص 102.
(2) المصدر السابق.
(3) المصدر السابق، ج 10 ص 260.
(4) صحيح مسلم، كتاب الفضائل، باب فضائل علي، ج 5 ص 268.

(مروان بن الحكم) فدعا سهل بن سعد فأمره أن يشتم علياً، فأبى سهل. فقال مروان: أما إذا أبيت فقل لعن الله أبا التراب، إنه كان ليفرح إذا دعي بها) (1).

وقد أقدم مروان بن الحكم وخلافاً للسنة النبوية على تقديم خطبة العيدين على الصلاة لأن الحضور كانوا يتفرقون بعدها لكراهيتهم سماع شتم مروان في خطبته لعلي عليه السلام. وأخرج البخاري عن ابن عباس قال: (شهدت العيد مع رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وأبي بكر وعمر وعثمان (رضي الله عنهم)، فكلهم كانوا يصلون قبل الخطبة) (2). وقال أبو سعيد الخدري: فلم يزل الناس على ذلك حتى خرجت مع مروان وهو أمير المدينة في أضحى أو فطر، فلما أتينا المصلى، إذا منبر بناه كثير بن الصلت، فإذا مروان يريد أن يرتقيه قبل أن يصلي، فجذبته بثوبه فجذبني. فارتفع فخطب قبل الصلاة. فقلت له: غيرتم والله. فقال مروان: قد ذهب ما تعلم... إن الناس لم يكونوا يجلسون لنا بعد الصلاة، فجعلت الخطبة قبل الصلاة (3).

وكان معاوية في أحيان كثيرة يأمر بإنزال أشد العقاب بما في ذلك القتل بكل من يأبى شتم الإمام علي عليه السلام. ومن ذلك ما يروى أنه عندما كان بسر بن أرطأة يشتم علياً على منبر البصرة قال: نشدت الله رجلاً علم أني صادق إلا صدقني، أو كاذب إلا كذبني. فقال أبو بكرة: اللهم لا نعلمك إلا كاذباً. فأمر به ابن أرطأة فخنق (4). وحسبك في ذلك ما جرى لحجر بن عدي وأصحابه.

قتل حجر بن عدي وأصحابه

روي أن زياداً والي معاوية على العراق إذا خطب يوم الجمعة فإنه يكثر من مدح عثمان والانتقاص من علي مما كان يغضب له حجر بن عدي،

---

(1) المصدر السابق، ص 274.
(2) صحيح البخاري، كتاب العيدين، باب الخطبة بعد العيد، ج 2 ص 42.
(3) المصدر السابق، كتاب العيدين، باب الخروج إلى المصلى بغير منبر، ج 2 ص 40.
(4) تاريخ الطبري، ج 6 ص 96.

وأطال زياد يوماً في خطبة الجمعة وآخر الصلاة، فقال له حجر: الصلاة، فمضى زياد في خطبته. فخشي حجر فوات الصلاة فقام وأراد تأدية الصلاة ولحقه الناس، فلما رأى زياد ذلك نزل وصلى بالناس. ثم كتب إلى معاوية في أمر حجر وصحبه. فكتب معاوية إلى واليه أن شدهم في الحديد واحملهم إلي.

وعند وصولهم إلى الشام في مرج عذراء قرب دمشق جاءهم رسول معاوية وقال لهم: إنا قد أمرنا أن نعرض عليكم البراءة من علي واللعن له، فإن فعلتم تركناكم وإن أبيتم قتلناكم. فقالوا: لسنا فاعلي ذلك، وقاموا فصلوا. وقال حجر: أما والله لئن قتلتموني بها [مرج عذراء] فإني لأول المسلمين كبر في نواحيها، وأول فارس من المسلمين هلك في واديها [فحجر بن عدي هو الذي قام بفتح منطقة مرج عذراء أيام خلافة عمر] فقتلوه، وقتلوا ستة من أصحابه. وقال اثنان منهما: إبعثوا بنا إلى أمير المؤمنين، فإنا نقول في علي مقالته، فأذن لهما معاوية. فأما الأول فقد تبرأ من علي فعفا معاوية عنه. ونفاه إلى الموصل، وأما الثاني وهو عبد الرحمن العنزي فقال لمعاوية:

أشهد أن علياً كان من الذاكرين لله تعالى كثيراً، ومن الآمرين بالحق، والقائمين بالقسط، والعافين عن الناس. فرده معاوية إلى زياد وأمر أن يقتل شر قتلة، فدفنه زياد حياً) (1).

شرب الخمر

وقد أثبت هذه الحقيقة بعض رجال الحديث والسير، ومن هؤلاء أحمد بن حنبل في مسنده، حيث روى عن عبد الله بن بريدة، قال: (دخلت أنا وأبي على معاوية فأجلسنا على الفرش، ثم أتينا بالطعام فأكلنا ثم أتينا بالشراب، فشرب معاوية ثم ناول أبي (فرده) قائلاً: ما شربته منذ حرمه رسول الله) (2).

(1) المصدر السابق، ج 6 ص 155 - 60.
(2) مسند أحمد ج 5 ص 347، تاريخ ابن عساكر ج 7 ص 211.

أخذ البيعة للابن الفاجر يزيد

بعد أن تم الأمر لمعاوية وقد تنعم بالملك سنوات طوال، أراد أن يجعل الخلافة ملكاً خاصاً ببني أمية، فقرر توريثها لابنه يزيد وأخذ تحضيره لذلك سنوات عديدة (فلم يزل يروض الناس لبيعته، يشاور ويعطي الأقارب ويداني الأباعد) (1). وكما قال أبو الفرج الأصفهاني: (أراد معاوية أخذ البيعة لابنه يزيد، فلم يكن شيئاً أثقل عليه من أمر الحسن بن علي وسعد بن أبي وقاص، فدس إليهما السم فماتا) (2).

وكان يثقل على معاوية لما كان يربطه بالإمام الحسن عليه السلام من عهد ينص على أن يكون الأمر من بعده للحسن وليس له أن يعهد بالخلافة لأحد، ولما كان لسعد بن أبي وقاص من مكانة مرموقة بين صحابة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وهو الوحيد الباقي من الستة الذين كان عمر بن الخطاب قد رشحهم للخلافة بعده. وأما يزيد فهو لم يتجاوز العشرين من عمره، وكان كما أجمع المؤرخون شابا ماجنا مدمناً على الخمر واللعب مع الكلاب والقرود، وعديم الخبرة ولا يعرف من الدين شيئاً.

ونظراً لوجود مثل هذه الصعوبات، فقد أصر معاوية على أخذ البيعة لابنه من الناس قبل موته، فبدأ يستقدم الوفود من البلاد لهذا الغرض، وكان يهدد من يرفض ويجزل العطاء لمن يبايع، حتى أنه ولى بعضهم الإمارة كسعيد بن العاص على المدينة بعد عزله مروان عنها لتباطئه بأخذ البيعة من الناس، وسعيد بن عثمان بن عفان على خراسان تسكيناً له بعد أن وجد فيه ميلاً للإمارة، وثبت المغيرة بن شعبة بعد أن كان يخطط لعزله.

---

(1) العقد الفريد في تاريخ الخلفاء، ج 3 ص 130 - 31.
(2) أبو الفرج الأصفهاني، مقاتل الطالبين، ص 43.

وعندما أراد أخذ البيعة من أهل الشام، خطب فيهم وسألهم عن رأيهم فيمن يخلفه، فقالوا: رضينا بعبد الرحمن بن خالد بن الوليد، فشق ذلك عليه وأسرها في نفسه. ومرة ألم بعبد الرحمن مرضاً، فأرسل إليه معاوية طبيبه الخاص وكان يهودياً - وقيل هو ابن رثال النصراني - وسقاه بأمر من الخليفة سقية قتله بها (1).

وبالنسبة لبيعة أهل العراق، فقد تكفل بها كل من المغيرة بن شعبة والي الكوفة، وزياد بن عبيد الله والي البصرة. ثم ارتحل معاوية إلى الحجاز ومعه ألف فارس لأخذ البيعة من أهل مكة والمدينة بعد أن استعصى أمرهم على ولاته. وكان من كبار المسلمين الذين أبوا البيعة هناك: الحسين بن علي، وعبد الله بن الزبير، وعبد الله بن عمر، وعبد الرحمن بن أبي بكر. فاجتمعوا في الحرم وقال المعارضون كلمتهم، فقام معاوية خطيباً وقد جعل على رأس كل من الأربعة رجلين بسيفيهما فإن تكلم أحدهم بكلمة يرد بها عليه قتلاه، وقال: (إن هؤلاء الرهط سادة المسلمين وخيارهم وإنهم قد رضوا وبايعوا ليزيد، فبايعوا على اسم الله) فبايع الناس (2).

(1) الإستيعاب ج 2 ص 396، أسد الغابة ج 3 ص 289.
(2) ابن الأثير ج 3 ص 216 - 18، العقد الفريد ج 3 ص 130 - 31.

الفصل السابع
خلافة يزيد

استلم يزيد زمام الخلافة بعد وفاة أبيه عام 60 ه، ولم تدم خلافته سوى ثلاث سنوات ارتكب خلالها ثلاث جرائم من أجل إخضاع الأمة لإمارته، وكانت كل واحدة من هذه الجرائم كافية لوصم الخلافة الإسلامية وتاريخ المسلمين بوصمة عار لا تمحى أبد الدهر. فأما بالأولى فقد ذبح أهل بيت النبوة عليه السلام، وبالثانية استباح دماء أهل المدينة المنورة وأغراضهم، وبالثالثة قذف الكعبة بالمنجنيق وحرقها. وإليك بيان كل واحدة منها بشئ من التفصيل:

ذبح أهل بيت النبوة عليه السلام

بعد أن أخذ يزيد بيعة أهل الشام، كتب إلى عامله على المدينة الوليد بن عتبة بن أبي سفيان: (أما بعد، فخذ حسيناً، وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير، أخذاً شديداً ليست فيه رخصة حتى يبايعوا والسلام) (1).

وقد كان رد الحسين عليه السلام على الوليد في مجلس عام: (إنا أهل بيت النبوة ومعدن الرسالة... ويزيد رجل فاسق شارب الخمر وقاتل النفس المحرمة ومعلن بالفسق، ومثلي لا يبايع مثله) (2)، ثم مضى الحسين ومعه أهل بيته إلى مكة. وهكذا فعل عبد الله بن الزبير، وأما عبد الله بن عمر فقد كان خارج المدينة حين وصول خبر موت معاوية، وقال للحسين وابن الزبير حين

(1) تاريخ الطبري، ج 6 ص 188.
(2) ابن الأعثم، ج 5 ص 17.

لقيهما أثناء توجههما نحو مكة: اتقيا الله ولا تفرقا بين جماعة المسلمين، وعندما وصل المدينة بايع يزيد [1].

وكان توجه الحسين عليه السلام إلى مكة بوصفها قاعدة الإسلام الكبرى، ومنها بدأ يعلن من خلال اتصاله بالناس ضرورة رفض مبايعة يزيد.

وعندما سمع أهل الكوفة بأنباء معارضة الحسين عليه السلام، بدأوا بإرسال رسائل التأييد والمبايعة والاستعداد لاستقباله في العراق، فأرسل إليهم ابن عمه مسلم بن عقيل ليستطلع صدق نواياهم. وعندما وصل مسلم إلى الكوفة وتحقق من صحة الموقف أرسل إلى الإمام: (بايعك أكثر من 20 ألفاً من أهل الكوفة، عندما يصلك كتابي عجل بالمسير) [2]. وقيل إن عدد المبايعين وصل إلى 40 ألفاً، فانطلق الإمام بحشد كبير متوجهاً نحو العراق.

وبالطبع فإن هذا التأييد الجماهيري الكبير الذي لاقاه مسلم بن عقيل قد ساء الموالين للأمويين في الكوفة، فكتبوا إلى يزيد يخبرونه بالأمر، وأن النعمان بن بشير الذي تولى الكوفة بعد موت زياد لا طاقة له على المقاومة، فقرر يزيد عزله باستشارة من كاتبه وأنيسه النصراني سرجون وتعيين عبيد الله بن زياد بدلاً منه وكانت أولى كلمات ابن زياد لأهل العراق في بداية حملة القمع والتخويف: (لئن بلغني رجل منكم خلاف لأقتلنه وعريفه ووليه ولآخذن الأدنى بالأقصى حتى تسمعوا ولا يكون فيكم مخالف) [3]. وقال مهدداً لكل من يستضيف مسلم بن عقيل في بيته: (أيما عريف وجد عنده أحد من بغية أمير المؤمنين ولم يرفعه إلينا صلب على باب داره) [4].

---

(1) البداية والنهاية لابن كثير ج 8 ص 148.
(2) ابن الأعثم، ج 5 ص 150.
(3) تاريخ الطبري ج 6 ص 200.
(4) عبد الرزاق الموسوي، مقتل الحسين، ص 150، نقلاً عن الإرشاد للشيخ المفيد.

وعندما علم ابن زياد عن طريق أحد العيون عن نزول مسلم بن عقيل عند هانئ بن عروة، قام من فوره باستدعاء هانئ ثم حبسه وعذبه لرفضه تسليم ابن عقيل له أو الإخبار عن مكانه. ولدى علم ابن عقيل بما حدث لهانئ، نادى بأصحابه وعبأ أربعة آلاف وسار بهم نحو قصر ابن زياد، ولكنهم بدأوا يتناقصون في الطريق حتى وصلوا إلى ثلاثمائة عند وصولهم القصر، ذلك أنه وأثناء مسيرهم، كانت أبواق ابن زياد تدور على دور الكوفة محذرة ومخوفة بقدوم جيش يزيد من الشام، فرجع ابن عقيل دون حصول مواجهة، إلا أن ابن زياد تمكن من ملاحقته واعتقاله، ثم قام بقتله مع هانئ بن عروة، ومثل بجسديهما.

وعندما وصلت هذه الأخبار إلى الإمام الحسين عليه السلام أثناء مسيره نحو العراق، تيقن مما قاله له الفرزدق (الذي كان متوجهاً إلى مكة قادماً من العراق) قبل ذلك حين سأله الإمام عن الوضع في الكوفة وكانت إجابته:

(قلوب الناس معك وسيوفهم عليك)، فقام الإمام عليه السلام معلناً لمرافقيه: (أيها الناس، لقد خذلنا شيعتنا، فمن أراد منكم الإنصراف فلينصرف). فتفرقوا من حوله يميناً ويساراً ولم يبق معه سوى أهل بيته ونفر من أصحابه الذين رافقوه من مكة والمدينة. (وبالنظر لطبيعة الظروف السياسية الخاصة في تلك الأيام تيقن الإمام أن حركة المعارضة هذه ستمنى بالفشل العسكري، ولكن من الواضح أن هذه الحرب الغير متكافئة بين الحسين والأمويين كانت لها أسباب ودوافع معنوية أخرى لا يمكن فهمها أو تحليلها بالمنظار السياسي المتعارف) (1).

وهكذا واصل الإمام الحسين عليه السلام مسيره نحو الكوفة حتى خرجت له كتائب ابن زياد وأجبرته على النزول في منطقة قرب الفرات تدعى كربلاء، وكان ذلك في الثاني من محرم سنة 60 هجرية. ثم منع الماء عن الحسين وأصحابه وفشلت جميع المفاوضات التي دارت هناك لسبعة أيام، وكانت

---

(1) جعفريان، الحياة الفكرية والسياسة لأئمة أهل البيت، ص 128.

ترمي هذه المفاوضات إلى إقناع الحسين لأعدائه بالعدول والتخلي عن تنفيذ جريمتهم، في نفس الوقت الذي كان يحاول فيه قادة جيش ابن زياد وعلى رأسهم عمر بن سعد بن أبي وقاص إقناع الحسين بالاستسلام ومبايعة يزيد.

وكان عمر بن سعد كارهاً لقتال الحسين، ولكن إمارة الري في خراسان التي وعده بها ابن زياد في حالة إخضاعه للحسين قد أعمته عن رؤية الحق والصواب. وأما الحسين عليه السلام فقد كان موقفه النهائي: (إني لا أرى الموت إلا سعادة والحياة مع الظالمين إلا برماً). وفي غضون ذلك تحول 20 عشرون مقاتلاً من جيش الكوفة إلى معسكر الحسين عليه السلام: وكان من أبرز المنضوين تحت راية الحسين: الحر بن يزيد الرياحي الذي كان قائداً لأولى الكتائب التي خرجت لمواجهة الحسين قبل وصوله كربلاء.

وفي تلك الأثناء أيضاً، كان ابن زياد يواصل إكراه الكوفيين على الذهاب إلى المعسكر اليزيدي، حتى وصل تعداد ما أرسله ثلاثين ألفاً، ولكن أكثرهم كانوا يهربون في منتصف الطريق لكراهيتهم قتال الحسين، ولم يشارك منهم في تلك الجريمة سوى أربعة آلاف أو أكثر من ذلك على حسب روايات أخرى. ويقول ابن قتيبة في ذلك: (إن ابن زياد كان إذا بعث قائداً وأرسل معه عدداً كبيراً من الجنود إلى كربلاء، فإنهم يصلون هناك ولم يبق منهم إلا القليل، كانوا يكرهون قتال الحسين فيرتدعون فيتخلفون) [1].

وهكذا، فقد كان اشتباك الطرفين في العاشر من محرم بعد أن تقدم عمر بن سعد نحو معسكر الحسين ورمى بسهم وقال: اشهدوا لي عند الأمير إني أول من رمى. ثم لحقه في ذلك رجاله، فلم يبق من أصحاب الحسين أحد إلا أصيب من سهامهم. فقال الحسين لأصحابه: قوموا رحمكم الله إلى

---

(1) ابن قتيبة الدينوري، الأخبار الطوال، ص 254.

الموت الذي لا بد منه، فإن هذه السهام رسل القوم إليكم (1)، فحملوا حملة واحدة أدت إلى استشهاد العديد منهم. وكان الحر بن يزيد الرياح أول من استشهد منهم. ثم أخذ القتال يتحول إلى مبارزات فردية، وأحياناً كان الرجلان أو الثلاثة أو الأربعة يغيرون على الكوفيين أحدهم يضرب والآخر يحمي ظهره، فكان قتلى ابن زياد أكثر بكثير من شهداء الحسين، حتى صاح عمرو بن الحجاج الذي هاله ما رأى من كثرة قتلاهم: إنكم تقاتلون شجعان العرب وقوماً مستميتين لا يبرز إليهم أحد إلا قتلوه (2)... حتى قالوا: قاتلوا من مرق عن الدين وفارق الجماعة! (3).

فحمل جيش ابن زياد حملة واحدة على الإمام وأصحابه، فاستشهدوا واحداً تلو الآخر حتى سقطوا جميعاً شهداء، بمن فيهم طفل الحسين الرضيع.

والذي كان الإمام عليه السلام قد حمله ليستعطف قلوب القوم وطلب منهم أن يسقوه شربة ماء، ولكنهم بدلاً من ذلك صوبوا إلى عنقه سهماً، ثم واصل القتلة وحشيتهم بتقطيع رؤوس الشهداء، وحملوها هدايا يتقاسمونها فيما بينهم، ثم رفعوها على رؤوس رماحهم متوجهين بها إلى ابن زياد في الكوفة لأخذ الأجر والمكافأت، والذي بدوره أرسلها إلى يزيد بن معاوية في الشام ومعها نساء أهل البيت عليه السلام سبايا، وفي اليوم الأول من صفر، وصل ابن زياد ورجاله دمشق، وخرج الناس إليهم يستقبلونهم بالدفوف والبوقات، وهم في فرح وسرور، وعندما رأى يزيد السبايا والرؤوس على أطراف الرماح، ضرب رأس الحسين بعصا الخيزران، ثم تمثل بأبيات ابن الزبعري:

ليت أشياخي ببدر شهدوا * جزع الخزرج من وقع الأسل
لأهلوا واستهلوا فرحاً * ثم قالوا يا يزيد لا تشل

---

(1) تاريخ الطبري ج 4 ص 326.
(2) المصدر السابق، ج 6 ص 249.
(3) البداية والنهاية لابن كثير ج 8 ص 182.

قد قتلنا العزم من ساداتهم * وعدلناه ببدر فاعتدل
لعبت هاشم بالملك فلا * خبر جاء ولا وحي نزل
لست من خندف إن لم أنتقم * من بني أحمد ما كان فعل

وفي أبيات أخرى أنشدها وهو جالس في منظرة على جيرون بالشام:

لما بدت تلك الحمول وأشرقت * تلك الرؤوس على شفا جيرون
نعب الغراب فقلت أو لا تصح * فلقد قضيت من الرسول ديوني

ومن الواضح أن الديون التي يقصدها يزيد في هذه الأبيات هي مقتل العديد من أشياخه (يعني أجداده) في بدر بسيوف علي وحمزة. وقد أفتى كل من سبط بن الجوزي والقاضي أبو يعلى والتفتازاني والجلال السيوطي، وجميعهم من أعلام أهل السنة القدامى بكفر يزيد وجواز لعنه (1) استناداً إلى هذه الأبيات وما جاء فيها من اعترافات صارخة لمن لم يكن ليفهم من فضائح الأعمال!

وكان كما قاله ابن الجوزي: (ولو لم يكن في قلب يزيد أحقاد جاهلية وأضغان بدرية لاحترم الرأس لما وصل إليه وكفنه ودفنه وأحسن إلى آل الرسول) (2).

إستباحة دماء أهل المدينة وأعراضهم

من المعروف أن أهل المدينة المنورة لم يناصروا الحسين عليه السلام عندما بدأ حملته المعارضة لمبايعة يزيد، ولكنهم عندما ذاقوا مرارة ظلم يزيد وجور ولاته، ولما ظهر من فسق الخليفة وشربه للخمر وقتله لأبناء رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، فإنهم قاموا بالتحرك أخيراً ضد يزيد، فخلعوا بيعتهم له وطردوا واليه على المدينة عثمان بن محمد بن أبي سفيان.

---

(1) روح المعاني للآلوسي ج 26 ص 73.
(2) من الجدير ذكره أن الإمام علي بن الحسين قام باسترجاع الرؤوس وألحقها بالأبدان ودفنها.

وعندما علم يزيد بذلك، عمل كما أوصاه أبوه في حالة معارضة أهل المدينة، فأرسل إليهم جيشاً كبيراً بقيادة مسلم بن عقبة اجتاح به المدينة وأباحها لجنوده ثلاثة أيام، قاموا خلالها بارتكاب أفظع الجرائم، فقتلوا ما يزيد عن خمسة آلاف من الناس، ونهبوا الأموال، وأحرقوا البيوت، واعتدوا على الأعراض، حتى قيل إنهم فتكوا بحرمة أكثر من ألف عذراء (1). وفي رواية لابن كثير أن ألف امرأة من أهل المدينة ولدت بعد هذه الجرائم من غير زوج (2). وحتى أن بعض الصحابة المتبقين كجابر بن عبد الله وأبي سعيد الخدري هربوا إلى كهوف الجبال في تلك الأيام. (3). ثم قام مسلم بن عقبة بإكراه أهل المدينة ليبايعوا يزيد على أنهم عبيد له. واعترض الناس على ذلك، وكان منهم على سبيل المثال رجلان قالا: بل نبايع على كتاب الله وسنة رسوله، فقدمهما ابن عقبة وضرب أعناقهما (4).

ضرب الكعبة بالمنجنيق وإحراقها

بعد أن تم للجيش اليزيدي ما أراده في المدينة، توجه نحو مكة، وفي الطريق مات مسلم بن عقبة، فتولى قيادة الجيش الحصين بن نمير السكوني وحاصر الكعبة التي لاذ بها الثائر عبد الله بن الزبير، والذي سمى نفسه (العائذ بالبيت) بعد أن بايعه الناس هناك على الخلافة. فضرب الحصين الكعبة بالمنجنيق حتى انهدم معظم أجزائها، وقاتل ابن الزبير ببسالة، وساعده على الصمود رجال من أهل المدينة لحقوا به.

---

(1) البداية والنهاية لابن كثير، ج 8 ص 265.
(2) المصدر نفسه ص 239.
(3) المصدر نفسه ص 239.
(4) تاريخ الطبري ج 7 ص 13.

وبعد أن استعصى على الجيش الأموي إخضاع ابن الزبير، وضع المحاصرون ناراً على رأس رمح، ورموا به الكعبة فاحترقت (1)، ثم بقوا محاصرين للبيت الحرام عدة شهور حتى وصلهم خبر هلاك يزيد (عام 64 هجرية). فانفكوا عنها راجعين إلى الشام مغلوبين، وتفرقوا أثناء رجوعهم لاضطراب أمرهم، فلاحقهم أهل مكة والمدينة، حتى أخذوا أربعمئة منهم إلى (الحرة) بالمدينة، وأمر مصعب بن الزبير بقتلهم، ثم بايع أهل المدينة أخاه عبد الله بالخلافة.

(1) المصدر السابق ج 5 ص 498.

الفصل الثامن
خلافة عبد الله بن الزبير

بعد هلاك يزيد بن معاوية، تولى خلافة المسلمين بعده ابنه معاوية، وكان عمره آنذاك ثماني عشرة سنة أو اثنين وعشرين حسب رواية أقوال أخرى، وقيل عنه إنه كان رجلاً فيه صلاح وتقوى بخلاف أبيه، ولكنه تنازل عن الخلافة لأسباب غامضة بعد توليته بشهرين، فقال بعض المؤرخون: إنه كان مريضاً، وقال آخرون: إنه كان مكرهاً على التنحي، وهذا هو الأرجح، لأنه طعن بعد تنازله بأيام، وقيل إنه قتل مسموماً (1).

وقد استثمر الخليفة الآخر عبد الله بن الزبير حالة الفوضى في العاصمة دمشق من جراء التنافس على الخلافة بين الأمويين في توسيع نفوذه، فبويع له في البصرة والكوفة ومصر وحتى في جز من الشام، وكان أخوه مصعب قائداً عاماً لجيوشه.

ولأن معاوية بن يزيد لم يستخلف أحداً بعده، فقد وثب مروان بن الحكم على الخلافة الأموية وأجبر أهل الشام على مبايعته، ولكنه أيضاً لم تدم خلافته طويلاً، حيث قيل إن أم خالد بن يزيد قد طعنته بعد تسلمه الخلافة بتسعة شهور لسبه ابنها خالد بكلام فاحش أصابها (2). وقد عهد مروان بالخلافة من بعده لابنه عبد الملك، وكان ذلك سنة 65 هجرية.

وظهرت في العراق بتلك الحقبة الزمنية حركات ثورية ضد الأمويين تحت قيادة المختار الثقفي وسليمان بن صرد تحت عنوان حركة (التوابين)

---

(1) مروج الذهب للمسعودي ج 3 ص 89.
(2) ابن قتيبة الدينوري، الإمامة والسياسة، ج 2 ص 23.

لندمهم على عدم نصرة الحسين عليه السلام. وكانت مهمة هذه الحركة تتبع قتلة الحسين وأصحابه والانتقام منهم، فقتلوا كثيراً من أولئك القتلة بما فيهم عمر بن سعد وعبيد الله بن زياد. ثم استشهد ابن صرد وحمل رأسه إلى مروان بن الحكم في الشام. وقد قضي على حركة التوابين بمقتل المختار والآلاف من أتباعه في حرب نشبت بينهم وبين مصعب بن الزبير سنة 67 هجرية في العراق، ثم أرسل ابن الزبير برأس المختار إلى أخيه الخليفة عبد الله في مكة (1). وأما أسباب نشوب الحرب بينهم فهي تعود لكثرة ما قتل ابن الزبير من أنصار أهل البيت عليه السلام في العراق بالفترة القصيرة الذي أصبح تحت سيطرته. ومن المعروف إن عبد الله بن الزبير كان من أشد المبغضين لعلي بن أبي طالب عليه السلام منذ يوم الجمل حيث كان حينها قائداً لجيش أم المؤمنين عائشة.

وبالنسبة للأمويين، فإن ابن كثير يروي بأنه: لما بويع لعبد الملك بن مروان بالخلافة، كان في حجره مصحف فأطبقه قائلاً: (هذا فراق بيني وبينك) (2). ثم انصرف في بداية تسلمه الخلافة إلى إعادة ترتيب أوضاع البيت الأموي في الشام وبعد أن تم له ذلك، بدأ يوجه أنظاره إلى القضاء على خلافة ابن الزبير، وقد استفاد في ذلك من الحرب التي جرت بين المختار ومصعب، حيث أدى مقتل الآلاف من أتباع المختار وشيعة العراق على أيدي الزبير إلى قيام أهل العراق بخلع بيعتهم لعبد الله، وإعلانهم التأييد لخلافة عبد الملك بن مروان.

فسار عبد الملك بجيش إلى العراق لمحاربة جيش ابن الزبير، وقد انتهت المعركة سريعاً بمقتل القائد مصعب وبعد أن انضم كثير من جنده إلى المعسكر الأموي. فدخل عبد الملك الكوفة وبايع له أهل العراق.

(1) المصدر السابق، ص 32.
(2) تاريخ الطبري، ج 7 ص 102.

ثم بعث عبد الملك حملة على الحجاز بقيادة الحجاج بن يوسف الثقفي للقضاء النهائي على خلافة ابن الزبير، وكان له ذلك عندما حاصر مكة وقطع عنها الإمدادات الغذائية حتى أخذ ينضم إليه أتباع ابن الزبير، وقد بلغ تعداد الخارجين إليه من مكة العشرة الآلاف من بينهم ابني الخليفة عبد الله وهما حمزة وحبيب. ثم دخل الحجاج مكة وأخذ البيعة من أهلها، وقام بإعدام عبد الله بن الزبير ومعاونيه، وصلب أجسادهم في الحرم وسلخها. وكالعادة، فقد أرسل الحجاج رؤوس الضحايا إلى الخليفة الأموي عبد الملك في الشام وكان ذلك سنة 73 هجرية.

وبقي الحجاج والياً على الحجاز لثلاث سنوات حتى كتب له عبد الملك: سر إلى العراقيين واحتل لقتلهم، فإنه قد بلغني عنهم ما أكره (1) إلى هذا الحد ينتهي القدر الذي رأيناه كافياً لإعطاء صورة واقعية للواقع التاريخي لدولة الخلافة (الإسلامية؟) بعدهم من الأمويين، والعباسيين، والعثمانيين، حيث تم القضاء عليها عام 1924 م.

(1) ابن قتيبة الدينوري، الإمامة والسياسة، ج 2 ص 39.

القسم الثالث
دليل التشريع وشهادة التاريخ
في
معرفة الخلفاء والأئمة

تقديم

لقد قدمنا في القسم الأول عرضاً موضوعياً لآراء أهل السنة والشيعة فيما فهموه من التشريع الإسلامي في قضية الخلافة والإمامة، وفي القسم الثاني قدمنا عرضنا للواقع التاريخي لدولة الخلافة في صدر الإسلام. وفي كلا القسمين، كان العرض معتمداً بصورة رئيسية على آيات الكتاب والأحاديث والمرويات من كتب الصحاح والتاريخ بالإضافة أحياناً إلى أقوال بعض العلماء فيها. وفي هذا القسم، ونظراً للإشكالات العديدة والمجادلات العقيمة التي تصاحب إجابة هذا النوع من التساؤلات، فقد رأينا تقديم طريقة خاصة في تحديد ومعرفة هوية الخلفاء والأئمة يدمج فيها بين العقل والنقل من جهة، وبين دليل التشريع وشهادة التاريخ من جهة أخرى.

فالمسألة هي ليست مفاضلة بين أشخاص، بقدر ما هي بحثاً عن منهج منسجم مع بقية مناهج الإسلام وتعاليمه من حيث الوضع والعقلانية، يستطيع الناس من خلاله تعيين أو اختيار الخليفة في كل عصر، ولا بد أن يكون الشارع المقدس قد وفر ذلك وإلا لكان للناس العذر في جهله، بل ومخالفته.

وسنقدم تفصيل هذا الأمر على فصلين:

الأول: مقياس لمعرفتهم.

الثاني: لمحات من سيرتهم.

الفصل الأول
مقياس لمعرفة الخلفاء والأئمة

بين خلافتي أبي بكر وعلي

اشتهر عند جميع الفرق الإسلامية حديث الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم): (من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية). أو كما جاء بألفاظ أخرى: (من مات بغير إمام مات ميتة جاهلية) (1)، أو قوله (صلى الله عليه وآله وسلم): (من مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية) (2). وصحة هذا الحديث تعد من البديهيات عند رجال الحديث دون خلاف بينهم.

ومع أن هذا الحديث قد ورد بألفاظ متعددة، إلا أنها تدور كلها حول معنى واحد وهو الخسران الأخروي لمن يموت دون مبايعة إمام المسلمين، لأن طاعته واجبة على كل مسلم، كونها امتداداً لطاعة الله ورسوله (يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم) (3) [النساء / 59].

وسيكون هذا الحديث وما يحمله من معان هو المقياس الضابط في معرفة أئمة المسلمين واجبي الطاعة، والذين يصدق أن يكون مصير الخارج عن طاعتهم موتة جاهلية.

وسننظر فيما يلي إلى خلافتي أبي بكر وعلي من خلال هذا المقياس:

---

(1) صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين، ج 4 ص 517.
(2) مسند أحمد، ج 3 ص 446.
(3) صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة خيبر، ج 5 ص 382.

خلافة أبي بكر

من الثابت أن عمر بن الخطاب وصف بيعة أبي بكر ب (الفلتة) ولكن - على رأيه - (وقى الله شرها). وقد قال عمر بمقولته هذه نظراً للمشاحنات التي سبقت تلك البيعة وما بعدها، حيث كان تنازع المهاجرين والأنصار، ثم تخلف العديد من كبار الصحابة عن بيعة الخليفة أبرزهم علي الذي لم يبايع إلا بعد ستة شهور في ظروف شرحت في موقع سابق.

ولكن ما يهمنا هنا إلقاء الضوء على امتناع فاطمة الزهراء ابنة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وزوج علي عليه السلام عن مبايعة الخليفة، إلى أن ماتت وهي على هذه الحال، بل وهي غاضبة عليه وأوصت أن لا يصلي عليها، ولا حتى أن يحضر دفنها كما أخرج البخاري في الصحيح: (... فغضبت فاطمة بنت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فهجرت أبا بكر، فلم تزل مهاجرته حتى توفيت، وعاشت بعد رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ستة أشهر...

فلما توفيت، دفنها زوجها علي ليلاً، ولم يؤذن بها أبا بكر، وصلى عليها) (1).

ونحن بهذا المثال أمام احتمالين لا ثالث لهما:

فإما أن يكون أبو بكر هو الخليفة الواجب الطاعة، فتكون فاطمة قد ماتت ميتة جاهلية. وإما أن فاطمة لم تمت ميتة جاهلية، فيكون أبو بكر ليس بخليفة واجب الطاعة.

فبالنظر إلى الاحتمال الأول، نجد أن الزهراء عليه السلام من بين الذين لم يتطرق إلى مسألة بشارتهم بالجنة أدنى شك، وقد أنزل الله سبحانه وتعالى سورة الإنسان بكاملها في هذا الصدد، وهي التي أخبر الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم):

(فاطمة سيدة نساء أهل الجنة) (2) وقوله (صلى الله عليه وآله وسلم) كذلك: (يا فاطمة، ألا ترضين أن تكوني سيدة نساء المؤمنين أو سيدة نساء هذه الأمة) (3) وهي التي يغضب

---

(1) المصدر السابق، كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب فاطمة، ج 5 ص 75.
(2) المصدر السابق، كتاب الاستئذان، باب من ناجى بين يدي رسول الله، ج 8 ص 202.
(3) المصدر السابق، كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب فاطمة، ج 5 ص 75.

النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) لغضبها، وبالتأكيد على كل من يغضبها لقوله (صلى الله عليه وآله وسلم): (فاطمة بضعة مني، فمن أغضبها أغضبني) (1)، وليس مهماً هنا النظر فيمن أغضب فاطمة بقدر ما هو مهم معرفة أن من يغضب الله ورسوله لغضبها، لا يمكن بأي حال من الأحوال أن تكون ميتتها جاهلية والعياذ بالله، وهي من الذين نزل بحقهم (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً) [الأحزاب / 33]. فلا يبقى أمامنا سوى الأخذ بالاحتمال الثاني.

خلافة علي

من المعلوم أن الأمة قديمها وحديثها أجمعت على صحة خلافة علي، باستثناء فئة خالفته ورفضت مبايعته، بل حاربته وأحدثت فتنة وشكوكاً بين مسلمي ذلك الوقت. ومن أبرز هؤلاء الخارجين عن طاعة الإمام هما عائشة في موقعة الجمل، ومعاوية في صفين كما مر تفصيل هاتين الحادثتين في قسم سابق من هذا الكتاب.

فأما عائشة، فقد تنبأ النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بخروجها عن طاعة إمام زمانها قائلاً:

(كأني بإحداكن قد نبحها كلاب الحوأب وإياك أن تكونيها يا حميراء) (2).

وفي رواية أخرى، قال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم): (ليت شعري، أيتكن صاحبة الحمل الأديب تسير حتى تنبحها كلاب الحوأب، يقتل عن يسارها، وعن يمينها خلق كثير) (3). وفي رواية ثالثة، قال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم): (يا حميراء، كأني بك تنبحك كلاب الحوأب، تقاتلين علي وأنت له ظالمة) (5). وقال الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) لعلي عليه السلام: (يا علي إن وليت من أمرها - يقصد عائشة - فارفق بها) (5).

---

(1) ابن قتيبة الدينوري، الإمامة والسياسة، ج 1 ص 82.
(2) تاريخ ابن كثير، ج 6 ص 221.
(3) العقد الفريد لابن عبد ربه، ج 3 ص 108.
(4) تاريخ ابن كثير، ج 6 ص 221.
(5) ابن قتيبة الدينوري، الإمامة والسياسة، ج 1 ص 82.

ذلك أنه وأثناء مسير عائشة بجيشها نحو البصرة لاستنهاض أهلها ضد الإمام علي عليه السلام، مروا ببقعة ماء في الصحراء، فنادى مناد: ها قد وصلنا ماء الحوأب. فلما سمعت عائشة ذلك صاحت: ردوني، ردوني. ما أراني إلا راجعة. ثم أخبرت محمد بن طلحة ما كان من تنبؤ الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وتحذيره لها، فقال لها ابن طلحة: تقدمي رحمك الله، ودعي هذا القول. ثم جاءها عبد الله بن الزبير وحلف لها بالله أن هذا المكان ليس بماء الحوأب، ثم جاء لها بخمسين أعرابياً من الذين رافقوهم أثناء سيرهم وشهدوا لها زوراً بأن هذا المكان ليس بماء الحوأب كما أمرهم ابن الزبير (1).

ومن تنبوءات النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بشأن الفتنة التي أحدثتها عائشة ما أخرجه البخاري في صحيحه، عن عبد الله قال: (قام النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) خطيبا، فأشار نحو مسكن عائشة فقال: هاهنا الفتنة، ثلاثاً، من حيث يطلع قرن الشيطان) (2).

وقد اعتبر الصحابي الجليل عمار بن ياسر أن من أطاع عائشة في خروجها، كان عمله هذا مقابل طاعة الله حيث قال: (... ولكن الله تبارك وتعالى إياه تطيعون أم هي) (3).

وقيل إن الدافع الحقيقي لخروجها ضد الإمام هو كراهيتها الدفينة له منذ أن سمعته يقول للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) عندما دعاه ليستشيره في فراقها بشأن ما أفتري عليها به، وقد رآه مغموماً: (يا رسول الله، لم يضيق الله عليك، والنساء سواها كثير). وبسبب هذه الضغينة، فإنها كانت كما في إحدى الحوادث التي رواها البخاري لا تطيق أن تذكر اسم الإمام على لسانها. ولكنها ندمت على كل حال على خروجها ضده، ولا ندري إن كانت قد بايعته بعد ذلك.

(1) صحيح البخاري، كتاب الخمس، باب ما جاء في بيوت أزواج النبي، ج 4 ص 217.
(2) المصدر السابق، كتاب الفتن، باب الفتنة التي تموج كموج البحر، ج 9 ص 171.
(3) المصدر السابق، كتاب التفسير، باب لولا إذ سمعتموه، ج 6 ص 252.

وأما معاوية، فقد كان تنبأ الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ببغيه وعدوانه على إمام زمانه من المسلمات التاريخية. فعن خالد العرني قال: دخلت أنا وأبو سعيد الخدري على حذيفة فقلنا: يا أبا عبد الله حدثنا ما سمعت من رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) في الفتنة. قال حذيفة: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): دوروا مع الكتاب الله حيث ما دار. فقلنا: فإذا اختلف الناس، فمع من نكون؟ فقال: أنظروا الفئة التي فيها ابن سمية [يعني عمار بن ياسر] فالزموها، فإنه يدور مع كتاب الله... ثم قال حذيفة: سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): يقول لعمار: يا أبا اليقظان لن تموت حتى تقتلك الفئة الباغية، عن الطريق (1). وفي صحيح البخاري، كان قوله (صلى الله عليه وآله وسلم): (ويح عمار، تقتله الفئة الباغية عمار يدعوهم إلى الله، ويدعونه إلى النار) (2).

وقد صدقت نبوءة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) هذه عندما استشهد عمار في موقعة صفين وهو يقاتل الأمويين تحت راية الإمام علي عليه السلام فهل بعد هذا القول من ريب حول معاوية ومصيره، فكلمات النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) لا تحتمل أي معان أخر، فعمار ومن معه طريقهم إلى الله، وأعداؤهم البغاة الخارجين عن طاعة إمام زمانهم طريقهم إلى النار.

ولم يكتف معاوية بالتمرد على الإمام، بل نصب نفسه خليفة خلال عهد خلافة علي، وقد بايعه أهل الشام على ذلك، ثم هاجم مصر واقتطعها من خلافة الإمام، كما هاجم مناطق أخرى عديدة في الجزيرة العربية وغرب العراق، ويقول النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في هذا النوع من التجرؤ: (إذا بويع لخليفتين فاقتلوا الآخر منهما) (3).

---

(1) المصدر السابق، كتاب الوضوء، باب حب النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وضوءه على المغمى عليه، ج 1 ص 133.
(2) مستدرك الحاكم، ج 2 ص 148.
(3) صحيح البخاري، كتاب الجهاد، باب مسح الغبار عن الرأس، ج 4 ص 52.

وفي رواية أخرى عن عبد الرحمن بن عبد قال: دخلت المسجد، فإذا عبد الله بن العاص جالس في ظل الكعبة، والناس مجتمعون عليه، فقال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): (... ومن بايع إماماً فأعطاه صفقة يده، وثمرة قلبه، فليطعه إن استطاع، فإذا جاء آخر ينازعه، فاضربوا عنق الآخر). قال الراوي: فدنوت من عبد الله وقلت له: أنشدك الله، أنت سمعت هذا من رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)؟ فأهوى إلى أذنيه وقلبه بيديه، وقال: سمعته أذناي ووعاه قلبي. فقلت له: هذا ابن عمك معاوية يأمرنا أن نأكل أموالنا بالباطل ونقتل أنفسنا... قال: فسكت ابن العاص ساعة، ثم قال: أطعه في طاعة الله واعصه في معصية الله (1).

وقال النووي في سياق شرحه لهذه الحادثة أن الراوي اعتبر (هذا الوصف في معاوية لمنازعته علياً، وكانت قد سبقت بيعة علي، فرأى هذا أن نفقة معاوية على أجناده وأتباعه في حرب علي ومنازعته ومقاتلته إياه [تعتبر] من أكل المال بالباطل، ومن قتل النفس لأنه قتال بغير حق فلا يستحق أحد مالاً في مقاتلته) (2).

ومما قاله النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في معاوية عندما بعث إليه يوماً بن عباس يدعوه، فوجده يأكل، فأعاد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ابن عباس إليه يطلبه فوجده يأكل - إلى ثلاث مرات - فقال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم): لا أشبع الله بطنه) (3).

وقال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أيضاً: (... أما معاوية فصعلوك لا مال له) (4). وفي موتته الجاهلية قال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فيه: (يطلع من هذا الفج رجل من أمتي يحشر على غير ملتي) فطلع معاوية (5)، وقوله (صلى الله عليه وآله وسلم) في معاوية وشريكه عمرو بن

(1) صحيح مسلم، كتاب الإمارة، ج 4 ص 519.
(2) المصدر السابق، ص 511 - 12.
(3) المصدر السابق، ص 512.
(4) المصدر السابق، كتاب البر والصدقة والآداب، باب من لعنة النبي، ج 5 ص 462.
(5) المصدر السابق، كتاب الطلاق، باب المطلقة البائن، ج 3 ص 693.

العاص: (اللهم أركسهما في الفتنة ركساً ودعهما إلى النار دعاً) (1). وما ينطبق على معاوية أيضاً قول النبي (صلى الله عليه وآله وسلم): (من قتل تحت راية عمية يدعو عصبية، أو ينصر عصبية، فقتله جاهلية) (2).

إن هذين المثالين كافيان لإثبات صحة خلافة الإمام علي عليه السلام، وأولويتها مقارنة بخلافة أبي بكر. فالخروج عن طاعة أبي بكر لم يستلزم التهديد بسوء المصير، بينما لزم ذلك بحق الخارجين عن طاعة علي.

وقد كان الأولى إثبات هذه الحقيقة مما قاله النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بحق الإمام نفسه وليس بحق مخالفيه. أفلا يكفي أن يكون علي من أهل البيت عليه السلام الذين جعل الله جل وعلا التمسك بهم مع كتاب الله بعد نبيه هداية وأماناً للناس من الضلال؟ وهو الذي قال فيه النبي (صلى الله عليه وآله وسلم): من كنت مولاه فعلي هذا مولاه، اللهم وآل من والاه، وعاد من عاداه).

السنة النبوية بين طريقين!

إن أكثر ما يتمسك به أهل السنة في الرد على إمامة أهل البيت عليه السلام هو قولهم أن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أمر بالتمسك بعده بالكتاب والسنة النبوية، بمعنى التمسك بالكتاب والحديث المروي عن أي من الصحابة عملاً بالحديث المزعوم: (أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم) والذين يكون التمسك بهم عند أهل السنة بديلاً عن التمسك بأهل البيت عند الشيعة.

وإذا علمنا أن مهمة تحقيق السنة النبوية صحيحها من ضعيفها قد أوكلت للبخاري ومسلم، واعتماد كتابيهما المعروفين بالصحيحين كأصح الكتب بعد كتاب الله، وبل واعتبار صحة كل ما جاء فيهما عند الغالبية العظمى من فقهاء أهل السنة وعلمائها ومفكريها، فإن التمسك بكتاب الله وسنتي، يعني التمسك

---

(1) تاريخ الطبري، ج 11 ص 357.
(2) مسند أحمد، ج 4 ص 421.

بالبخاري وسلم أكثر من التمسك بأي شخص كان. فهذان الشيخان جعلا باجتهاد هما فقط من مرويات أبي هريرة أو غيره من الصحابة والتابعين ممن نقلوا الروايات جيلا بعد جيل تسمع وتعتمد عند أهل السنة على مر العصفور، وهما أيضا باجتهادهما فقط جعلا من مرويات علي أو غيره من أئمة أهل البيت عليه السلام الذين تحدثوا بالسنة ونقلوا الرواية جيلاً بعد جيل تغفل وتصبح بلا قيمة عند أهل السنة على مر العصفور!.

وإذا علمنا أن أهل السنة اعتمدوا صحة كل اجتهادات الخليفة عمر العديدة، والتي خالف في بعضها النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) صراحة كما بينا من ذلك أمثلة، بل ومنعه تدوين السنة النبوية فإن التمسك (بكتاب الله وسنتي) يعني: التمسك بعمر أكثر من صاحب السنة نفسها!، وسترى في هذه المسألة تفصيلاً في القسم الأخير من هذا الكتاب.

وإذا علمنا أيضاً أن الدور الخطير الذي لعبه معاوية في حرف مسار الخلافة بصورة مأساوية، والتأثير على أبي هريرة وغيره من الرواة كما سترى لاحقاً، قد لاقى قبول غالبية أهل السنة وموافقتهم، واعتبروه خليفة شرعياً لرسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، فإن التمسك بكتاب الله وسنتي يعني التمسك بمعاوية أكثر من التمسك بخصمه علي أو حتى عمر وأبي بكر الذين خالفهم جميعاً بمنهجه القبلي والجاهلي في الخلافة والحكم.

وإذا علمنا أخيراً، أن تفسير آيات الكتاب قد اعتمد أغلبها على الأحاديث المروية فإن التمسك (بكتاب الله وسنتي) بعد رحيل النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) يعني بصورة عملية وواقع الحال التمسك بتركيبة من أشخاص أبرزهم: عمر - عائشة - معاوية - أبو هريرة - البخاري.

بينما التمسك (بكتاب الله وعترتي أهل بيتي) بعد رحيل النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) يعني بواقع الحال التمسك بتركيبة من أشخاص هم: علي - فاطمة - الحسن والحسين... إلى آخر الأئمة الاثني عشر عليه السلام.

ومن ناحية أخرى، وكما بينا في موضع سابق، فإن علماء الحديث ومحققيه عند أهل السنة وغيرهم قالوا بضعف رواية (كتاب الله وسنتي)، وصحة رواية (كتاب الله وعترتي أهل بيتي).

يضاف إلى هذه الحقيقة أن السنة المروية عن الصحابة لا تفيد علماً واضحاً أو ترشد إلى طريق هاد. فالصحابة اختلفوا مع بعضهم إلى حد السب، وإراقة الدماء، وإعلان الحروب، فيكونوا في واقع الحال قد اتخذوا تبعاً لذلك طرقاً متعددة وفي غاية التناقض، فأي من هذه الطرق أو السنن نتبع؟ فمعاوية صحابي وعلي صحابي، فأي منهما أولى بالاتباع؟

وعلى سبيل المثال، فإنه عندما وقع المسلمون في حيرة أمام قضية مبايعة يزيد بن معاوية، كان التمسك بأهل البيت عليه السلام يعني رفض هذه البيعة وتأييد الحسين عليه السلام وأتباعه في خروجه وثورته. وأما التمسك (بسنتي بمعنى نهج أصحابي) سيعني مبايعة يزيد، لأن عبد الله بن عمر، وهو أحد الصحابة القلائل الباقين في ذلك الحين قام بمبايعة يزيد على الفور تجنباً للفتنة وتفرق الأمة!.

وما يلفت الانتباه في هذا المثال أن عبد الله بن عمر كان أيضاً من الصحابة القلائل الذين لم يبايعوا الإمام علياً عليه السلام في الوقت الذي سعى إليه الناس لمبايعته، وكان أيضاً من الذين وقفوا (محايدين!) يوم صفين تجنباً للفتنة أيضاً. فعبد الله بن عمر، وكل من لم يبايع الإمام سواء وقف محايداً أو محارباً، وكذلك كل من لم يؤيد الحسين في خروجه وثورته ضد الطاغية يزيد، لا يمكن أن يكون متمسكاً بأهل البيت عليه السلام، فأين هم من قوله (صلى الله عليه وآله وسلم): (ما إن تمسكتم بهما لا تضلوا بعدي أبداً)؟!.

الشورى بين النظرية والتطبيق

ومما يتمسك به أهل السنة أيضاً في ردهم على إمامة أهل البيت عليه السلام، هو قولهم أن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) جعل الخلافة بعده شورى مستدلين بقوله تعالى:

(وأمرهم شورى بينهم). ولكن تفسير هذه الآية بهذه الطريقة ينقصه الدقة

والكثير من التفاصيل، فلو أن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أراد أن يكون الأمر بعده كذلك لعلمهم إياه، أو على أقل تقدير كان ليبين لهم المبادئ الإسلامية لعملية الشورى هذه.

والآية الكريمة ليس فيها ما يدل على أن المسلمين يجب عليهم التشاور في جميع شؤونهم، وإنما لا بد وأن يكون ذلك محصوراً بالشؤون التي لم يرد فيها نص من الكتاب والسنة كما هو متفق عليه عند الجميع. فكما أنه لا يجوز التشاور في عدد ركعات الصلاة، فإنه لا يجوز التشاور أيضاً في تعيين خلفاء النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ما دام قد وجدت هناك نصوص قطعية تعين هويتهم. وأما في عصرنا هذا الذي يشهد استمرار غيبة الإمام الثاني عشر، فإن الشورى ينبغي الأخذ بها في تعيين من ينوب عن الإمام، فالنص محصور باثني عشر إماماً.

وبتقدير أن الشورى هي المبدأ الأساس في تعيين خلفاء النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، فأين كان موقع هذه الشورى من صراع السقيفة وتنصيب أبي بكر؟ وأين كانت هذه الشورى عندما ورث أبو بكر الخلافة لعمر بنص أجبر المسلمين على التسليم والرضا به، ودون أن يكون لأي أحد الفرصة لمناقشته؟ وأين كانت هذه الشورى في تنصيب عثمان والذي لم تؤل الخلافة إليه إلا بتعهده بالسير على سنة الشيخين أبي بكر وعمر بعد أن رفض علي التعهد بالعمل بها؟

وهل كان تنصيب معاوية بشورى، والذي تسبب في إراقة دماء عشرات الآلاف من المسلمين في صفين وغيرها من الغارات التي شنها على الولايات الإسلامية أثناء خلافة علي؟

وماذا بالنسبة لموقع الشورى من بيعة يزيد؟ أو ليس هو الذي نصبه معاوية قبل موته جاعلاً التوريث وإراقة دماء المعارضين مبدءاً دستورياً سار عليه أئمة المسلمين منذ خلافته ولغاية القضاء على خلافة الإمبراطورية العثمانية في مطلع القرن الميلادي الحالي؟

فكيف يعتبر أهل السنة شرعية كل أولئك الخلفاء بالرغم من أن في طريقة تنصيبهم مخالفة صريحة لمبدأ الشورى؟

والناظر بإنصاف إلى واقع دولة الخلافة الإسلامية على طول تاريخها، فإنه يجد أن الشورى لم تتوفر إلا في خلافة علي حيث سعى إليه غالبية الناس بعد مقتل عثمان، وألحوا عليه بقبولها.

الخلفاء بعد أبي بكر وعلي

لم تكن مناقشة هذا الفصل لمجرد المفاضلة بين خلافتي أبي بكر وعلي، وإنما للتثبت من المنهج المتكامل في نظرية الخلافة والإمامة حسب تشريعها الإلهي، وهذا يعني استمرار البحث للإثبات والتحقق من هوية الخلفاء الذين يفترض أن يلوا أمر المسلمين.

ولم نجد في الأدلة الشرعية من الكتاب والسنة ما يشير إلى هوية هؤلاء أكثر قوة من تلك الروايات المخبرة بإثني عشر منهم.

الاثنا عشر خليفة في الكتاب والسنة:

ونذكر أولاً الأحاديث التي أخرجها أصحاب الصحاح، والتي تشير إلى وجود اثني عشر خليفة للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم):

ففي صحيح مسلم، نجد قوله (صلى الله عليه وآله وسلم): (لا يزال الدين قائماً حتى تقوم الساعة أو يكون عليكم اثنا عشرٍ خليفة) (1)، وقوله (صلى الله عليه وآله وسلم) أيضاً: (لا يزال أمر الناس ماضياً ما وليهم اثنا عشر رجلاً) (2).

وفي صحيح البخاري بالرواية عن جابر، نجد قوله (صلى الله عليه وآله وسلم): (إن هذا الأمر لا يقتضي حتى يمضي فيهم عشر خليفة - قال: تكلم بكلام خفي علي، قال فقلت لأبي: ما قال؟ قال: كلهم من قريش) (3).

---

(1) صحيح مسلم، كتاب الإمارة، ج 4 ص 517.
(2) المصدر السابق، ج 4 ص 282.
(3) صحيح البخاري، كتاب الإمارة، باب الناس تبع لقريش، حديث 1821.

وفي مسند أحمد بالرواية عن عبد الله بن مسعود قال: (سئل النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بشأن الخلفاء، فقال: اثنا عشر كعدة نقباء بني إسرائيل) [1].

وقد أشار الله (سبحانه وتعالى) إلى نقباء بني إسرائيل في كتابه العزيز:

(ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل وبعثنا منهم اثني عشر نقيباً) [المائدة / 12]، والنقيب لغة هو الباحث عن القوم وعن أحوالهم، وجمعها نقباء. وحسب هذه الآية، فهم أسباط بني إسرائيل الاثني عشر، والذين كانوا كالولاة على قومهم، يتولون أمورهم، ويذكرونهم بما ينبغي عليهم الوفاء به كما ذكر المفسرون [2].

ومن ذلك، فإن نقباء أمة محمد الاثنى عشر ينبغي حسب مقتضى الحديث الأخير، وما يفهم من هذه الآية أن يكونوا أيضاً حملة (الميثاق) أو عهد الله الذي جعل فيهم كما يستدل عليه أيضاً من مخاطبة الله (سبحانه وتعالى) للنبي إبراهيم عليه السلام: (وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال إني جاعلك للناس إماما قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين) [البقرة / 142].

ومن المعلوم - بإجماع المسلمين - أن الله (سبحانه وتعالى) جعل عهده النهائي في ذرية إبراهيم من نسل ابنه إسماعيل عليه السلام، وليس في نسل إسحاق عليه السلام كما يدعي أهل الكتاب، وقد توجه إبراهيم عليه السلام إلى الله جل وعلا داعياً: (ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون) [إبراهيم / 37] والمقصود ب (من ذريتي) هم إسماعيل ومن انحدر من صلبه، وقد دعا إبراهيم عليه السلام أن يجعل الله لهم وفيهم الرحمة، وميل قلوب الناس إليهم تعني زيارة الناس للبيت الحرام وحجهم إليه، وهذا الميل أو الزيارة كناية عن هداية الناس بهم.

---

(1) مسند أحمد، ج 1 ص 389.
(2) محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، 5 / 244، وانظر أيضاً: تفسير شبر ص 109.

وتؤكد توراة أهل الكتاب أيضاً استجابة هذا الدعاء لقوله تعالى لإبراهيم عليه السلام (لقد سمعت دعاءك بشأن إسماعيل، إنني سأبارك فيه وأنميه واجعله مثمراً، وسيكون أباً لاثني عشر أميراً [إماماً كما في النسخة العبرية] وسأجعل منه أمة عظيمة) (1).

ومن الواضح من هذا النص التوراتي الموافق لما جاء في الكتاب والسنة أن الأمة العظيمة هم الأتباع الحقيقيون لرسالة الإسلام كما يظهر جلياً من قوله تعالى: (إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا والله ولي المؤمنين) [آل عمران / 68]. ولكن من هم هؤلاء الأئمة أو الأمراء الاثنا عشر الذين حسب النص السابق ستكون الأمة بهم عظيمة؟

فمن الأحاديث التي تصرح بهوية الخلفاء الاثني عشر ما أخرجه الجويني بسنده عن عبد الله بن عباس، قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): (إن أوصيائي بعدي اثنا عشر أولهم علي بن أبي طالب، وآخرهم المهدي) (2).

وفي رواية أخرى، قال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم): (إن خلفائي وأوصيائي وحجج الله على الخلق بعدي اثنا عشر أولهم أخي وآخرهم ولدي. قيل: يا رسول الله، ومن أخوك؟ قال: علي بن أبي طالب. قيل: فمن ولدك؟

قال: المهدي الذي يملأها [الأرض] قسطاً وعدلاً، كما ملئت ظلماً وجوراً. والذي بعثني بالحق بشيراً ونذيراً لو لم يبق من الدنيا إلا يوم واحد، لطول الله ذلك اليوم حتى يخرج فيه ولدي المهدي، فينزل روح الله عيسى بن مريم فيصلي خلفه وتشرق الأرض بنور ربها ويبلغ سلطانه المشرق والمغرب) (3).

(1) التوراة (نقلاً عن نسخة بالإنجليزية)، سفر التكوين (17: 20).
(2) مرتضى العسكري، معالم المدرستين، ج 1 ص 547، نقلاً عن فرائد السمطين للجويني.
(3) المصدر السابق، ج 1 ص 548.

وفي رواية ثالثة، قال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم): (... أنا وعلي والحسن والحسين، وتسعة من ولد الحسين) [1].

وعلى ما يبدو أن أصحاب الصحاح والمسانيد المشهورة عند أهل السنة لم تعجبهم هذه الروايات الثلاث الأخيرة فلم يخرجوها في كتبهم، وقد قال الذهبي في ترجمة شيوخه بتذكرة الخواص أن الإمام المحدث صدر الدين إبراهيم الجويني وهو شافعي الذي أخرج هذه الأحاديث بكتابه (فرائد السمطين)، كان من المحدثين الثقة، وشديد الاعتناء بالرواية وتحصيل الأجزاء [2].

الاثنا عشر عند أهل السنة:

عند النظر في تفسير علماء أهل السنة للأحاديث الصحيحة الدالة على وجود اثني عشر خليفة للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، تجدهم متحيرين كثيراً فيها، حيث إنهم لم يقدموا لغاية اليوم تفسيراً واضحاً من الممكن أن يجمعوا عليه، حتى أصبح الرقم (12) هذا وكأنه من الرموز والطلاسم الغامضة، أو شبيها 2 ب (ألم وكهيعص) الواردة في القرآن ولكن لا أحد يعرف لها تفسيراً.

وللقارئ أن يتسأل: لماذا أصبحت مسألة الاثني عشر خليفة هذه عند بعض المسلمين من الأمور الغيبية أو المجهولة على هذا النحو؟

ونقدم فيما يلي نخبة من هذه التفسيرات لترى مدى غموض هذه المسألة عندهم، فهذا السيوطي يقول: (وقد وجد من الاثني عشر، الخلفاء الأربعة والحسن ومعاوية وابن الزبير وعمر بن عبد العزيز، هؤلاء ثمانية، ويحتمل أن يضم إليهم المهدي العباسي لأنه في العباسيين كعمر بن عبد العزيز في

(1) المصدر السابق، ج 1 ص 584.
(2) المصدر السابق، ج 1 ص 547.

الأمويين، والطاهر العباسي أيضاً لما أوتيه من العدل، ويبقى الاثنان المنتظران أحدهما المهدي لأنه من أهل البيت) (1).

وأما ابن حجر العسقلاني فيقول: (إن جميع من ولي الخلافة من أبي بكر إلى عمر بن عبد العزيز أربعة عشر نفساً، منهم اثنان لم تصح ولايتهما، ولم تطل مدتهما وهما معاوية بن يزيد، ومروان بن الحكم، والباقون اثنا عشر نفساً على الولاء كما أخبر النبي) (2).

وقال القاضي عياض: (لعل المراد بالإثني عشر في هذه الأحاديث وما شابهها أنهم يكونوا في مدة عزة الخلافة وقوة الإسلام واستقامة أموره والاجتماع على من يقوم بالخلافة وهم أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، ومعاوية، ويزيد، وعبد الملك، وأولاده الأربعة: الوليد ثم سليمان ثم يزيد ثم هشام، وعمر بن عبد العزيز من سليمان ويزيد، فهؤلاء سبعة بعد الخلفاء الراشدين، والثاني عشر هو الوليد بن يزيد بن عبد الملك) (3).

ثم يقدم القاضي عياض رأياً آخر: (ويحتمل أن يكون المراد مستحق الخلافة العادلين، وقد مضى منهم من علم، ولا بد من تمام هذا العدد قبل قيام الساعة... إلى قوله: والله أعلم بمراد نبيه) (4).!

وأما ابن العربي في شرح سنن الترمذي، فإنه بعد أن أخذ تلك الأحاديث على مآخذ وتفسيرات مختلفة، قال: (... ولم أعلم للحديث معنى) (5).

فما الذي تعنيه هذه التفسيرات، وخصوصاً المنتهية بعبارة (والله أعلم!)؟

فهل يغلق ملف هذه القضية، ويحرم الناس من معرفة خلفاء نبيهم؟

---

(1) السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص 12.
(2) ابن حجر، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج 3 ص 182.
(3) المصدر السابق.
(4) شرح النووي على صحيح مسلم، ج 4 ص 382 - 83.
(5) شرح ابن العربي على سنن الترمذي، ج 9 ص 68 - 69.

ولا أرى في فهمي لهذه الأحاديث سوى هؤلاء الخلفاء الاثني عشر هم الأئمة من أهل البيت عليه السلام وهم: علي، والحسن بن علي، والحسين بن علي، وعلي بن الحسين، ومحمد بن علي، وجعفر بن محمد، وموسى بن جعفر، وعلي بن موسى، ومحمد بن علي، وعلي بن محمد، والحسن بن علي، وأخيراً محمد بن الحسن وهو المهدي المنتظر الذي يعتقد الشيعة بغيبته منذ عام 260 ه. ويقول الإمام الخامس، محمد بن علي، والملقب بالباقر:

(نحن بقية تلك العترة، وكانت دعوة إبراهيم لنا) (1). ونقدم في الفصل التالي لمحات من سيرة هؤلاء الأئمة الأطهار.

---

(1) عبد الله شبر، تفسير القرآن الكريم، ص 260.

الفصل الثاني
لمحات من سيرة الخلفاء الاثني عشر

1 - الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام

ولد في الثالث عشر من رجب في الكعبة المكرمة بعد مولد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بثلاثين عاماً، وقيل سبعة وعشرين عاماً، ونشأ وترعرع في حجر النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، وأمضى فترة صباه في بيته. وهو أول من أسلم، وقد اختلف في عمره حين إسلامه بين عشرة إلى ثلاثة عشر عاماً. وهو على كل حال لم يسجد لصنم قط، ولم يتجه بأي عبادة لغير الله عز وجل.

وكان أهم ما تميز به الإمام علي عن غيره هو مصاحبته الفريدة للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، وقربه منه، ومؤاخاته له، وتلقيه التربية على يديه. وقد عبر الإمام عن ذلك بقوله: (ولقد كنت أتبعه اتباع الفصيل إثر أمه) فأخذ من أخلاقه وعلمه حتى أصبح بحق باب مدينة علم رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وحكمته، وما أهله ليكون وزيره ووصيه وخليفته على المسلمين بعده بل وأصبح عديلاً للقرآن يعرف المؤمنون حقاً بحبه والمنافقون بكرهه [1].

وهو بذلك الوحيد الذي استحق عند الشيعة لقب (أمير المؤمنين) من بين جميع الخلفاء الذين تسنموا إمرة المسلمين على مر التاريخ، بل وحتى من بين جميع الأئمة الاثني عشر عليه السلام.

وأما عن زهده، فلم تعرف الدنيا حاكماً خضعت له البلاد، ودانت له الدول وهو يلبس ثوباً بثلاثة دراهم. وأما في مجال لقتال والحرب، فقد تميز بشجاعة وبطولة خارقة، حيث كان أول فدائي في الإسلام عندما نام في فراش

(1) تجد تفاصيل ذلك مع المصادر في الفصل الثاني.

النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وقت هجرته إلى المدينة وفي موقعة بدر، قتل بسيفه (ذي الفقار) ما لا يقل عن ثلاثين مقاتلاً من صناديد قريش، وقد ذكر المؤرخون نداء الملك جبريل يوم بدر: (لا سيف إلا ذو الفقار، ولا فتى إلا علي) (1). وأما في موقعتي أحد وحنين، فقد وقف تلك المواقف التاريخية مدافعاً عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بعد فرار المسلمين الجماعي حينذاك. وفي الخندق، تصدى لمبارزة فارس المشركين الأول عمرو بن ود العامري، بعد أن لم يتجرأ أي من الصحابة على التصدي له بالرغم من تكرار حث النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) لهم بذلك، وقد وصف الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ضربة علي عليه السلام التي قضت على ذلك العملاق بأنها تعدل عبادة الثقلين. وفي خيبر، فإنه وبعد أن تعاقب على حمل الراية عدد من المهاجرين وسرعان ما كان كل واحد منهم يعود بالفرار والهزيمة، قال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم): (لأعطين الراية غداً لرجل يحب الله ورسوله، كرار غير فرار، لا يرجع حتى يفتح الله على يديه)، فكان الفتح على يديه علي. وكما يذكر المؤرخون أن باب الحصن الذي حمله الإمام بعد فتحه وجعله درعاً يحميه من ضربات يهود خيبر، قد عجز عن حمله أربعين صحابياً مجتمعين.

فلا غرابة في استحقاقه نيل شرف الزواج من بضعة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) الزهراء سيدة نساء أهل الجنة، وقد كان النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) رافضاً تزويجها للعديد ممن تقدم لخطبتها من وجوه القوم، وكان قوله (صلى الله عليه وآله وسلم) لعلي: (إن الله) (سبحانه وتعالى) أمر بتزويج فاطمة منك)، وقد صدق القائل: (لو لم يخلق علي، ما كان لفاطمة كفؤ) (2)، وقال أحمد بن حنبل: (ما جاء لأحد من أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) من الفضائل ما جاء لعلي بن أبي طالب) (3).

---

(1) مناقب أمير المؤمنين لابن المغازلي ص 197.
(2) كنوز الحقائق ص 129.
(3) مستدرك الحاكم ج 3 ص 107.

وبعد موت النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، فإن الإمام وبالرغم أنه كان يرى نفسه الأولى بالخلافة، كما كانت قد وصى بها النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) إليه فعلاً، فإنه لم يدخر جهداً في سبيل النصح والإرشاد والتعليم في ظل الثلاثة الخلفاء الأوائل، وعندما بايعه الناس للخلافة، فإنه لم يرق لبعض الناس ذلك، فأعلنوا التمرد عليه، فاضطر لمقاتلتهم في مواقع ثلاثة مشهورة هي: الجمل، وصفين، والنهروان.

واستشهد الإمام في الحادي والعشرين من شهر رمضان عام 40 هجرية بعد يومين من طعنة أشقى الآخرين عبد الرحمن بن ملجم له أثناء سجوده وقت الفجر في مسجد الكوفة بالعراق.

2 - الإمام الحسن بن علي عليه السلام

ولد الإمام الحسن عليه السلام في ليلة الخامس عشر من شهر رمضان السنة الثالثة من الهجرة في المدينة المنورة. وروى أنس بن مالك أنه لم يكن أحد أشبه برسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) من الحسن بن علي عليه السلام (1)، وكان يكنى بالمجتبى، والزكي، والسبط، والنقي.

وكانت سيرته كسيرة جده وأبيه، فكان ذا ميزات وأخلاق وفضائل إنسانية سامية من حيث التواضع، والصبر، والوقار، والعفو عند المقدرة، والكرم، وغير ذلك من المزايا الحميدة التي جعلته محبوباً في قلوب الناس. وذكر المؤرخون أن الإمام الحسن عليه السلام أخذ الماء إلى عثمان أثناء حصاره بأمر من أبيه، وشارك برفقة أخيه الحسين وعدد من أبناء كبار الصحابة في حماية عثمان والوقوف أمام داره لمنع الثائرين ضد الخليفة من اقتحامها.

وفي زهده وعبادته، فقد ذكر الحافظ أبو نعيم قوله: (إني لأستحي من ربي أن ألقاه ولم أمش إلى بيته)، فمشى عشرين مرة من المدينة إلى مكة على قدميه. وروي عنه أيضاً أنه تصدق بماله كله ثلاث مرات.

---

(1) الفصول المهمة لابن المالكي ص 151.

وفي السياسة والحرب، فقد كان له دور فعال عندما شارك في حرب الناكثين التي عرفت بموقعة الجمل، حيث أرسله والده إلى الكوفة ليخبر الناس بخروج الناكثين، وعبأ منهم عشرة آلاف للمشاركة في الحرب، وكذلك كان له الدور نفسه في المشاركة بالحرب ضد المتمردين في صفين، وقد قاتل مع الإمام علي عليه السلام في الخطوط الأمامية.

وبعد استشهاد والده أمير المؤمنين، اعتلى منبر الكوفة وخطب بأهلها، فنهض الناس جماعات وبايعوه خليفة للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وإماماً للأمة، وبقي كذلك لستة شهور حيث اضطر إلى عقد معاهدة الصلح مع معاوية ولا سيما بعد تيقنه بتأهب الرومان لمهاجمة المسلمين مستغلين في ذلك المواجهة المحتملة بين جيشي الحسن ومعاوية. والإمام الحسن عليه السلام بصلحه مع معاوية آثر مصلحة الإسلام على ما عداها، ولكنه بقي رغم هذا التنازل الإمام الحافظ لدين الله والهادي لشيعته ومحبيه ومصداقاً لقول الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم): (الحسن والحسين إمامان قاما أو قعدا).

ويقول اليعقوبي في تاريخه: (عاد معاوية إلى الشام بعد عقد معاهدة الصلح مع الإمام الحسن عليه السلام، وهناك وصلته الأنباء بأن إمبراطور الروم تحرك من روما بجيش كبير للهجوم على الدولة الإسلامية والتي لم يكن لها آنذاك القوة اللازمة لدرء الهجوم الروماني، فاضطر معاوية أن يدفع سنوياً للروم الشرقية مائة ألف دينار سنوياً) (1).

وكان من ضمن بنود الصلح أن تسلم الخلافة بعد موت معاوية إلى الإمام الحسن، وإن مات قبل معاوية تصبح الخلافة حقاً لأخيه الحسين. فكانت وفاته عليه السلام في السابع من شهر صفر سنة 50 للهجرة في المدينة المنورة متأثراً بالسم الذي دسته له زوجته جعدة بنت الأشعث بن قيس بالتآمر مع

(1) تاريخ اليعقوبي ج 2 ص 26.

معاوية كما يذكر معظم المؤرخين (1) كالطبري مثلاً الذي يروي. أن الإمام الحسن عليه السلام سقي السم عدة مرات، وكان ينجو منه في كل مرة إلى أن مات في المرة الأخيرة (2).

3 - الإمام الحسين بن علي عليه السلام

ولد في الثالث من شهر شعبان السنة الرابعة للهجرة في المدينة المنورة.

وقد قال الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) فيه وبأخيه الحسن عليه السلام: (الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة)، واشتهر بلقب سيد الشهداء.

وكانت حياته حافلة بالحوادث الهامة والمواقف الرسالية. كما ويشهد له محبوه وأعداؤه بالزهد، والتقوى، والعلم، والفصاحة، وفضائل الأخلاق، والرأفة بالفقراء والمساكين. وشارك أباه في مواقع الجمل، وصفين، والنهروان، إلا أن المحطة اللامعة في حياته ذات الأهمية القصوى التي شارك فيها كانت في كربلاء.

فبعد وفاة الإمام الحسن عليه السلام، بدأت الشيعة في العراق بمراسلة الحسين طالبة منه الثورة ضد معاوية، إلا أنه ذكر في جوابه إليهم أن له ولأخيه عهداً مع معاوية لا يستطيع نقضه. وأما معاوية فقد كان طوال فترة خلافته التي دامت عشرين عاماً يقوم بتهيئة الإمارة بعده لابنه الفاجر يزيد، والذي تربع فعلاً على سدة الحكم سنة 60 للهجرة بعد موت معاوية.

وكان من البديهي أن يرفض الحسين إعطاء البيعة ليزيد ليس فقط لخرق بني أمية معاهدة الصلح، وإنما أيضاً لإحياء الإسلام والسنن الدينية التي أصبحت مضيعة ومهددة بالتحريف والزوال ولم يكن يهدف الحسين

بتراجع أهل العراق ورهبتهم من الأمويين، وهو يقول في إحدى خطبه قرب كربلاء عن أسباب انتفاضته: (أيها الناس من رأى إماماً جائراً يحلل حرمات الله وينقض عهد الله من بعد ميثاقه ويخالف سنة نبيه، ويحكم بين عباد الله بالإثم والجور ولم ينكره بلسانه وعمله كان حقاً على الله أن يكبه معه... إلى قوله:

أيها الناس، إنهم أطاعوا الشيطان، وعصوا الرحمان، وأفسدوا في الأرض، وعطلوا السنن، وأستأثروا ببيت أموال المسلمين، وحللوا حرمات الله، وحرموا ما أحله، وأنا أحق الناس بالإنكار عليهم.

ولهذه الأسباب، فقد أصر الحسين عليه السلام على المواجهة بالرغم من علمه بنكوص أهل الكوفة وارتدادهم عن نصرته وبقائه بإثنين وسبعين رجلاً فقط من أهل بيته وأصحابه الذين جاءوا معه من مكة والمدينة، حيث كان لسان حال الحسين كما وصف أحد الشعراء:

إن كان دين محمد لا يستقيم - * - إلا بقتلي فيا سيوف خذوني

وهكذا كان، فقد استشهد الحسين في العاشر من محرم عام 60 للهجرة وجميع من بقي معه من الرجال واستشهد وعشرون ممن تحول إلى نصرته من المعسكر الأموي علي رأسهم الحر بن يزيد الرياحي، ثم حملت رؤوس الشهداء إلى يزيد في الشام (1).

4 - الإمام علي بن الحسين عليه السلام

ولد في الخامس من شهر شعبان سنة 38 للهجرة بالمدينة المنورة، وكان يلقب بزين العابدين والسجاد. وعاصر فترات حكم كل من يزيد بن معاوية، معاوية بن يزيد، مروان بن الحكم، عبد الملك بن مروان، والوليد بن عبد الملك.

---

(1) تجد تفاصيل أو في حول هذه المأساة في الفضل الرابع.

وقد حفظته العناية الإلهية من القتل في كربلاء حيث كان مريضاً ولم يشارك في القتال، وأخذ مع بقية الأسرى إلى الكوفة ثم إلى الشام. وعندما هدده والي يزيد على الكوفة عبيد الله بن زياد بالقتل لاستنكاره علناً ما اقترفته أيادي الأمويين أجابه: (أبالموت تهددني يا ابن مرجانة؟ نحن آل البيت الشهادة، والشهادة كرم لنا من الله) (1).

وهكذا فقد كان الإمام أثناء المدة القصيرة التي قضاها في الشام دائم الاستنكار لأعمال يزيد وتذكير الناس بما حصل في كربلاء، حتى أعيد مع النساء الهاشميات السبايا إلى المدينة حيث قضى بقية عمره الشريف هناك.

ولكنه لم يكن بمنأى من المضايقات المستمرة هناك من رجال بني أمية، فاختار طريق السرية في تربية نخبة من التلاميذ وإعدادهم، حتى وصل عددهم إلى مئة وسبعين تلميذاً، وأصبح كل واحد منهم عالماً نبراساً في المجتمع الإسلامي. منهم: سعيد بن المسيب، سعيد بن جبير، محمد بن جبير، أبان بن تغلب، جابر بن محمد بن أبي بكر، القاسم بن محمد بن أبي بكر، جابر بن عبد الله الأنصاري، وأبو حمزة الثمالي.

ومن أشهر آثاره العلمية التي خلفها (الصحيفة السجادية)، وهي مجموعة من الأدعية والمناجاة التي كتبها وأورثها لشيعته، وهذه الصحيفة عبارة عن موسوعة كبيرة لمبادئ الإسلام ومعرفة الله ومعرفة الإنسان. وقد لجأ الإمام ليعبر عن أفكاره ومبادئه عبر هذه الأدعية لأنه لم يكن يسمح له عبر غيرها كاعتلاء المنبر أو المجالس العامة، حيث كانت أدعيته ذات وجهين: عبادي واجتماعي.

ومن آثاره أيضاً (رسالة الحقوق) والتي تعد من أسمى الرسائل في أنواع الحقوق، يذكر فيها حقوق الله سبحانه وتعالى على الإنسان، وحقوق نفسه عليه، وحقوق أعضائه من اللسان، والسمع، والبصر، والرجلين، واليدين،

---

(1) مقتل الخوارزمي ج 2 ص 43.

والبطن، والفرج، ثم يذكر حقوق الأفعال من الصلاة، والصوم، والحج، والصدقة، وغيرها، حيث تبلغ خمسين حقاً.

وأما عن زهده وعبادته ومواساته للفقراء، وخوفه من الله فغني عن البيان، فقد كان الإمام إذا توضأ اصفر وجهه، فيقال له: ما هذا الذي يعتادك عند الوضوء؟ فيقول: أتدرون بين يدي من أريد أن أقف (1).

وبقي تحرك الإمام مرصوداً من قبل السلطات الأموية حتى قرر الخليفة عبد الملك بن مروان اعتقاله، فأرسل إلى الشام مثقلاً بالحديد لإرهابه وإجباره على التوقف عن استنكار الأمويين، ولكنه لم يأبه بذلك ثم أعيد إلى المدينة، حيث استمر فيها على النهج نفس، حتى دس إليه سليمان بن عبد الملك السم أخيراً في عهد أخيه الخليفة الوليد بن عبد الملك.

وأسدل بذلك الستار على حياة نجم آخر من نجوم الهداية في الخامس والعشرين من محرم سنة 95 للهجرة، ودفن في البقيع بجانب ضريح عمه الحسن بن علي عليه السلام. ومما يجدر ذكره أن الوهابيين (2) قاموا بهدم قبره، وقبور بقية الأئمة في البقيع في الثامن من شوال سنة 1344 ه / 1925 م.

5 - الإمام محمد بن علي عليه السلام

ولد في الأول من شهر رجب عام 57 للهجرة بالمدينة المنورة، وقد عرف بلقب الباقر لبقره العلم وتفجيره له وتوسعه فيه، وعاصر طوال فترة إمامته التي دامت 18 عاماً حكم كل من الوليد بن عبد الملك، سليمان بن عبد الملك، عمر بن عبد العزيز، يزيد بن عبد الملك، وهشام بن عبد الملك.

وقد استمر هؤلاء الخلفاء باستثناء عمر بن عبد العزيز بمضايقة أئمة أهل البيت عليه السلام وتصفية أنصارهم ومحبيهم كما فعل من سبقهم من الخلفاء

---

(1) جعفر السبحاني، بحوث في الملل والنحل، ج 6 ص 441.
(2) تجد تفاصيل عن نشأة هذه الحركة في الفصل الخامس من هذا الكتاب.

الأمويين. وكان أحد أدوات السلطة في القمع والإرهاب هذه المرة رجلاً يتلذذ بسفك الدماء البريئة اسمه الحجاج بن يوسف والذي ولاه الوليد بن عبد الملك العراق، حيث حولها إلى ساحة لتعذيب الأبرياء، وخصوصاً شيعة أهل البيت عليه السلام. وعندما استلم عمر بن عبد العزيز الخلافة، أصدر أمراً بوقف (سنة!) سب الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام على المنابر في الجمع والأعياد. وهي السنة التي استنها معاوية منذ أول خلافته وورثها لمن بعده، ولكن أيام الخليفة عمر بن عبد العزيز لم تطل، وهو نفسه كما يذكر المؤرخون قد تمت تصفيته على يد المعارضين لنهجه العادل من الأسرة الأموية الحاكمة.

وواصل الإمام محمد الباقر عليه السلام النهج السري لسلفه الإمام زين العابدين بتنشيط الحركة التربوية والتعليمية الشاملة، والتي مهدت لإنشاء أول مدرسة إسلامية على منهج تعاليم أهل البيت عليه السلام ولكنه وبسبب ضغوط السلطات ومراقبتهم، فإن نشاطات هذه المدرسة بقيت محدودة، ولم تعط ثمارها الحقيقية إلا في عصر الإمام السادس جعفر بن محمد الصادق عليه السلام.

وقد قام الإمام الباقر عليه السلام بنشر الأحاديث والأحكام الإسلامية بشكل ملحوظ حتى أصبح الناس في عصره يتناقلون علومه وأخباره.

ثم لاقى الإمام عليه السلام نفس مصير آبائه وأجداده، عندما دس إليه السم عن طريق الأيدي الآثمة للسلطة الأموية الحاكمة وكان ذلك في السابع من ذي الحجة عام 114 للهجرة في المدينة المنورة، وهناك دفن، فيما يعرف ب (البقيع).

6 - الإمام جعفر بن محمد عليه السلام

ولد في السابع عشر من شهر ربيع الأول سنة 83 للهجرة بالمدينة المنورة وأمه فاطمة بنت القاسم بن محمد بن أبي بكر. وعاصر خلال فترة إمامته من الخلفاء الأمويين كلاً من هشام بن عبد الملك، يزيد بن عبد الملك، إبراهيم بن الوليد، ومروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين والملقب بالحمار. ومن العباسيين، فقد عاصر عبد الله السفاح وأبا جعفر المنصور الدوانيقي. وكان أشهر ألقابه الصادق.

وقد صادف عصره أواخر الدولة الأموية حيث دب فيها الضعف، وبداية الدولة العباسية حيث التظاهر بحب أهل البيت، مما أتاح الإمام الصادق عليه السلام من استكمال المدرسة التي بدأها سلفه الإمام محمد الباقر عليه السلام وتوسيعها إلى أن أصبحت جامعة كبرى لتربية التلاميذ ونشر العلوم والمعارف الإسلامية، حتى قيل إنه خلال فترة إمامته التي امتدت لأربع وثلاثين عاماً تمكن من تربية 4 آلاف تلميذ في مختلف العلوم.

وقد دار نشاط الإمام الصادق عليه السلام العلمي حول محورين أساسيين، هما: حماية العقيدة الإسلامية من التيارات العقيدية والفلسفية والإلحادية التي قويت في عصره، ونشر الإسلام وتوسيع دائرة الفقه والتشريع وتثبيت معالمهما وحفظ أصالتهما.

ويقول أبو حنيفة النعمان وهو أحد أئمة المذاهب الفقهية الأربعة عند أهل السنة: (عندما استدعى أبو جعفر المنصور الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام إلى العراق دعاني إليه لمناظرته، فكتب أربعين مسألة لطرحها على الإمام. وحين دخلت على المنصور وجدت الإمام الصادق جالساً إلى يمينه فسلمت وجلست، وقدمني المنصور إليه، ثم أمر بطرح المسائل عليه، فكنت أسأله واحداً واحداً، وهو يجيب عنها واحدة واحدة، ومبدياً في كل مسألة آراء أهل المدينة وآراء أهل العراق وأخيراً رأيه الخاص به. وكان رأيه موافقاً لآرائهم حيناً ومخالفاً حيناً. فعرفت أنه أعلم الناس وأعرفهم بعقائد أهل زمانه) (1).

ويقول مالك بن أنس، وهو إمام آخر من أئمة المذاهب الأربعة وأحد تلاميذ الإمام جعفر الصادق عليه السلام: (كنت غالباً أدخل على الإمام الصادق عليه السلام، فكان إما مصلياً أو قارئاً القرآن الكريم. ولم تر عين مثله، ولم تسمع أذن بمثله، ولم يخطر على بال أحد أن يكون هناك أوسع علماً وأكثر عبادة وزهداً منه) (2).

______

(1) تذكرة الحفاظ ج 1 ص 157.
(2) الإرشاد للمفيد ص 389.

وعلى كل حال، فخدمات الإمام الصادق العلمية في مجال التفسير والحديث والفقه لا يمكن حصرها، وتمكن من علماء كبار وتنشئتهم في علوم الكلام والفلسفة والمناظرة والذين كان من بينهم: هشام بن الحكم الذي ترك وراءه خمسة وعشرين كتاباً. ومن المفارقات العجيبة وما أكثرها في تاريخنا الإسلامي أن تجد الشيخ البخاري مثلاً لم يرو في صحيحه ولو حديثا واحدا عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام، في الوقت الذي تجده يروي عن مروان بن الحكم الملعون هو وأبوه على لسان النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، وعن عمران بن حطان الخارجي الذي ألف قصيدة في مدح قاتل علي بن أبي طالب! (1).

وفي جانب العلوم الطبيعية، فقد تمكن الإمام من كشف أسرار نالت إعجاب العلماء الاختصاصيين في العصر الحديث، لا سيما ما جاء منها في كتابه (توحيد المفضل) الذي أملاه على تلميذه المفضل بن عمرو الكوفي في أربعة أيام، وكذلك تربيته للعالم الفذ جابر بن حيان الذي يعد اليوم أبو الكيمياء، حيث أخذ علمه عن الإمام الصادق عليه السلام وألف كتباً ورسائل عديدة في هذا المضمار. وقال الدكتور يحيى الهاشمي: (إن هناك عدة كتب مخطوطة لجابر بن حيان لا يزال علماء الألمان يعكفون على حل رموزها) (2). وقال الحوماني: (واستخراج المعلوم من المجهول له علم خاص سماه علماء الغرب (علم الجبر) اشتقوه من اسم جابر بن حيان، لأنه أول من وضع هذا العلم نقلاً عن معلمه جعفر الصادق) (3).

وانتقل الإمام إلى جوار ربه في الخامس والعشرين من شوال عام 148 هجرية بالمدينة المنورة، ودفن في مقبرة البقيع بجوار آبائه الباقر، وزين العابدين، والحسن عليهم السلام.

---

(1) جعفر السبحاني، بحوث في الملل والنحل، ج 6 ص 455.
(2) الحوماني، أشعة من حياة الإمام جعفر الصادق عليه السلام، ص 41.
(3) المصدر السابق.

7 - الإمام موسى بن جعفر عليه السلام

ولد في السابع من شهر صفر سنة 128 للهجرة بالأبواء - بين مكة المكرمة والمدينة المنورة - وكان أشهر ألقابه الكاظم، وعاصر كلاً من أبي جعفر المنصور، محمد المهدي بن المنصور، موسى الهادي ابن المهدي، وهارون الرشيد الابن الآخر للمهدي.

وشهدت فترة أبي جعفر المنصور عودة القمع والاضطهاد لأهل البيت عليه السلام، وأشياعهم، فاختار الإمام الكاظم أن يركز جهوده في المضمار العلمي، فواصلت مدرسة أهل البيت العلمية في عهده بالازدهار، وتخرج منها العديد من العلماء والمفسرين الأفذاذ منهم: علي بن يقطين، محمد بن أبي عمر، وهشام بن الحكم وغيرهم. وقد قيل فيه إنه كان أعبد أهل زمانه وأعلمهم وأفقههم، ودامت فترة إمامته 35 عاماً.

وعاش الإمام الكاظم عليه السلام فترات طويلة من عمره الشريف في ظلمات سجون العباسيين، حيث سجنه الخليفة المهدي ثم أطلقه وسجنه بعد ذلك هارون الرشيد في البصرة ثم نقله إلى سجن بغداد لمدة طويلة أقل ما قيل فيها إنها كانت أربع سنوات، ومات متأثراً بسم يعتقد أن الرشيد كان وراء الأيدي التي اقترفت هذا الإثم الكبير، وكان ذلك في الخامس والعشرين من رجب سنة 183 للهجرة. ودفن بالقرب من بغداد في مقابر قريش المعروفة في أيامنا هذه باسم (الكاظمية) نسبة إلى الإمام الكاظم عليه السلام.

8 - الإمام علي بن موسى عليه السلام

ولد في الحادي عشر من شهر ذي القعدة سنة 148 للهجرة بالمدينة المنورة، واشتهر بلقب الرضا، وعاصر خلافة كل من هارون الرشيد، محمد الأمين، وعبد الله المأمون، ودامت فترة إمامته عشرين عاماً.

وقد كثرت الثورات العلوية خلال عهد المأمون، والتي كانت تنادي بالرضا من آل محمد، ومن ذلك أطلق المأمون على الإمام علي بن موسى

لقب (الرضا). وقد امتدت هذه الثورات لتشمل مناطق عديدة كالبصرة، وخراسان، واليمن، حتى أصبحت تهدد عرش الخليفة مما حدى به إلى استدعاء الإمام من المدينة المنورة إلى (مرو) في خراسان وهي عاصمة الدولة العباسية آنذاك، وعرض عليه منصب ولاية العهد، الأمر الذي عد مناورة سياسية يهدف المأمون من ورائها إخماد ثورات العلويين، وإضفاء صفة الشرعية على خلافته، ومما يؤكد عدم حسن نية الخليفة في هذه الخطوة أنه أجبر الإمام على قبول هذا المنصب بتهديده إياه بالقتل في حالة رفضه.

وعند موافقة الإمام على قبول ولاية العهد كان قوله للمأمون: (قد نهاني الله عز وجل أن ألقي بيدي إلى التهلكة، فإن كان الأمر علي هذا فافعل ما بدا لك، وأنا أقبل ذلك على أن لا أولي أحداً ولا أنقض رسماً ولا سنة، وأكون في الأمر بعيداً مشيراً) (1).

ومما يؤكد قلق المأمون تجاه سياسته بالتعامل مع الإمام أنه وبعد أن ألح عليه مرة بإقامة صلاة العيد، تراجع عن ذلك ومنعه من إقامتها، وخصوصا ملاحظته تعاظم مكانة الإمام في عيون الناس يوماً بعد يوم، وخشيته من انتشار علمه وسيرته في ربوع العالم الإسلامي، فقرر إنهاء حياة الإمام عليه السلام وقام بدس السم إليه، مما أدى إلى مفارقته لهذه الدنيا. وكان ذلك في السابع عشر من صفر سنة 203 للهجرة، ودفن جثمانه الطاهر في (خراسان) بالمدينة التي تعرف اليوم باسم (مشهد) في الجمهورية الإسلامية الإيرانية.

وبالرغم من أن المأمون تظاهر بالحزن الشديد عندما أخبر بوفاة الإمام وقام بتمزيق قميصه وبكى بصوت عال، إلا أن معظم الباحثين والمؤرخين على يقين باقترافه لهذا الجرم الشائن.

---

(1) علي محمد دخيل، أئمتنا، ج 2 ص 140.

9 - الإمام محمد بن علي عليه السلام

ولد في ليلة التاسع عشر من رمضان سنة 195 للهجرة في بغداد، وعاصر خلافتي المأمون والمعتصم. وأشهر ألقابه الجواد والتقي ودامت إمامته لسبعة عشر عاماً.

وقد أثارت مسألة انتقال الإمامة إلى الإمام محمد الجواد جدلاً كثيراً بسبب صغر سنه حين تسلمه الإمامة، حيث كان عمره عند وفاة والده الإمام علي الرضا عليه السلام ثماني سنوات أو عشر حسب اختلاف الروايات. ويذكر بعض المؤرخين أن الشيعة حاروا واضطربوا ووقع بينهم الخلاف والانقسام بسبب هذا الحدث (1). وبالرغم من ذلك، فإن أغلب الشيعة قبلوا إمامته واحتجوا كما يذكر الشيخ المفيد وهو من أعظم علماء الشيعة الكبار في القرن الرابع الهجري بأن كمال العقل لا يستنكر لحجج الله تعالى مع صغر السن لقوله تعالى بشأن عيسى عليه السلام: (قالوا كيف نكلم من كان في المهدي صبيا، قال إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبياً) [مريم / 29 - 30]. وبقوله تعالى بشأن يحيى عليه السلام:

(وآتيناه الحكم صبياً) [مريم / 12]، إلى قوله: وإذا كان الأمر على ما ذكرناه من تخصيص الله تعالى حججه، بطل ما تعلق به هؤلاء القوم، على أنهم إن أقروا بظهور المعجزات على الأئمة وخرق العادة لهم، وفيهم بطل أصلهم الذي اعتمدوا عليه في إنكار إمامة الجواد عليه السلام (2). وتكررت هذه الحالة بشأن الإمام علي الهادي وهو عاشر الأئمة، وآخرهم الإمام محمد المهدي عليه السلام.

وقد اقتضت الضرورة عند الموالين للمزيد من البحث والتحري بما يخص إمامة الجواد عليه السلام، فاقدموا على اختباره في مواقف وحالات متعددة حتى تحقق لهم الاطمئنان بغزارة علمه وأهليته، ولم يرفض إمامته

---

(1) رسول جعفريان، الحياة الفكرية والسياسة لأئمة أهل البيت، ج 2 ص 103.
(9) الشيخ المفيد، الفصول المختارة من العيون والمحاسن، ص 256.

منهم. فالشيعة ينظرون إلى الإمامة باعتبارها قضية إلهية، فتكون مسألة صغر عمر الإمام - كمسألة صغر عمر النبي - ليست هي القضية المهمة بالنسبة إليهم، وإنما الأمر المهم في ذلك هو الجانب الإلهي في علمهم وعملهم.

ومن المعلوم أن الأئمة عليه السلام كانوا يجيبون على جميع الأسئلة التي تعرض عليهم، وكان الأتباع والموالون يقبلون إمامتهم تبعاً لذلك بالرغم من وجود النص المسبق على إمامتهم (1).

ويقول العلامة السبحاني: (وليس عجيباً تحمل أعباء الزعامة في أيدلوجية الرجل الإلهي، فالأئمة الإلهيون كانوا متحلين منذ البداية ومن أجل أهداف معنوية بتربية خاصة، ويخطون بكمالات (معنوية) لا توجد إطلاقاً في الأفراد العاديين. ولقد تجلت لكل الناس هذه الكمالات في الإمام محمد الجواد عليه السلام من خلال مناقشاته ومناظراته عندما كان يلتقي بعلماء بغداد بحضور الخليفة المأمون، والذي بلغ إعجابه به يوماً أن زوجه ابنته أم الفضل لما رآه فيه من الفضيلة، وبلوغ العلم، والحكمة، والأدب، وكمال العقل مع صغر سنه وما لم يساوه فيه أحد من مشايخ أهل زمانه (2).

ثم انتقل الإمام بعد زواجه إلى المدينة المنورة حيث ربى خلال فترة إقامته فيها شخصيات علمية كثيرة، وعندما استلم المعتصم مقاليد الحكم سنة 218 للهجرة، استدعى الإمام إلى بغداد ليكون تحت مراقبته، وخوفاً من شدة التفاف الناس حوله.

وقد انتقل الإمام إلى جوار ربه في التاسع والعشرين من ذي القعدة سنة 220 للهجرة وكان عمره 25 عاماً، حيث يعتقد بعض المؤرخين أن المعتصم قد دس إليه السم عن طريق زوجته أم الفضل. ودفن بجوار جده الإمام موسى الكاظم عليه السلام بالقرب من بغداد.

---

(1) رسول جعفريان، الحياة الفكرية والسياسية لأئمة أهل البيت، ج 2 ص 105.
(2) جعفر السبحاني، مشهد من حياة أئمة الإسلام، ص 69.

10 - الإمام علي بن محمد عليه السلام

ولد في الخامس عشر من ذي الحجة سنة 212 للهجرة بقرية من نواحي المدينة المنورة تدعى صربا، ودامت إمامته لمدة 34 عاماً، وكان أشهر ألقابه: الهادي والنقي. وقد عاصر كلاً من المعتصم، الواثق، المتوكل، المنتصر، المستعين، والمعتز.

وكما يصفه المؤرخون فإنه كان فقيهاً وإماماً متعبداً، وأطيب الناس مهجة وأصدقهم لهجة، وأملحهم من قريب وأكملهم من بعيد، إذا صمت علته هيبة الوقار، وإذا تكلم سماه البهاء (1).

وكانت سياسة الخلافة العباسية منذ عهد المأمون إلى ما قبل مجئ المتوكل إلى الحكم تقوم على أساس التمسك بمذهب المعتزلة والدفاع عنهم مما فسح المجال تلقائياً بشئ من الحرية للشيعة، ولكن بمجئ المتوكل إلى الحكم، وانتهاجه سياسة الدفاع عن مذهب أهل الحديث (2) المناقض للمعتزلة، ابتدأ التشدد والضغط من جديد على مذهبي الشيعة والمعتزلة، واضطهاد أتباعهما.

وكانت فترة الأربعة عشر عاماً التي عاشها الإمام من حكم المتوكل بعد أن استقدمه إلى سامراء وأجبره على العيش فيها من أشد السنين التي مرت عليه، وأذاقه الخليفة فيها أشد صنوف العذاب والمحن. ويروي المسعودي أنه: (سعي إلى المتوكل بالإمام محمد الجواد أن في منزله كتباً وسلاحاً من شيعته، وأنه عازم على الوثوب بالدولة، فبعث إليه جماعة من الجند الأتراك، وهجموا على داره ليلاً، فلم يجدوا فيها شيئاً، ووجدوه في بيت مغلق عليه، وعليه مدرعة من صوف وهو جالس على الرمل والحصى، ومتوجه إلى الله

---

(1) ابن أشوب مناقب آل أبي طالب، ج 4 ص 401.
(2) مرت تفاصيل عن هذه الفرق والمذاهب في الفصل الخامس.

تعالى يتلو آيات من القرآن، فحمل على حاله تلك إلي المتوكل وقالوا له: لم نجد في بيته شيئاً، ووجدناه يقرأ القرآن مستقبل القبلة. وكان المتوكل حينها جالساً في مجلس الشراب وبيده الكأس، فلما رأى الإمام هابه وعظمه وأجلسه إلى جانبه، وقال له: أنشدني شعراً، فقال الإمام: إني قليل الرواية للشعر، فقال المتوكل: لا بد، فأنشده الإمام وهو جالس عنده:

باتوا على قلل الأجبال تحرسهم * غلب الرجال فما أغنتهم القلل
واستنزلوا بعد عز من معاقلهم * فأودعوا حفراً يا بئس ما نزلوا
ناداهم صارخ من بعد ما قبروا * أين الأسرة والتيجان والحلل
أين الوجوه التي كانت منعمة * من دونها تضرب الأستار والكلل
فأفصح القبر عنهم حين ساءلهم * تلك الوجوه عليها الدود تنتقل
قد طالما عمروا دوراً لتحصنهم * ففارقوا الدور والأهلين وانتقلوا
وطالما كنزوا الأموال وادخروا * فخلفوها على الأعداء وارتحلوا
أضحت منازلهم قفراً معطلة * وساكنوها على الأحداث قد رحلوا

فبكى المتوكل حتى بلت دموعه لحيته وبكى الحاضرون، ثم أمر المتوكل برفع مائدة الشرب، ثم رد الإمام إلى منزله مكرماً) (1).

وقد توفي الإمام في الثالث من شهر رجب سنة 254 للهجرة متأثراً بسم الخليفة المعتز، ودفن في سامراء شمال مدينة بغداد في العراق.

11 - الإمام الحسن بن علي عليه السلام

ولد في الثامن من ربيع الثاني سنة 232 للهجرة في المدينة المنورة، وعاصر خلافة كل من المعتز، المهتدي، والمعتمد، ودامت فترة إمامته ست سنوات. واشتهر بلقب العسكري نسبة إلى عسكر ويراد بها سر من رأى (أو

(1) مروج المذهب للمسعودي، ج 4 ص 11.

سامراء) التي بناها المعتصم وانتقل إليها بعسكره. وكانت نسبة الإمام إليها منذ أن أجبر الخليفة المتوكل الإمام وأباه الهادي عليه السلام الإقامة فيها، فنسبا إليها، فأحياناً يوصفا (بالعسكريين) [1].

واشتدت رقابة العباسيين للإمام الحسن العسكري أكثر مما كانت على أبيه وذلك لتعاظم قوة الشيعة في العراق، ولعلم الخلفاء العباسيين من خلال أحاديث رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وما تناقلته الأجيال من معتقدات الشيعة أنه سيولد للإمام ولد يقضي على كل الحكومات المستبدة.

ولذلك فإنه عندما ولد للإمام الحسن ابنه محمد، فقد أخفى خبر ولادته عن عموم الناس، فضلاً عن العناية الإلهية التي أحاطت المولود بالحفظ والستر حتى فشلت السلطة في استقصاء الأمر.

وتوفي الإمام في الثامن من ربيع الأول سنة 260 للهجرة وعمره 28 عاماً بعد أن اشتد به المرض في عهد الخليفة المعتمد. ولم يستبعد أن اشتداد المرض عليه كان بتأثير سم قد دس إليه عن طريق أيدي السلطة الآثمة، وذلك نظراً لصغر عمره عند وفاته وتخوف العباسيين منه لا سيما أنه كان قد سجن عدة مرات مع أنصاره وخطط لقتله. ودفن بجانب ضريح والده الإمام علي الهادي عليه السلام في سامراء شمال العاصمة العراقية بغداد.

12 - الإمام محمد بن الحسن (المهدي)

ولد في الخامس عشر من شعبان سنة 255 للهجرة بمدينة سامراء في عهد الخليفة المهتدي العباسي، وأشهر ألقابه: المهدي، القائم، المنتظر، الحجة، صاحب الزمان. وقد امتدت فترة إمامته منذ تسلمه مقاليدها سنة 260 للهجرة ولغاية أيامنا هذه وإلى أن يشاء الله جل وعلا.

(1) وفيات الأعيان لابن خلكان، ج 2 ص 94.

ذلك أنه وعند وفاة والده الإمام الحسن العسكري عليه السلام، فقد اقتضت الحكمة الإلهية تغييبه عن العيون وحفظه لحين ظهوره على الملأ في موعد مستقبلي يختاره الله سبحانه وتعالى، تكون الظروف فيه مؤاتية لإعلان دعوته وقيادة الأمة نحو النصر النهائي لرسالة الإسلام مصداقاً للوعد الإلهي: (ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون) [الأنبياء / 105] وقوله تعالى: (ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون، هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون) [التوبة / 32 - 33]، وقوله تعالى: (ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين) [القصص / 5].

وقد انتقلت الإمامة إليه عند وفاة والده وكان له من العمر خمس سنوات شأنه في ذلك شأن النبي يحيى عليه السلام الذي تسلم مقاليد النبوة والحكم وهو صبي: (يا يحيى خذ الكتاب بقوة وآتيناه الحكم صبياً) [مريم / 12]، وهذا أقل إعجازاً من تسلم نبي الله عيسى عليه السلام النبوة وهو لا يزال رضيعاً: (فأشارت إليه قالوا كيف نكلم من كان في المهد صبياً، قال إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبياً) [مريم / 29 - 30].

وما يثبت هوية الإمام محمد المهدي من السنة النبوية قول الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم): (لا تذهب الدنيا حتى يملك العرب رجل من أهل بيتي يواطئ اسمه اسمي) (1).

ومن قول الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) أيضا ما يوضح مهمته: (تقوم الساعة حتى تملأ الأرض ظلماً وجوراً وعدواناً ثم يخرج من أهل بيتي من يملأها قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وعدواناً (2)، وقوله (صلى الله عليه وآله وسلم): (لو لم يبق من الدنيا إلا

---

(1) صحيح الترمذي ج 9 ص 74، مسند أحمد ج 1 ص 376.
(2) المستدرك للحاكم ج 4 ص 557، مسند أحمد ج 3 ص 36.

يوم لطوله الله عز وجل حتى يملك رجل من أهل بيتي، يملك الديلم والقسطنطينية) (1).

ومن قول الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) أيضاً ما يثبت إنه يظهر قبل نزول عيسى عليه السلام: (كيف أنتم إذا نزل ابن مريم فيكم وإمامكم منكم) (2) وقال الحافظ في شرحه لهذا الحديث: (تواترت الأخبار بأن المهدي من هذه الأمة وأن عيسى بن مريم سينزل ويصلي خلفه) (3).

ولذلك فإن الاعتقاد بالإمام المهدي المنتظر ليس خاصاً بالشيعة، فأهل السنة مجمعون على الإيمان به وإن خالف غالبيتهم ما يعتقده الشيعة بما يتعلق بمولده سنة 255 للهجرة وقالوا بأنه سيولد في آخر الزمان، والفتوى التي أصدرها المجمع الفقهي في رابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة والمؤرخة في 31 آيار 1976 تمثل موقف أهل السنة في عصرنا حول هذه المسألة وهذا نصها (المهدي عليه السلام هو محمد بن عبد الله الحسني، العلوي، الفاطمي، المهدي، الموعود، المنتظر، موعد خروجه في آخر الزمان، وهو من علامات الساعة الكبرى يخرج من المغرب ويبايع له في الحجاز في مكة المكرمة، بين الركن والمقام، بين باب الكعبة المشرفة والحجر الأسود الملتزم. ويظهر عند فساد الزمان وانتشار الكفر وظلم الناس، ويملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً، يحكم العالم كله وتخضع له الرقاب بالإقناع تارة وبالحرب تارة أخرى وسيملك الأرض سبع سنين وينزل عيسى عليه السلام من بعده، فيقتل الدجال، أو ينزل معه فيساعده على قتله بباب لد بأرض فلسطين. وهو آخر الخلفاء الراشدين الاثني عشر الذين أخبر

---

(1) صحيح ابن ماجة، باب الجهاد.
(2) صحيح مسلم، باب نزول عيسى ج 1 ص 373.
(3) فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج 5 ص 362.

النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) عنهم في الصحاح... وأن الاعتقاد بخروج المهدي واجب لأنه من عقائد أهل السنة والجماعة، ولا ينكره إلا جاهل بالسنة ومبتدع في العقيدة).

ومن علماء أهل السنة الذين وافقوا معتقد الشيعة بولادة الإمام المهدي لأبيه الإمام الحسن العسكري سنة 255 للهجرة وأنه لا يزال حياً يرزق منذ ولادته:

1 - كمال الدين بن طلحة في كتابه: (مناقب السؤول في مناقب آل الرسول.

2 - محمد بن يوسف الكنجي في كتابه: (البيان في أخبار صاحب الزمان).

3 - نور الدين بن الصباغ في كتابه: (الفصول المهمة).

4 - سليمان القندوزي في كتابه: (ينابيع المودة).

5 - شمس الدين سبط بن الجوزي في كتابه: (تذكرة الخواص)، وغيرهم.

وقد كانت غيبة الإمام المهدي عليه السلام عن الأنظار على مرحلتين:

المرحلة الأولى: وتسمى الغيبة الصغرى والتي بدأت منذ وفاة والده وتسلمه الإمامة سنة 260 للهجرة، وكان يمكن للناس خلال هذه المرحلة الاتصال به عن طريق نواب خواص عينهم الإمام ليكونوا حلقة الوصل بينه وبين أتباعه، ولينقلوا لهم إجاباته وتوجيهاته. ودامت الغيبة الصغرى 69 عاما تخللها أربعة، نواب خواص وهم على التوالي: عثمان بن سعيد العمري، محمد بن عثمان العمري، حسين بن روح النوبختي، وعلي بن محمد السمري.

المرحلة الثانية: وتسمى الغيبة الكبرى والتي بدأت سنة 329 للهجرة ولا زلنا نعيشها في أيامنا وإلى أن يشاء الله. وتحولت عند بداية هذه المرحلة النيابة الخاص إلى النيابة العامة المتمثلة بفقهاء الشيعة ومجتهديهم المؤهلين من نواحي العدالة والأعلمية والخبرة ويطلق عليهم اسم مراجع الدين ومفردها المرجع الديني لرجوع الناس إليهم في أخذ الفتوى والإرشاد. ويتم وصول

المجتهد المؤهل إلى مرتبة المرجعية من خلال تأييد الناس والمؤسسات الدينية له، ويمكن تواجد أكثر من مرجع واحد في نفس الوقت.

وأما على صعيد السياسة والحكم في ظل الغيبة الكبرى، يجوز لأي من الفقهاء المؤهلين إقامة الحكومة الإسلامية أو قيادتها وعلى بقية الفقهاء أو المراجع التأييد والمناصرة. وأما شكل هذه الحكومة وصلاحياتها وحدود سيادتها، فإنها من الأمور الواقعة تحت اجتهاد الفقهاء في كل عصر، وليس لها صيغة ثابتة. وتعتبر شرعية الجمهورية الإسلامية في إيران مستمدة من هذا الأصل الفقهي عند الشيعة، وإن كان الفقهاء يختلفون حول بعض المسائل الفرعية أو التفصيلية المتعلقة بهذا الأمر.

وبالإضافة لكل ما سبق، فإنه يثار أيضاً حول الإمام المهدي عليه السلام وغيبته تساؤلات عديدة لا بد من التطرق إليها، وأهمها ما يلي:

أولاً: لماذا يغيب الإمام وقد نصب لحفظ الدين وهداية الناس؟

ثانياً: كيف يمكن له أن يعش هذا العمر الطويل؟

ثالثاً: ما هي علامات ظهوره؟

ونحاول فيما يلي الإجابة عن هذه التساؤلات الثلاثة بإيجاز:

أولاً: أسباب الغيبة

إن من أوضح الأسباب التي يمكن بها فهم الحكمة الإلهية التي اقتضت غيبة الإمام المهدي هو تخطيط السلطات العباسية لقتله، وكان هذا واضحاً من خلال إصرارهم في البحث عن أي مولود للإمام الحسن العسكري عليه السلام أثناء مرضه، والاستقصاء حتى بشأن زوجاته وجواريه إن كان أي منهن فيها حمل. وإذا علمنا أن الإمام المهدي هو آخر الأئمة الاثني عشر والذي وعد الله بأن يتم نوره وينشر عدله في جميع أرجاء المعمورة بظهوره، فإنه سيزول جزء كبير من استغرابنا حول هذه المسألة

والنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) يعقد المقارنة أمته وبني إسرائيل بقوله: (لتتبعن سنن من كان قبلكم شبراً شبراً، وذراعاً بذراع، حتى لو دخلوا حجر ضب تبعتموهم، فسأله أحدهم: يا رسول الله، اليهود والنصارى؟ قال: فمن؟) (1) وقد نزل قوله سبحانه وتعالى بحق بني إسرائيل: (قل فلم تقتلون أنبياء الله إن كنتم مؤمنين) [البقرة / 91] وقوله تعالى: (ويقتلون النبيين بغير حق) [آل، عمران / 21]، وما قيل في ذلك أن بني إسرائيل قتلوا أربعين نبياً. وأما حكام أمة محمد فإنهم قتلوا أحد عشر إماماً كل واحد منهم كان أتقى أهل زمانه وأعلمهم، فضلاً عن قتل الآلاف من أنصارهم كشهداء كربلاء وحجر بن عدي وأصحابه وسعيد بن جبير وغيرهم الكثير.

وهكذا، فقد استمرت غيبة الإمام على مر العصور لاستمرار الظروف ذاتها المواتية لسفك دمه الطاهر على أيدي ملوك المسلمين وسلاطينهم، ولكان ذلك بمرأى ومسمع ورضا من سواد الأمة الأعظم كما حصل ذلك من قبل في تعذيب المسيح عليه السلام وقتل الحسين وغيرهم من أولياء الله وحججه، فيكون الناس هم الذين حرموا أنفسهم من الانتفاع من الوجود الظاهري للإمام المهدي بينهم كما حرمت الأمم السابقة نفسها من الانتفاع من الوجود الأنبياء والرسل الذين أرسلوا لهدايتهم. وهذه سنة ثابتة أودعها الله في خلقه: (قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي وآتاني رحمة من عنده فعميت عليكم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون) [هود / 28].

ثانياً: تفسير العمر الطويل

يبلغ عمر الإمام المهدي في اليوم عام (1418 ه 1997) 1162 عاماً، الأمر الذي يستبعده المخالفون ويسخر منه المنكرون. ولكن لو تصفحنا آيات القرآن الكريم لوجدنا شواهد عديدة على طول عمر أولياء الله وأنبيائه. فهذا

(1) صحيح البخاري، كتاب الفتن، ج 9 ص 144.

النبي نوح عليه السلام قيل إنه عاش 2500 سنة قضى منها في الدعوة تسعمائة وخمسين: (فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين) [العنكبوت / 14]. وأما أهل الكهف النيام: (ولبثوا في كهفهم ثلاث مائة سنين وازدادوا تسعا) [الكهف / 25].

وأمد الله كذلك في عمر عيسى والخضر عليه السلام آلاف السنين ولا يزالا أحياء، وحتى أن إبليس قد أعطي مثل ذلك: (فإنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم) [الحجر / 37 - 38]. وحسب بعض الروايات، فإن آدم وإدريس وهود عمروا ما يزيد عن 900 سنة، بل إن معدل أعمار قوم هود كانت 400 سنة.

وأما من الناحية العلمية، فليس هناك أي دليل يقول باستحالة إطالة عمر الإنسان لمئات السنين، بل ثبت مخبرياً أنه يمكن للإنسان تطويل عمره دون حد إذا كان مراعياً لقواعد التغذية المثالية، ومحصناً بالأدوية والمعالجات الصحيحة ضد العوارض والأمراض. وقد وجد في زماننا أفراد عاشورا أكثر من 1 عاماً، وتجد دولاً متقدمة علمياً كاليابان يزيد معدل عمر سكانها عن الثمانين عاماً في الوقت الذي تجد فيه هذا المعدل لا يتجاوز الخمسين عاماً في بعض الدول الإفريقية.

ثالثاً: علامات الظهور:

يفهم من الروايات الكثيرة المتعلقة بالإمام المهدي المنتظر بوجود علامات تنبي بظهوره، وهي على ثلاثة أنواع كما يلي:

الأول: علامات كونية كالنداء أو الصيحة التي تنطلق من السماء، وخسف البيداء، والخسوف والكسوف في غير أوقاتهما وغير ذلك من الآيات السماوية أو الطبيعية.

الثاني: علامات متعلقة بشخصيات كخروج السفياني، والدجال، واليماني، والخراساني، وقتل عبد الله والنفس الزكية وغيرهم. وهذان النوعان من العلامات قد كثر الوضع في الروايات القائلة بهما، وما صح منها من الممكن أن يحمل تفسيرها على عدة وجوه.

الثالث: علامات اجتماعية كانتشار الظلم والجور، وتسلط الحياة الجاهلية وظهورها بعقائدها وحضارتها الساقطة، والتقدم العلمي الهائل، والحروب والفتن المدمرة وغياب الأمن والسلام، وكذلك الغلاء والتدهور الاقتصادي وانتشار المجاعات، وظهور الكذابين والدجالين المدعين للإصلاح، وبروز الحركات والقيادات والدعوات الإصلاحية التي تنادي بالتخلص من الجاهلية المدعومة بقوي المادة والعدوان.

القسم الرابع
آثار أزمة الخلافة والإمامة
على
شريعة الإسلام وواقع المسلمين

تقديم

قد يتساءل بعض القراء عن جدوى الخوض في أزمات وفتن عفى عليها الزمان، كأزمة الخلافة والإمامة بمنظورها التاريخي والتي لا تزيد تفرق المسلمين - في تقديرهم - إلا تفرقاً واختلافاً، في الوقت الذي ينبغي فيه أن يوجه الاهتمام أولاً إلى الأزمات الكثيرة التي تعانيها الأمة في هذا العصر.

ومع ما لهذا الرأي من وزن واعتبار، إلا أن هذا النوع من البحوث لا ينبغي النظر إليه على أنه منافاً لبحوث قضايا العصر ومشكلاته، بل إنه وباستقرائنا لالتباس فهم المسلمين لهذه المسألة في واقعها التشريعي، والتخبط بتطبيقها في واقعها التاريخي نجد أن لذلك الالتباس ولهذا التخبط آثاراً وترسبات عانت الأمة الإسلامية على مر تاريخها ولا زالت من شرورهما، مما يجعل من قضية الخلافة والإمامة أهم قضايا العصور كلها.

فالمسألة ليست مجرد أزمة تاريخية متعلقة بزعامة الناس في عصر من العصور، كالخلاف في الخيار بين شخصي علي وأبي بكر واستحقاقهما للخلافة، ولا هي كانت بسبب ما جرى بشأن ميراث فاطمة ولا قميص عثمان أو خروج عائشة، ولا هي لإثبات أو نفي بغي معاوية أو كفر يزيد. فلو كانت أزمة الخلافة المزمنة هي مجرد الخلاف حول هذه المسائل وأمثالها، لكانت فعلاً مما عفى عليه الزمان وذلك لإمكانية حصر هذه المسائل الخلافية في ظروفها الزمانية، المكانية، وفصلها عما يخص أي زمان أو مكان آخرين، ولكان الأجدر أن تبحث في دائرتها التاريخية ليس إلا.

وأما كون هذه الأزمة هي خلاف حول حقيقة التشريع الإسلامي فيما يخص قيادة المسلمين في كل عصر من العصور قبل أن يكون خلافاً حول

حوادثه وأشخاصه، فإن البحث حولها سيوضع في دائرة البحوث الدينية ذات الأهمية القصوى لعصرنا هذا.

وللتحقق من ذلك، نقدم فيما يلي ما رأيناه من تلك الترسبات والآثار لأزمة الخلافة والإمامة، وهي تسعة بيناها في ثلاثة فصول:

الأول: الآثار الأولية وهي

1 - انحراف الأمة وتعطيل المسيرة التغييرية والإصلاحية التي بدأها النبي (صلى الله عليه وآله وسلم).

2 - انتشار ظاهرة الوضع والدس في الحديث.

3 - تقديس الصحابة على حساب مكانة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)

الثاني: أخطر الآثار وهو

4 - تفتت الأمة وانقسام إسلامها إلى فرق ومذاهب.

الثالث: الآثار اللاحقة وهي

5 - التمويه على حقائق الأحداث التاريخية وتحريفها.

6 - تطرف بعض العاملين في الميدان الإسلامي. وتخبطهم وجمودهم.

7 - الخنوع والاستسلام لحكام الجور.

9 - شيوع الجهل والتخلف.

الفصل الأول
الآثار الأولية

1 - انحراف الأمة وتعطيل المسيرة التغييرية والإصلاحية التي بدأها النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)

المنعطف الخطير!

في اللحظات التي كان يفترض أن يتم فيها انتقال الرسالة الإسلامية من مرحلة النبوة إلى مرحلة الخلافة بطريقة تتناسب وعظمة هذه المناسبة، وبكل ما ينبغي أن يعني وداع الأمة لنبيها وقد اشتد به المرض في أيامه الأخيرة، فقد وجدنا بعضاً من كبار الصحابة يصفون النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) (بالهجران) وذلك عندما أمرهم بالتهيؤ حتى يكتب لهم لا يضلوا بعده أبداً. وقد كان من رد فعل النبي لذلك الوصف أن طردهم من مجلسه وهو غاضب عليهم (1).

وبعد هذه الحادثة بيومين يخرج النبي صلى الله عليه آله وسلم معصب الرأس وقد بدى الغضب في وجهه، ولكن هذه المرة بسبب تأخر الصحابة عن المسير في بعثة أسامة وطعنهم بإمارته بحجة لصغر سنه (2). وقد كان واضحاً أن السبب الحقيقي لتأخرهم وطعنهم هو حرصهم على مصير الخلافة في حال رحيل النبي المتوقع أثناء فترة غيابهم عن المدينة المنورة!

وبعد ذلك بيومين أيضاً، كان يوم الفراق الحزين وحيث كان الجسد الطاهر لا يزال ينتظر أن يوضع لراحته الأخيرة ظهر منهم ذلك التجاوز

---

(1) سيرى تفاصيل هذه الحادثة في الصفحات اللاحقة من هذا الكتاب.
(2) صحيح البخاري، كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب زيد، ج 5 ص 57.

المأساوي للنصوص الصريحة باستخلاف علي، وتنازعها بدلاً من ذلك غالبية المهاجرين والأنصار على أسس قبلية، وبكل ما أوتوا من أساليب المكر والتهديد معلنين بذلك البداية الرسمية لأزمة مريرة حول خلافة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وإمامة الأمة بعده. فهذه ثلاث مخالفات مؤلمة حدثت في الخمسة أيام الأخيرة للنبي والتي ما كانت لتحدث لولا حرص بعض الصحابة واجتهادهم حول مسألة الزعامة والإمارة، ومما ينذر بما ستؤول إليه أحوال الأمة بعد ذلك.

لماذا الحاجة إلى التغيير والإصلاح؟

إن الفترة القصيرة - نسبياً - التي قضاها النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) مع الصحابة لم تكن كافية لإعدادهم الإعداد الكامل الذي يؤهلهم لحمل الرسالة بأصالتها ونقاوتها إلى الأجيال اللاحقة، وخصوصاً إذا كان الأمر متعلقاً بإعداد أمة ترسخت فيها القيم الجاهلية، فضلاً عن أن غالبية الناس قد أعلنوا إسلامهم في أواخر حياة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، ولم يكن الإسلام ليتمكن في قلوبهم، بل إن أكثرهم تلفظ بالشهادتين استسلاماً لأمر أصبح واقعاً، إن لم يكن خوفاً وطمعاً وربما نفاقاً.

وفي الحقيقة إن تلك المخالفات التي ودع بها الصحابة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) والتي تعد تتويجاً للعديد من المواقف الأخرى التي خالفوه بها قبل ذلك، إن دلت على شئ فإنما تدل على عدم تغلغل الوعي الإيماني والرسالي، والفهم الفعال في النفوس الذي كان من شأنه أن يستأصل جذور المفاهيم الجاهلية السابقة بصورة نهائية.

وغالبية من يعترضون بحدة على هذا المنطق إنما يرجع اعتراضهم إلى ما حملوه من أفكار مبالغ فيها حول قدسية الصحابة فوق العادية. فهم بنظرهم ممن اصطفاهم الله ورسوله من بين خلقه اصطفاءاً، فصيغوا أعظم صياغة، وأعدوا أرفع إعداد ليكونوا وزراء نبيه وحملة الرسالة من بعده، أو كما

وصفهم أحد الكتاب المعاصرين بقوله: (.. فإذا سمعت منهم [الصحابة] فكأنك تسمعه من فم النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)) (1).

وعلى كل حال، فإن ذكرنا لمخالفات الصحابة لا يعني إنكار تضحيات الكثير من أجلائهم في مجال الجهاد، وفي سبيل العقيدة، ولكن هذه الأنوار كما يوضح الشهيد السيد / محمد باقر الصدر لم تكن نتيجة وضع معمق تعيشه الأمة في أبعادها الفكرية والنفسية، بل كانت نتيجة طاقة حرارية هائلة اكتسبتها هذه الأمة بإشعاع النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وكان طبيعياً أن تصبح طاقة الأمة بعده في تناقص مستمر، حال الشخص الذي يتزود من الطاقة الحرارية للشمس والنار، ثم يبتعد عنهما، فإن هذه الحرارة تتناقص عنده باستمرار، بخلاف الوعي الذي يستأصل جذور ما قبله، ومن طبيعته الثبات والاستقرار بل التعمق على مر الزمن (2).

وعلى كل، فمهما كان نوع هذا المحرك، الوعي أو الحماس والعاطفة، فقد استحق من أحسن عملاً من الصحابة الثناء من الله جل وعلا بقوله: (والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جنات تجري تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ذلك الفوز العظيم) [التوبة / 100]، وبقوله تعالى: (لقد رضى الله المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة) [الفتح / 18].

وينبغي الإشارة هنا على كل حال أن هاتين الآيتين وأمثالهما لا تضمنان الجنة لكل من هاجر وناصر أو بايع تحت الشجرة ما لم يكن ذلك مقروناً بعدم الأحداث والتبديل، ومشروطاً بحسن الخاتمة، والدليل على ذلك قوله تعالى:

(إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً) [الفتح / 10]

(1) عبد الفتاح أبو غدة، لمحات من تاريخ السنة وعلوم الحديث، ص 20.
(2) محمد باقر الصدر، أهل البيت: تعدد أدوار ووحدة، ص 88.

وكذلك قوله (صلى الله عليه وآله وسلم) في شهداء أحد: (هؤلاء أشهد عليهم. فقال بكر:

ألسنا بإخوانهم، أسلمنا كما أسلموا، وجاهدنا كما جاهدوا؟ فقال له النبي (صلى الله عليه وآله وسلم): بلى ولكن لا أدري ما تحدثوا بعدي) (1).

ومثل ذلك قوله: (صلى الله عليه وآله وسلم) (أنا فرطكم على الحوض من ورده شرب منه، ومن شرب منه لم يظمأ بعده أبداً، وليردن علي أقوام أعرفهم ويعرفوني ثم يحال بيني وبينهم. قال الراوي: لسمعته يزيد فيه، قال: إنهم مني (وفي رواية: إنهم أصحابي) (2) فيقال: إنك لا تدري ما بدلوا (وفي رواية:

أحدثوا) (3) بعدك. فأقول: سحقاً سحقاً لمن بدل بعدي) (4).

وفي الحديث الشريف أيضاً عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قال: (إن الرجل ليعمل الزمن الطويل بعمل أهل الجنة ثم يختم له عمله بعمل أهل النار، وأن الرجل ليعمل الزمن الطويل بعمل أهل النار ثم يختم له عمله بعمل أهل الجنة) (5).

وهكذا فإن تلك الطاقة الحرارية وذلك الوعي قد يتفاعلان ويتفقان في كثير من الأحيان في ظواهر مشتركة لدرجة يصعب التفريق بين ما تفعله الأمة انطلاقاً من وعي أو مجرد طاقة حرارية مؤقتة. إلا أنه وفي لحظات الانفعال الشديد وعند المنعطفات الحاسمة والمواقف الحرجة من تلك الحقبة الزمنية، كان يتبين بوضوح الفرق بين الوعي والطاقة الحرارية، وكما يمكن أن يتضح من الأمثلة التالية:

1 - تثاقلهم في الخروج إلى (بدر) وتفضيلهم بدلاً من ذلك أسر قافلة أبي سفيان وأخذ ما تحمله العير من بضائع، وقد أنزل الله سبحانه وتعالى بحقهم

---

(1) صحيح البخاري.
(2) صحيح البخاري، كتاب الفتن، باب واتقوا فتنة لا تصيبين الذين ظلموا منكم، ج 9 ص 144.
(3) المصدر السابق.
(4) صحيح البخاري.
(5) صحيح مسلم، كتاب القدر، ج 5 ص 504.

قوله تعالى: (ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم * لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم) [الأنفال / 67 - 68].

ومن المعلوم أن الله سبحانه وتعالى قد عوض تثاقل بعضهم وقلة عدد المقاتلين المخلصين بإنزال الملائكة ليقاتلوا نصرة للحق واستجابة لدعاء النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) عندما تضرع إلى الباري: (اللهم إن تهلك هذه العصابة فلن تعبد بعد اليوم في الأرض، اللهم انجزني ما وعدتني).

2 - مخالفة غالبية الصحابة للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في موقعة أحد، حيث أمرهم بعدم مغادرة مواقعهم (الإستراتيجية) التي عينهم فيها مهما تغير الحال، إلا أنهم تسرعوا بترك تلك المواقع طمعاً وحرصاً على جمع الغنائم. مما أدى إلى هزيمة المسلمين.

ويروي البخاري في صحيحه: (جعل النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) على الرجالة يوم أحد عبد الله بن جبير، وأقبلوا منهزمين، فذاك إذ يدعوهم الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) في أخراهم، ولم يبق مع النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) غير اثني عشر رجلاً) (1). وفي رواية أخرى: (... فإنما كان يوم أحد وانكشف المسلمون. قال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم):

اللهم إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء، يعني أصحابه) (2).

3 - فزعهم يوم الخندق وخوفهم من مبارزة عمرو: حيث ذعر المسلمون في ذلك اليوم أيما ذعر حينما حوطوا بعشرة آلاف من المشركين، أو كما يصفهم جل وعلا بقوله: (يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحاً وجنودا لم تروها وكان الله بما تعملون بصيراً * إذ جاؤكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت

---

(1) صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب قوله (والرسول يدعوكم في أخراكم)، ج 6 ص 67.
(2) المصدر نفسه، كتاب الجهاد، باب قوله - من المؤمنين رجال صدقوا -، ج 4 ص 47.

القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا * هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديداً) [الأحزاب / 9 - 11].

وكان من أخطر المواقف التي امتحن بها جموع الصحابة في ذلك اليوم عندما خرج لهم أقوى صناديد قريش عمرو بن ود العامري وتحداهم للمبارزة، وراح يصول ويجول ويتوعد المسلمين ويتفاخر عليهم ببطولته.

فلم يجرأ للخروج إليه سوى علي عليه السلام قائلاً: أنا له يا رسول الله. ولكن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) أجلسه معطياً الفرصة لغيره. وعندما رأى عمرو خوف الصحابة أخذ يوبخ المسلمين ويسخر منهم قائلاً: أين جنتكم التي تزعمون أن من قتل منكم يدخلها، أفلا تبرزون لي رجلاً؟ وعندما لم يجبه أحد، كرر علي عليه السلام محاولته للخروج إليه حتى سمح النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) له بذلك: المرة الثالثة وتمكن منه وقتله. وقد استحق علي عليه السلام لذلك قول النبي (صلى الله عليه وآله وسلم): (لمبارزة علي بن أبي طالب لعمرو بن ود أفضل من عمل أمتي يوم القيامة). كما جاء ذلك في: (المستدرك على الصحيحين للحاكم النيسابوري ج 3 ص 32).

4 - وكان فرارهم يوم (حنين) أخزى وأمر، وقد نزل القرآن يؤنبهم:

(ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين * ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين) [التوبة / 25 - 26].

5 - ترك حاضري المسجد من الصحابة - ما عدا اثني عشر منهم - للرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وهو يخطب يوم الجمعة بعد سماعهم بوصول قافلة من الشام. ويروي البخاري الحادثة عن جابر بن عبد الله كما يلي: (أقبلت عير يوم الجمعة ونحن مع النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) - وفي رواية: بينما نحن نصلي مع النبي إذ أقبلت عير تحمل طعاماً (1) فثار الناس، وفي رواية: فالتفتوا إليها حتى ما

---

(1) صحيح البخاري، كتاب الإيمان، ج 6 ص 28.

بقي مع النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) إلا اثني عشر رجلاً [1] - فأنزل الله [يؤنبهم]: (وإذا رأوا تجارة أو لهوا انفضوا إليها وتركوك قائماً قل ما عند الله خير من اللهو ومن التجارة والله خير الرازقين) [الجمعة / 11] [2].

6 - ظهور العصبية والحمية الجاهلية من بعض الصحابة بحضور النبي صلى الله على وآله وسلم، حيث يروي البخاري عن جابر بن عبد الله قال: (كنا في غزاة فكسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار. فقال الأنصار: يا للأنصار.

وقال المهاجري: يا للمهاجرين. فسمع ذلك النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فقال: ما بال دعوى جاهلية) [3]. وروت عائشة حادثة مشابهة بين الأوس والخزرج والرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) يخطب على المنبر: (... فقام سعد بن معاذ فقال: يا رسول الله، أنا والله أعذرك منه إن كان من الأوس ضربنا عنقه، وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا فيه أمرك.

فقام سعد بن عبادة وهو سيد الخزرج، وكان قبل ذلك رجلاً صالحاً لكن احتملته الحمية، فقال: كذبت لعمر الله، والله لنقتلنه، فإنك منافق تجادل عن المنافقين. فثار الحيان الأوس والخزرج حتى هموا، ورسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) على المنبر، فنزل فخفضهم حتى سكتوا وسكت) [4].

7 - استشراء ظاهرة النفاق: والمنافقون هم الذين كانوا يتظاهرون بالإيمان ويخفون الكفر، وقد نزلت سورة التوبة بكاملها لفضحهم.

والمنافقون الذين عدهم المؤرخون كانوا أقل بكثير من عددهم الواقعي نظراً لتخفيهم حسب ما يتطلبه نفاقهم بطبيعة الحال وكما في قوله تعالى: (وممن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم سنعذبهم مرتين ثم يردون إلى عذاب عظيم * وآخرون اعترفوا

---

(1) المصدر نفسه.
(2) صحيح البخاري، كتاب التفسير، ج 6 ص 391.
(3) المصدر نفسه، باب قوله - سواء عليهم استغفرت لهم، ج 6 ص 397.
(4) المصدر نفسه، كتاب الشهادات، ج 3 ص 508.

بذنوبهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً عسى الله أن يتوب عليهم إن الله غفور رحيم) [التوبة / 101 - 102].

8 - فضح القرآن لنفاق الصحابي ثعلبة حيث كان يلح في سؤال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ليدعو الله له برزقه بالمال الكثير، فقال له النبي (صلى الله عليه وآله وسلم): ويحك يا ثعلبة، قليل تشكره خير من كثير لا تطيقه. فقال ثعلبة: والذي بعثك بالحق لئن دعوت الله فيرزقني مالاً لأعطين كل ذي حق حقه. فقال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم):

اللهم ارزق ثعلبة مالاً. فرزقه الله ونماه له وعندما طلب منه الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) زكاة أمواله بخل ثعلبة وامتنع. فقال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم): هلك ثعلبة. ونزل بحقه قوله تعالى: (ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين * فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون * فأعقبهم نفاقاً في قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه) [التوبة / 75 - 77].

9 - فضح القرآن لفسق الصحابي الوليد بن عقبة، والذي ولاه عثمان بن عفان أيام خلافته ولاية الكوفة: (يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتهم نادمين) [الحجرات / 6].

وهو من الذين أسلموا بعد فتح مكة، وكلفه النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) جباية صدقات بني المصطلق، ولكنه عندما وصل أطلال هذه القبيلة خاف لسبب من الأسباب، فرجع إلى المدينة دون أن يواجه القوم، وقال للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم): إن بني المصطلق رفضوا دفع الزكاة وكادوا يقتلونني. فغضب النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وأرسل لهم جيشاً لقتالهم، وكادت أن تقع واقعة كبرى لولا أن بني المصطلق علموا بمكيدة ابن عقبة في الوقت المناسب فجاءوا إلى المدينة وبرءوا ساحتهم أمام النبي (صلى الله عليه وآله وسلم). فنزلت الآية تفضح أمر الوليد.

10 - وكان من الصحابة أيضاً رجلاً يدعى حرقوص بن زهير الملقب بذي الثدية، والذي كان يتظاهر بكثرة التعبد والخشوع، فيعجب الصحابة بتنسكه القشري، ولكن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) عندما رآه قال أن في وجهه سعفة من الشيطان

(وهذا الرجل أصبح فيما بعد رأس فرقة الخوارج المارقين الذين حاربوا الإمام علي أيام خلافته) وكان الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) بما أعطاه الله جل وعلا من بصيرة يعلم ما سيفعله هذا الرجل فأراد استئصال فساده من حينه، وأمر بقتله. فتطوع أبو بكر للمهمة، إلا أنه عندما وجده يصلي رجع. ثم تطوع عمر لقتله، فلما وصله وجده ساجداً فرجع كسابقه حيث لم يهز عليهما قتل رجل يصلي: فأرسل النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) علياً ليقتله، ولكنه عندما وصل مكان مصلاه لم يدركه [1]. ومما يجدر ذكره أن هذا الرجل قد قتل فعلاً في موقعة النهروان في عهد خلافة علي، ولكن بعد أن كان من فتنته وفساده ما كان.

11 - ومن الصحابة أيضاً من كان يعترض على النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) كاعتراض عمر بن الخطاب بشأن صلح الحديبية كما يروي الحادثة مسلم في صحيحه:

(قال عمر لرسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): ألسنا على حق وهم على الباطل؟ قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): بلى. قال: أليس قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار؟ قال الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم): بلى. قال عمر: ففيم نعطي الدنية في ديننا ونرجع، ولما يحكم الله بيننا وبينهم؟ فقال الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم): يا ابن الخطاب، إني رسول الله ولن يضيعني الله أبداً - وفي رواية البخاري كان قوله (صلى الله عليه وآله وسلم): إني رسول الله ولست أعصيه وهو ناصري [2] - فانطلق عمر فلم يصبر متغيظاً، فأتى أبا بكر فقال: يا أبا بكر، ألسنا على حق وهم على باطل؟ قال: بلى، قال: أليس قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار؟ قال: بلى. قال عمر: ففيم نعطي الدنية في ديننا ونرجع ولما يحكم الله بيننا وبينهم؟ فقال أبو بكر: يا ابن الخطاب إنه رسول الله ولن يضيعه الله أبداً) [3].

---

(1) ابن حجر، الإصابة في تمييز الصحابة، ج 1 ص 484.
(2) صحيح البخاري، كتاب الشروط.
(3) صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، ج 4.

12 - ومن ذلك تبرؤ الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) من فعل خالد بن الوليد عندما أرسله في إحدى البعثات وتسرع بقتل العديد من الأبرياء، من أن بعض مرافقيه قد نبهوه للشبهة التي قتلهم بسببها. وقد حدى قتله لهم لغضب النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وتبرؤه من فعله عندما قال: (اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد) مرتين (1).

13 - ومن الصحابة كان الطلقاء كأبي سفيان الذي لم يدخل الإسلام إلا استسلاماً لأمر أصبح واقعاً ليس له خيار فيه وقد عبر بنفسه عن مدى تغلغل الإيمان في قلبه بقوله: (أدخل الله قلبي الإسلام وأنا كاره) (2). ولكن أين هو من قوله تعالى: (أنلزمكموها وأنتم لها كارهون) [هود / 28]!!

وأما ابنه معاوية فقد بعث إليه النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ابن عباس يدعوه ليكتب له فوجده يأكل - إلى ثلاث مرات - فقال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم): (لا أشبع الله بطنه) (3). وفي رواية أخرى في صحيح مسلم: قال فيه النبي (صلى الله عليه وآله وسلم): (أما معاوية فصعلوك لا مال له) (4). وفي مسند أحمد قال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في معاوية وعمرو بن العاص:

(اللهم أركسهما في الفتنة ركساً ودعهما إلى النار دعا) (5).

فهذه الأمثلة وغيرها هي التي جعلت النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) يحذر أصحابه قائلاً:

(لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض) (6) وهي كافية لإثبات عدم تغلغل الوعي الإيماني في نفوس الصحابة للدرجة التي تؤهلهم للصمود أمام الامتحانات والفتن التالية، والتي لا بد وأن تكون أكثر شدة وحرج بعد

---

(1) صحيح البخاري، كتاب المغازي، ج 5 ص 440.
(2) المصدر نفسه، كتاب الجهاد، ج 4 ص 122.
(3) صحيح مسلم، كتاب البر والصدقة، باب من لعنة النبي، ج 5 ص 462.
(4) المصدر نفسه، كتاب الطلاق، باب المطلقة البائن، ج 3 ص 693.
(5) مسند أحمد، ج 4 ص 421، ط دار إحياء التراث.
(6) صحيح البخاري كتاب الحج، باب الخطبة أيام منى، ج 2 ص 462.

مفارقتهم لرسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وهو مصدر تلك الطاقة الحرارية التي ظهرت آثارها في كثير من تضحياتهم أثناء حياته (صلى الله عليه وآله وسلم) وبعدها.

وعلى كل، فهذه مسألة قد تبدو طبيعية، ولا ينبغي تحميل أولئك أكثر مما يتحملوا، فالمسيرة التغييرية والإصلاحية التي بدأت بذلك الجيل القريب عهداً بالجاهلية - كما بينا سابقا - لا يمكن أن تتم في تلك الفترة القصيرة التي قضاها النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بينهم، بل أنه يمكن القول أن الكثير من تصرفات ذلك الجيل والتي عرضنا أمثلة منها لم تكن مؤشراً على وجود انحراف بقدر ما كانت مؤشراً إلى عدم زوال ترسبات الجاهلية بكاملها وعدم اكتمال تربيتهم الإيمانية والرسالية.

وقد نشأ اعتراض الكثيرين على هذا المنطق من افتراضهم أن الاعتراف بنقائص الصحابة ومخالفاتهم يعد اعترافاً بفشل النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ونقصاً في رسالة الإسلام. والدليل الحاسم على الخطأ الفادح الذي وقع فيه أصحاب هذا الافتراض هو أن الله سبحانه وتعالى قد حدد نجاح مهمة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بإتمام تبليغ الرسالة ليس إلا، وهذا يظهر بوضوح من قوله تعالى: (فإن أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظاً إن عليك إلا البلاغ) [الشورى / 48]، وقوله تعالى: (يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً) [الأحزاب / 45]، وقوله تعالى:

(فإن توليتم فاعلموا أنما على رسولنا البلاغ المبين) [المائدة / 92]، وقوله تعالى: (إنما أنت منذر ولكل قوم هاد) [الرعد / 7].

وهذا يفسر ضرورة توفر خلفاء النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) على مواصفات خاصة تؤهلهم بحق لأن يكونوا (هداة) لتستمر على أيديهم عملية التغيير والإصلاح: (أفمن يهدي إلى الحق أحق أن يتبع أمن لا يهدي) [يونس / 35]. ولكن أنى يكون ذلك وقد أبعد هؤلاء الهداة عن مواقعهم التي عينهم الله سبحانه وتعالى لها، واستبدلوا بمن هم ليسوا أهلاً لتحمل أعباء مسؤولية كهذه حتى وصل الأمر لأن يتسنم قيادة الأمة من وصفهم النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بالطلقاء من المنافقين والقتلة الفجرة!

شواهد على تدرج الانحراف بعد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)

ومن الشواهد التي تشير إلى تضاؤل ذلك التوهج العاطفي الحار عند الصحابة بعد وفاة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، بل وانطفائه تماما في مواقع عديدة حتى تحول في بعضها إلى سواد وأداة تحاول إطفاء ما تبقى من نور الرسالة:

1 - مجريات السقيفة وكل ما فيها من تبادل الشتائم والتهديد وظهور النعرات القبلية مجدداً بين المهاجرين والأنصار من جهة، وبين قبائل كل منهما من جهة أخرى، علاوة على ظهور حب الجاه والزعامة في بعض الصحابة ذوي المكانة والمرتبة. ولو كان تصرف أهل السقيفة إسلامياً وليس قبلياً جاهلياً لما تخلف علي ومعه ستة عشر من أجلاء الصحابة عن البيعة لقائد الأمة الجديد (1).

2 - ظهور الغطرسة من جديد في خالد بن الوليد عندما أقدم على سلوك بعيد كل البعد عن تعاليم دين الإسلام وأخلاقه وإنسانيته، وذلك بقتله للمسلم مالك بن نويرة وأصحابه وما فعله بزوجته (2)، كل ذلك يظهر الطبيعة الجاهلية التي ما زالت مترسخة في نفوس بعضهم، حتى إن عمر بن الخطاب طالب بإقامة حدي القتل والزنا على خالد والذي زعم بعضهم أنه سيف الله المسلول (!!)، وهو الذي كان النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قد قال فيه: (اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد).

3 - تعيين الخليفة أبي بكر ليزيد بن أبي سفيان عاملاً على الشام مقابل تأييد بني أمية لخلافته، حيث تم بموجب هذه الاتفاقية كما يذكر المؤرخون أن تكون الشام من حصة آل أبي سفيان على الدوام، الأمر الذي ألزم الخليفة عمر لاحقاً ليس فقط أن يعين معاوية خلفاً لأخيه يزيد بعد موته، بل والتهاون

(1) راجع تفاصيل ذلك في القسم، الفصل الأول من هذا الكتاب.
(2) أيضاً.

معه أيضاً، خلافا لشدته وحزمه مع غيره من العمال والولاة. ومما يجدر ذكره أن أبا سفيان كان قد حاول تقديم (خدماته) أولاً لعلي عشية صراع السقيفة قائلا له أكثر من مرة: (إن شئت لأملأنها عليهم خيلاً ورجالاً ولأسدنها عليهم من أقطارها) (1)، ولكن الإمام علياً رفض هذا النوع من المساندة، لعلمه أن ما كان يسعى له أبو سفيان هو الدخول إلى دائرة الأضواء وما فيها من نفوذ وسلطة من أي نافذة ممكنة، فضلاً عن محاولته إذكاء نار الفتة والصراع بين المسلمين لأنه سيكون المستفيد الأول من ذلك. وعلى كل، فقد وجد أبو سفيان ومن معه من الطلقاء نافذتهم هذه بتعيين ابنه يزيد عاملاً على الشام، فأصبحت هذه البقعة قاعدتهم التي إنطلقوا منها لتحقيق شهوتهم في الحكم وأحلامهم الجاهلية في الزعامة والملك.

4 - وأما الخليفة عمر فقد امتد حزمه وخشونته لدرجة أعطى فيها لنفسه الصلاحية بالاجتهاد في أحكام الشريعة، مع أن بعضها كان على حساب نصوص الكتاب والسنة.

أوليس هو الذي كان يعترض على النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بصلح الحديبية، وبالصلاة على أحد المنافقين، وخالفه حينما طلب منه أن يستر إسلامه إلى أن ختم شريط حياته مع النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بوداعه له قائلاً بحقه (إن الرسول يهجر وحسبنا كتاب الله)؟!

وهكذا كان، فقد منع تدوين أحاديث النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أو حتى التحدث بها، فحرق ما كان قد كتب منها، وسجن عبد الله بن مسعود وضرب أبا هريرة لتحدثهما بها وقال: (... وأخلوا الرواية عن رسول الله... والله لا أشوب كتاب الله بشئ)!.

أو ليس هو القائل أيضاً: (متعتان على عهد رسول الله وأنا (!) أنهى عنهما) ففي المتعة الأولى (النساء) قال ابنه عبد الله لأحد الناس: (أرأيت أن

---

(1) خالد محمد خالد، خلفاء الرسول، ص 418.

كان أبي ينهى عنها وصنعها رسول الله، تترك السنة وتتبع قول أبي؟). وفي المتعة الثانية (الحج) قال الإمام علي عليه السلام لعثمان: (ما تريد إلا أن تنهى عن أمر فعله رسول الله... ما كنت لأدع السنة لقول أحد).

أو ليس هو القائل أيضاً بشأن تشريعه لصلاة التراويح: (نعمت البدعة هذه!) (1).

وما فارق الدنيا حتى أجبر الناس على العمل بكل البدع التي أحدثها أو قل (الاجتهادات) التي أدخلها والمميزة بشدة التعسير والتزمت خلافا لمرونة الشريعة وسماحتها، وجمع كل ذلك إلى ما اجتهده أبو بكر، وسميت مجتمعة سيرة أو سنة الشيخين، وقد أوجب على المسلمين العمل بها إلى جانب العمل بكتاب الله وسنة نبيه. بل أنه جعل القبول بهذا التثليث شرطاً لكل من يبايع له خليفة بعده.

5 - وهكذا جاء عثمان بن عفان، وهو الصحابي العديم الخبرة والدراية بشؤون السياسة والإدارة، فضلاً عن ضعفه بتحمل أعبائهما، وجهله بأحكام الشريعة، وقد بويع له على يد عبد الرحمن بن عوف رئيس مجلس الشورى الذي كان قد عينه عمر قائلاً: (أبايع على كتاب الله وسنة نبيه وسنة الخليفتين من بعده).

وليته سار على سيرة الشيخين، فقد سارت خلافته (غفر الله له) على سيرة الجاهلية وسننها أكثر من أي سنن أخرى، وقد دخل أبناء قبيلته عليه بعد مبايعته مهللين: (يا بني أمية تلقفوها تلقف الكرة... ولتصيرن إلى صبيانكم وراثة... فما هناك جنة ولا نار)!!.

ثم قام عثمان بعزل فضلاء الصحابة الذين عينهم عمر، وآذى بعضهم شر إيذاء، وعين بدلاً منهم أقاربه وبني عشيرته، وقد قال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) محذراً:

---

(1) راجع قسم 2 فصل من هذا الكتاب.

(من ولي من أمور المسلمين شيئاً، فأمر عليهم أحداً محاباة فعليه لعنة الله لا يقبل منه حرفاً ولا عدلاً حتى يدخله جهنم) (1).

ويقول المودودي في انتهاكات عثمان: (لا شك أن هذا الجانب من سياسة عثمان (رض) كان خطأ، والخطأ خطأ على أي حال أياً كان فاعله. أما محاولة إثبات صحته باصطناع الكلام لغواً وعبثاً فهو أمر لا يقتضيه العقل ولا يرضاه الإنصاف، كما أن الدين لا يطالبنا بعدم الاعتراف بخطأ صحابي من الصحابة) (2).

6 - وعندما قام الإمام علي عليه السلام خليفة وأراد أن يحملهم على الكتاب والسنة الأصيلة، ثاروا عليه وحاربوه حسداً وبغياً.

وقد عد المودودي خروج معاوية وعائشة على الإمام علي مطالبين بدم عثمان من فعل الجاهلية بقوله: (وموقفهما من الناحية القانونية يمكن استصوابه بأي حال الأحوال، فذلك العصر لم يكن عصر النظام القبلي المعهود عن الجاهلية حتى يطالب بدم المقتول فيه من شاء وكيف شاء، ويستخدم في ذلك ما يروق من طرق وأساليب، وإنما كان هناك حكومة) (3). ثم يضيف مؤكداً أن كل ذلك شبيهاً بالفوضى التي كانت سائدة في الجاهلية قبل الإسلام.

فنتج عن خروج عائشة إهراق دم عشرة آلاف مسلم، واضطراب نظام الدولة وعمتها الفوضى، فلعمري أن هذا لا يمكن اعتباره إجراءاً شرعياً لا في نظر قانون الله وشرعه فقط، بل حتى في نظر أي قانون من القوانين الدنيوية) (4).

حتى أن أمير الشعراء أحمد شوقي وصف كراهية عائشة للإمام بقصيدة نقتطف منها الأبيات التالية:

---

(1) مسند أحمد، ج 1 ص 6.
(2) أبو الأعلى المودودي،، الخلافة والملك، ص 71.
(3) المصدر السابق، ص 77.
(4) المصدر نفسه، ص 78.

يا جبلاً تأبى الجبال ما حمل * ماذا رمت عليك ربة الجمل
أثأر عثمان الذي شجاها * أم غصة لم ينتزع شجاها
ذلك فتق لم يكن بالبال * كيد النساء موهن الجبال
وإن أم المؤمنين لامرأة * وإن تلك الطاهرة المبرأة
أخرجها من كنها وسنها * ما لم يزل طول المدى من ضغنها

ويجز الشيخ محمد الغزالي على ترسخ وجود مثل تلك الحمية الجاهلية في سلوك معاوية بقوله: (وجمهور الفقهاء والمؤرخين والدعاة يؤكد على أن علي بن أبي طالب كان إمام حق، وأن معاوية بن أبي سفيان كان يمثل نفسه وعصبيته في خروجه على علي) (1).

وقد اشتمل مسلسل الانحراف هذا الذي أصاب الأمة من كانوا في صف الإمام علي أيضاً، وقد عبر عما أصابه في قلبه تجاههم قبل مفارقته لهم:

(قبحكم الله، لقد ملأتم قلبي قيحاً، وشحنتم صدري غيظاً، وأفسدتم علي رأيي بالعصيان والخذلان) (2).

7 - ثم جاء النظام الأموي وتوسع في العبث بدين الإسلام وترسيخ نمط الحياة الجاهلية، وكانت له اليد الطولى في تدعيم أركان التفرق والتمذهب لأغراض سياسية فمعاوية يعلم أنه أخذ الخلافة بغياً وقهراً من صاحبها الشرعي علي وابنه الحسن من بعده، وقام بتسمية حاشيته ومن وافقه من عامة المسلمين بأهل السنة والجماعة، في الوقت ذات أطلق على معارضيه من شيعة أهل البيت عليه السلام بالرافضة، ثم جعل سب الإمام علي عليه السلام على المنابر (سنة) واجبة. فكيف يتصور اعتبار معاوية خليفة شرعياً لرسول الله وبأمره كان يسب الإمام على ألف منبر بالجمع والأعياد على طول الدولة الإسلامية وعرضها؟

(1) محمد الغزالي، مئة سؤال وجواب، ج 2، ص 353.
(2) راجع قسم 2 فصل 4 من هذا الكتاب.

ولقد بقي تطبيق هذه) السنة) مستمراً زمن الخلفاء الأمويين حتى منعها الخليفة عمر بن عبد العزيز.

8 - ولقد توج (أمير المؤمنين) يزيد مسلسل الأحداث والتبديل في سنة محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) بإرجاع الأمة تماماً إلى ما كانت عليه قبل الإسلام بقتله الإمام الحسين ومن معه من أهل بيت النبي والذين جعل الله سبحانه وتعالى التمسك بهم واتباعهم شرطاً للهداية والنجاة. فأين يكون موقع يزيد ومن بايعه أو سكت على شنيع فعله من شريعة الإسلام؟

ويمكن تلخيص موقف يزيد والحال التي وصلت إليه خلافة المسلمين بأبيات شعرية أنشدها يزيد نفسه:

لعبت هاشم بالملك فلا * خبر جاء ولا وحي نزل
لست من خندق إن لم أنتقم * من بني أحمد ما كان فعل!!

وبأبياته التي أنشدها عندما جئ بنساء آل البيت سبايا وبرؤوس شهداء كربلاء معلقة على رؤوس الرماح:

لما بدت تلك الحمول وأشرقت * تلك الرؤوس على شفا جيرون
نعب الغراب فقلت صح أو لا تصح * فلقد قضيت من الرسول ديوني!!

فيا له من إسلام يقتضي فيه الخليفة ديونه من النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بمعنى ثأره لقتل أجداده في بدر بالانتقام من أحفاد النبي (بني أحمد) في كربلاء!

9 - ولم يختلف الوضع كثيراً فيمن جاء من الخلفاء بعد يزيد، فهذا عبد الملك بن مروان عند تسلم الخلافة وكان في يده مصحف فأطبقه قائلاً: (هذا فراق بيني وبينك! (1)، وأما ابنه الوليد فإنه قام بتمزيق المصحف الشريف بسهام وذلك عندما حاول استفتاح آياته، وقد خيبت ظنه وفضحت جبروته وعناده كما هو معروف من هذه الحادثة.

---

(1) راجع قسم 2 فصل 8 من هذا الكتاب.

وهذه الحالة الجاهلية التي عاشها المسلمون في عهود معاوية ويزيد والمروانيين قد امتدت في الحقيقة لتشعل عهود بقية الخلفاء الأمويين ومن جاء بعدهم من الملوك والسلاطين الذين تسنموا منصب الخلافة الإسلامية على مر تاريخها.

ويحلو لبعضهم الدفاع عن هؤلاء الخلفاء بسبب تحقيقهم لفتوحات واسعة في الشرق والغرب ونشر الإسلام في هذه المناطق. ولكننا نسأل: ماذا كان هدف هؤلاء الملوك والسلاطين من تلك الفتوحات؟ فباستثناء القلة القليلة منها لا سيما في بدايتها، فإن الفتوحات كانت تعني عند أولئك الحكام مجرد وسيلة لتوسيع رقعة الملك وتكثير الخراج. وكانت غاياتهم هذه تتضح من حالة البذخ والإسراف في اللهو والملذات التي كانوا يعيشونها، وما ظهر من تأثير ذلك في نشر القيم الفاسدة والمنحرفة بين عامة المسلمين.

وحتى ذلك الخليفة - على سبيل المثال - الذي قيل أنه كان يحج عاماً ويغزو عاماً، كان (بيوت الحريم) بقصوره العديدة ما لا يقل عن 2000 ألفي جارية جمعها من مختلف أقاليم إمبراطوريته الواسعة، فلو أريد من تلك الفتوحات وجه الله وما يعني ذلك من ضرورة نشر العدالة والقيم الإسلامية، لكان الأولى بالخلفاء أنفسهم أن يجسدوا تلك المعاني والقيم في سلوكهم، وكيف يكون ذلك، وقد كان كثير منهم لا يتوانى عن قتل أبيه أو أخيه من أجل الوصول إلى سدة الحكم. فالرشيد مثلاً لم يكتف بقتل أخيه الخليفة السابق، بل قام أيضاً بحبس الإمام موسى بن جعفر (الكاظم) المستحق الحقيقي لمنصب الخلافة!؟ بل أنه سجن أيضاً أبا حنيفة النعمان، وهو أحد أئمة المذاهب الأربعة لمجرد تعاطفه مع أهل البيت عليه السلام ورفضه استلام منصب القضاء في عهده.

ويعلق الشهيد سيد قطب بشأن تلك الفتوحات وما جرى على الإسلام على يد خلفاء المسلمين بقوله: (لقد كان انتصار معاوية هو أكبر كارثة دهمت

روح الإسلام التي لم تتمكن بعد من النفوس، ولو قدر لعلي أن ينتصر، لكان انتصاره فوزاً لروح الإسلام الحقيقية، الروح الخليقة العادلة المترفعة التي لا تستخدم الأسلحة القذرة في النضال، ولكن انهزام هذه الروح ولم يمض عليها نصف قرن كامل، وقد قضي عليها فلم تقم لها قائمة بعد - إلا سنوات على يد عمر بن عبد العزيز - ثم انطفأ ذلك السراج، وبقيت الشكليات الظاهرية من روح الإسلام الحقيقية. قد تكون رقعة الإسلام قد امتدت على يدي معاوية ومن جاء بعده، ولكن روح الإسلام قد تقلصت، وهزمت، بل انطفأت، فإن يهش إنسان لهزيمة الروح الإسلامية الحقيقية في مهدها وانطفاء شعلتها بقيام ذلك الملك العضوض، فتلك غلطة نفسية وخلقية لا شك فيها) (1).

ثم يبدد الشهيد قطب أوهام المتعلقين بأهداب التعصب المذهبي الأعمى في دفاعهم عن معاوية بقوله: (وبعد، فلست (شيعياً) لأقرر هذا الذي أقول، إنما أنظر إلى المسألة من جانبها الروحي الخلقي، ولن يحتاج الإنسان أن يكون شيعياً لينتصر للخلق الفاضل المترفع عن الوصولية الهابطة المتدنية، ولينتصر لعلي بن أبي طالب على معاوية وعمرو، إنما ذلك انتصار للترفع والنظافة والاستقامة...) (2).

2 - انتشار ظاهرة الوضع والدس في الحديث

العامل الأساسي في تولد هذه الظاهرة

الحديث الموضوع هو الكلام المختلق والمنسوب إلى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) كذباً وزوراً وبهتاناً. وبالرغم أنه كانت هناك أسباب ودوافع عديدة لظهور وضع الحديث والكذب على النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، إلا أنه لا يهمنا منها هنا سوى العامل السياسي وما يتضمن من اختلافات وصراعات حول زعامة الأمة الإسلامية، وإبراز دوره في التأثير على هذه الظاهرة.

(1) سعيد أيوب، معالم الفتن ج 2 ص 458 - 459، نقلاً عن سيد قطب، كتب وشخصيات.

ويتفق جميع من تطرق إلى هذه المسألة أن الدوافع السياسية كانت أخطر أسباب ظهور ظاهرة الوضع، ولكنه من غير المقبول أن يرمى هذا الإثم - كما يزعم بعضهم - على فئة معينة من المسلمين دون غيرها، وتبرئة الجيل الأول منه براءة تامة وكأنهم كانوا من المعصومين الذين يستحيل عليهم الكذب والخطيئة. فهذا عبد الفتاح أبو غدة على سبيل المثال يعزي ظهور وضع الحديث إلى الظروف التي رافقت مقتل عثمان حيث (ذرت الفتن قرنها، وبدأت الأهواء تأخذ إلى النفوس الضعيفة طريقها، وظهر في تصرف بعض الناس الذين لم يخطوا بصحبة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ومشاهدته ألوان من التعصب، ودبت الخلافات والتفرقة في الصفوف، وقامت الفرق والمبتدعة بالتحزب والتأويل) (1).

فهل أن العصر الذي سبق مقتل عثمان وهو عصر الصحابة كان بريئاً من هذه الآفة؟

وهل أن من طال به العمر من الصحابة بعد مقتل عثمان لا يحتمل عليه الكذب والوضع؟

وما بيناه من شواهد سابقة فيه إجابة كافية على هذا التساؤل، فمخالفة الصحابة لرسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بالقول والعمل، أثناء حياته وبعده، وسبهم لبعضهم بعضا، بل وتهديدهم لبعضهم بالقتل، وظهور النزعات القبلية بينهم، وسل السيوف في وجوه بعضهم بعضهم في الجمل وصفين، وما تبع ذلك كله من مآسي فيه ما يفند ذلك الزعم.

ومن أمثلة ضلوع المهاجرين والأنصار بوضع الحديث هو رواية كل منهم عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ما يشير إلى علو منزلتهم وخصهم ببعض الامتيازات، فكما أنهم وضعوا الأحاديث في فضل المهاجرين والقرشيين كالذي روي عن أبي هريرة أن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قال: (الناس تبع لقريش، وأن هذا الأمر فيهم ما بقي

(1) عبد الفتاح أبو غدة، لمحات من تاريخ السنة وعلوم الحديث، ص 46 - 47.

منهم اثنان) (1).

وفي رواية أخرى: (الناس تبع لقريش في الخير والشر) (2).

وعن أبي هريرة: (الناس تبع لقريش في هذا الشأن مسلمهم لمسلمهم وكافرهم لكافرهم) (3). فقام بعض الأنصار في مقابل هذه الروايات بوضع أحاديث في فضلهم ونسبوها إلى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم). من ذلك: (الأنصار لا يحبهم إلا مؤمن ولا يبغضهم إلا منافق، فمن أحبهم أحبه الله، ومن أبغضهم أبغضه الله) (4).

ومن الأمثلة التي كانت لها علاقة بالصراع السياسي الذي جرى بين المهاجرين والأنصار في السقيفة ما جرى لسعد بن عبادة زعيم الأنصار، والذي أخرج إلى بلاد الشام (وقيل أنه خرج لكراهته عمر بن الخطاب عندما صار خليفة) حيث قتل هناك بتدبير مدبر. إلا أن قاتليه أشاعوا بأنه قتل على يد الجن (!) وأذاعوا على لسان جني أنه قال: (نحن قتلنا سيد الخزرج سعد بن عبادة ورميناه بسهمين فلم نخطئ فؤاده). وبالفعل فقد انتشرت خرافة قتل الجن لسعد، ودونها رجال الحديث والتاريخ فيما دونوه من حوادث ذلك العصر (5).

وقد كان للحكام الأمويين الدور الأكبر في تشجيع وضع الحديث وتزويره، حيث كتب معاوية بعد صلحه مع الحسن بن علي إلى جميع ولاته وعماله: (أن برئت الذمة ممن روى شيئاً في فضل أبي تراب (يعني علي) وأهل بيته...) (6)، فكان من نتيجة ذلك ملاحقة الموالين لأهل البيت وتعذيبهم وتقتيلهم، وفي نفس الوقت أوصى معاوية ولاته وعماله بإكرام من يروون في فضل عثمان وصحبه، والإغداق عليهم. وبالطريقة كان

(1) صحيح مسلم، كتاب الإمارة ج 4 ص 481.
(2) المصدر نفسه.
(3) المصدر نفسه.
(4) صحيح البخاري، كتاب الفضائل، باب حب الأنصار من الإيمان ج 5 ص 84.
(5) هاشم معروف الحسني، الموضوعات في الأخبار والآثار، ص 124.
(6) المصدر نفسه، ص 115.

الأمويون يشجعون على وضع الأحاديث في فضائل عموم الصحابة لا سيما أبا بكر وعمر - كما سنرى في موضع لا حق - وذلك لرفع منزلتهم فوق منزلة أهل البيت عليه السلام ويقول ابن عرفة المعروف بنفطويه في هذا الصدد: (إن أكثر الأحاديث الموضوعة في فضائل الصحابة افتعلت في أيام بني أمية تقرباً إليهم بما يظنون إنهم يرغمون فيه أنوف بني هاشم) (1).

وقد روي أن عبد الله بن الزبير الذي بويع له خليفة في فترة من الفترات مكث أربعين جمعة أيام خلافته يخطب الناس ولا يصلي على النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، فسئل عن سبب ذلك فأجاب: (إن له أهل سوء إذا ذكرته شمخوا بآنافهم) (2).

ويقول أحمد أمين في (ضحى الإسلام) مؤكداً هذه الحقيقة: (أن الأمويين قد وضعوا ووضعت لهم أحاديث تخدم سياساتهم من نواحي متعددة، منها أحاديث في زيادة مناقب عثمان إذ كان هو الخليفة الأموي من بين الخلفاء الراشدين وهم به أكثر اتصالا من غيره، مثل حديث: أن عثمان تصدق بثلاثمئة بعير بأحلاسها وأقتابها في جيش العسرة، فنزل النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) عن المنبر وهو يقول: ما على عثمان ما عمل بعد هذا اليوم) (3).

ومن الأحاديث التي وضعت في معاوية ولا يزال يذكرها بعض المتعصبين المعاصرين لبني أمية على أنها صحيحة كعبد المتعال الجبري أن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قال فيه: (اللهم اجعله هادياً مهدياً واهد به) (4).

---

(1) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج 3 ص 13.
(2) هاشم معرون الحسني، الموضوعات في الآثار والأخبار، ص 117.
(3) أحمد أمين، ضحى الإسلام، ج 2 ص 123.
(4) عبد المتعال الجبري، حوار مع الشيعة حول الخلفاء الراشدين وبني أمية، ص 222 نقلاً عن كتاب المناقب للترمذي.

(اللهم علمه الكتاب والحساب وقه والعذاب) [1]. قال الجبري: ورواة هذا الحديث أكثر من أن يحصوا [2]!!.

(لا تذهب الأيام والليالي حتى تجتمع الأمة على معاوية) [3].

(أول جيش يغزو مدينة قيصر - يعني القسطنطينية - مغفور لهم) [4] وفي رواية أخرى: (أول جيش يغزو الروم مغفور لهم) [5] وهو إشارة إلى الغزوة المزعومة التي أرسلها فيها معاوية ابنه يزيد على رأسها لغزو القسطنطينية.

ولأن أغلب المحققين أكدوا على أنه لم يصح من الأحاديث التي رويت في فضائل معاوية شئ سوى أن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) دعا عليه ولعنه [6]، وكذلك قوله (صلى الله عليه وآله وسلم) فيه: (لا أشبع الله بطنه) [7]، فقد قام الوضاعون ضمن جهودهم لتبييض صحيفة معاوية وتبرئته مما دعا به الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) عليه بنسب الحديث التالي المروي عن أبي هريرة إلى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم): (اللهم إنما أنا بشر فأيما رجل من المسلمين سببته أو لعنته أو جلدته، فاجعلها له زكاة ورحمة [8] - وفي رواية أخرى: فاجعل ذلك له قربة، وفي رواية ثالثة: كفارة، يوم القيامة) [9].

أبو هريرة: الراوي الأول!

والحقيقة أن أبا هريرة يعد مثالاً صارخاً يستحق كل الاهتمام والوقوف على سيرته لكثرة ما روى عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، وهو الراوي الأول بلا منازع عند الجمهور

---

(1) المصدر نفسه.
(2) المصدر نفسه.
(3) المصدر نفسه، نقلاً عن كتاب البداية والنهاية ج 8 ص 123.
(4) المصدر نفسه.
(5) المصدر نفسه، ص 123، نقلاً عن البداية والنهاية ص 219.
(6) راجع قسم 3 فصل 1 من هذا الكتاب.
(7) أنظر المصادر في موقع سابق.
(8) صحيح مسلم، كتاب البر والصدقة والأب، باب من لعنة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ج 5 ص 458.
(9) المصدر نفسه.

العريض من المسلمين: فأول ما ينبغي الإشارة إليه هو اشتهاره بتشيعه لبني أمية في صفين وما بعدها ليس في حمل السيف، وإنما بما أوتي من مهارات بالتلاعب بأحاديث النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أو وضع ما شاء تكيفاً مع المناسبة والحدث. وإليك خبر ذلك:

فهو في البداية يعترف أنه كان يكتم بعض ما قاله النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) كما في صحيح البخاري: (حفظت عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وعاءين فأما أحدهما فبثثته، وأما الآخر فلو بثثته قطع هذا البلعوم) (1)!! فما هي يا ترى تلك الأحاديث التي يخشى أبو هريرة روايتها، وممن؟

ومن الطريف في هذه المسألة أن أبا هريرة نفسه كان يقول في عقاب الكاتمين لحديث النبي (صلى الله عليه وآله وسلم): (إن الناس يقولون أكثر أبو هريرة - يعني أكثر رواية الحديث - ولولا آيتان في كتاب الله ما حدثت حديثاً - ثم تلى قوله تعالى: (إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون) [البقرة / 159]) (2).

وما يجدر ذكره أن أبا هريرة روى عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) (5374) حديثا ملئت صحاح أهل السنة الستة (أي أكثر بأربعة أضعاف ما رواه الخلفاء الأربعة الأوائل!)، كل ذلك بالرغم أن لم يعاصر النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) سوى عامين. وأخذ عنه البخاري في صحيحه 446 حديثاً.

وكان الخليفة عمر هو أول من فزع لكثرة ما روى أبو هريرة، فضربه بالدرة وقال له: (لتتركن الحديث عن رسول الله أو لألحقنك بأرض دوس) (3). ولما سمعه الإمام علي عليه السلام يقول مرة: حدثني خليلي رسول الله! قال له: متى كان النبي خليلك (4)؟

---

(1) صحيح البخاري، كتاب العلم، باب حفظ العلم، ج 1 ص 89.
(2) المصدر نفسه، ص 88.
(3) البداية والنهاية، ج 8 ص 106.
(4) المصدر نفسه، ص 109.

وإن كان هناك أي نوع من الصحبة من الممكن التحدث بها، فإن أبا هريرة نفسه سببها بقوله: (كنت ألزم النبي لشبع بطني، حتى لا آكل الخمير ولا ألبس الحرير، ولا يخدمني فلان ولا فلانة، وألصق بطني بالحصباء وأستقرئ الرجل الآية وهي معي كي ينقلب بي فيطعمني، وخير الناس للمساكين جعفر بن أبي طالب، ينقلب بنا فيطعمنا ما كان في بيته حتى إن كان ليخرج إلينا العكة التي ليس فيها شئ فنشتقها فنلعق ما فيها) (1). وقد عبر أبو هريرة عن تقديره لجعفر بن أبي طالب بقوله: (ما احتذى النعال ولا ركب المطايا ولا ركب الكور بعد رسول الله أفضل من جعفر بن أبي طالب) (2).

وبالنظر إلى الغاية التي كان أبو هريرة يلازم من أجلها النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، فقد كان من الطبيعي أن يميل إلى مناصرة الأمويين ضد معسكر الإمام علي عليه السلام لما وجده عندهم مما يناسب ميوله وشغفه من الطعام حتى أن كل من الجزار بسر بن أرطأة ومروان بن الحكم قد أناباه على ولاية المدينة، فتغيرت أحواله من حال إلى حال. ولقد روي عن أيوب بن محمد أنه قال: (كنا عند أبي هريرة وعليه ثوبان ممشقان من كتان، فتمخط فقال: بخ بخ أبو هريرة يتمخط في الكتاب؟ لقد رأيتني وإني لأخر فيما بين منبر رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) إلى حجرة عائشة مغشياً علي، فيجئ الجائي فيضع رجله على عنقي ويرى أني مجنون وما بي جنون، ما بي إلا الجوع) (3).

وكان مما قاله أبو هريرة في تقديره لفضائل معاوية عليه: (سمعت رسول الله يقول: إن الله أئتمن على وحيه ثلاثة: أنا وجبريل ومعاوية) (4).

---

(1) صحيح البخاري، كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب جعفر بن أبي طالب، ج 5 ص 47.
(2) أخرجه الترمذي ج 13 ص 189. والحاكم بإسناد صحيح.
(3) صحيح البخاري، كتاب الإعتصام بالكتاب والسنة، باب ما ذكر على اتفاق أهل العلم، ج 9 ص 317.
(4) أخرجه ابن عساكر وابن عدي والخطيب البغدادي.

وقد أكثر أبو هريرة الآخذ عن كعب الأحبار وعبد الله بن سلام، وهما يهوديان أعلنا إسلامهما نفاقاً وخداعاً للكيد بالإسلام من خلال دس الإسرائيليات في عقول المسلمين وعقائدهم. ويقول الدكتور أحمد أمين:

(اتصل بعض الصحابة بوهب بن منبه (وهو فارسي الأصل) وكعب الأحبار وعبد الله بن سلام، واتصل التابعون بابن جريج، وهؤلاء كانت لهم معلومات يروونها عن التوراة والإنجيل وشروحها وحواشيها، فلم ير المسلمون بأساً من أن يقصوها بجانب آيات القرآن، فكانت منبعاً من منابع التضخم) (1).

وكان كعب الأحبار أشهر هؤلاء وأخطرهم، وقد أسلم في عهد الخليفة عمر الذي قربه منه وكان معه في فتح بيت المقدس، وعندما افتضح أمره نهاه عن الحديث قائلاً له: (لتتركن الحديث أو لألحقنك بأرض القردة) (2). إلا أنه تحول إلى الشام في عهد عثمان، فاستضافه معاوية هناك وجعله من مستشاريه المقربين لكثرة علمه كما ظن به. ومن هذا الموقع توسع هذا اليهودي المتظاهر بالإسلام من نشر آلاف الأخبار والقصص التوراتية التي حرف معظمها أصلاً أو اختلقت فأصبحت من الخرافات والأساطير.

وسترى أمثلة من ذلك في استعراضنا لبعض روايات أبي هريرة التي ملأت كتب صحاح الحديث والتفسير والتي وثق أصحابها بأمانة هذا الراوي:

وتقواه:

1 - ففي صحيح البخاري عن أبي هريرة عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال:

(أرسل ملك الموت إلى موسى (صلى الله عليه وآله وسلم)، فلما جاءه صكه - وفي رواية مسلم في صحيحه: فلطم موسى عين ملك الموت ففقأها - فرجع الملك إلى ربه فقال: أرسلتني إلى عبد لا يريد الموت. فرد الله عليه عينه وقال إرجع فقل

---

(1) أحمد أمين، ضحى الإسلام، ج 2 ص 139.
(2) الذهبي، سيرة أعلام النبلاء، ج 2 ص 32.

له يضع يده على متن ثور، فله بكل شعرة سنة. قال: أي رب، ثم ماذا؟ قال: ثم الموت. قال: فالآن، فسأل الله أن يدينه من الأرض المقدسة رمية بحجر) (1).

وقد عبر الشيخ المرحوم محمد الغزالي عن استيائه لتزمت شارح هذا الحديث في أحد المصادر التي رجع إليها وجعله در الحديث إلحادا (2). وإليك كلام الشارح المدافع بإصرار عن صحة الرواية ونوع التبرير والمنقط الذي قدمه:

قال المارزي: وقد أنكر بعض الملاحدة هذا الحديث، وأنكروا تصوره، وقالوا: كيف يجوز على موسى عليه السلام قد أذن الله تعالى له في هذه اللطمة، ويكون ذلك امتحاناً للملطوم، والله سبحانه يفعل في خلقه ما شاء، ويمتحنهم بما أراد.

والثاني: أن هذا على المجاز، والمراد أن موسى ناظره وحاجه فغلبه بالحجة، ويقال: فقأ فلان عين فلان إذا غلبه بالحجة، ويقال: عودت الشئ إذا أدخلت فيه نقصاً، قال: وفي هذا ضعف لقوله (صلى الله عليه وآله وسلم): فرد الله عينه، فإن قيل: أراد رد حجته كان بعيداً.

والثالث: أن موسى عليه السلام لم يعلم أنه ملك من عند الله، وظن أنه رجل قصده يريد نفسه، فدافعه عنها، فأدت المدافعة إلى فقء عينه، لا أنه قصدها بالفقء، وتؤيده رواية: صكه، وهذا جواب الإمام أبي بكر بن خزيمة وغيره من المتقدمين واختاره المازري والقاضي عياض. قالوا: وليس في الحديث تصريح أنه تعمد فق ء عينه، فإن قيل: فقد اعترف موسى حين جاءه ثانياً بأنه ملك الموت، فالجواب أنه أتاه في المرة الثانية بعلامة علم بها أنه ملك الموت فاستسلم، بخلاف المرة الأولى. والله أعلم (3).

---

(1) صحيح البخاري، كتاب الجنائز، ج 2 ص 236، صحيح مسلم، كتاب الفضائل باب من فضائل موسى ج 5 ص 222.
(2) محمد الغزالي، السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث، ص 28.
(3) شرح النووي على صحيح مسلم، ج 5 ص 223، كتاب الفضائل، باب من فضائل موسى.

والحقيقة أن الإصرار على صحة حديث كهذا غير لائق، وليس هناك أي حاجة لكل هذه الحذلقة، وكلمة واحدة كان من الممكن أن تغني عن كل هذا الشرح المطول اليائس، ولكن غالبية علماء أهل السنة لا يجرؤون على التشكيك بصحة أن حديث أخرجه البخاري في صحيحه، فيضطرون إلى مثل ذلك الاضطراب في التفسير والتبرير، الأمر الذي لا يجلب للإسلام إلا الإساءة والتشويه.

ولهذا الحديث أمثال كثيرة، ومما رواها أيضاً الراوية الأول أبو هريرة، وهذه بعضها:

2) عن أبي هريرة قال: النبي (صلى الله عليه وآله وسلم): (قال سليمان بن داوود عليه السلام لأطوفن الليلة على تسعين امرأة كلهن يأتين بفرسان يقاتلون في سبيل الله، فقال له صاحبه: قل إن شاء الله. فلم يقل أن شاء الله. فطاف عليهن جميعاً فلم تحمل منهن إلا امرأة واحدة، فجاءت بشق رجل - وفي رواية أخرى:

بنصف إنسان - وأيم والله الذي نفس محمد بيده لو قال إن شاء الله لحملت كل واحدة منهن بغلام يجاهد فسبيل الله) (1).

ويقول النووي في شرحه لهذا الحديث: (كان لسليمان ستون امرأة وفي روايات أخرى سبعون، وتسعون، وتسع وتسعون، ومئة. هذا كله ليس بمتعارض لأنه ليس في ذكر القليل نفي الكثير، وهو مما خص به الأنبياء صلوات الله تعالى وسلامه عليهم من القوة على إطاقة هذا في ليلة واحدة، وكان نبيناً (صلى الله عليه وآله وسلم) يطوف على إحدى عشرة امرأة له في الساعة الواحدة كما ثبت في الصحيح، وهذا كله زيادة في القوة، والله أعلم) (2).

3) عن أبي هريرة أن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قال: (يقال لجهنم هل امتلأت، وتقول هل من مزيد، فيضع الرب تبارك وتعالى قدمه عليها فتقول: قط قط، أي كفى) (3).

---

(1) صحيح مسلم، كتاب الإيمان باب الاستثناء في اليمين وغيرها، ج 4 ص 199 - 201 (2) المصدر نفسه.
(3) صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب قوله - وهل من مزيد - ج 6 ص 353.

4) عن أبي هريرة أن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قال: (كل بني آدم يطعن الشيطان في جنبيه بإصبعيه حين يولد، غير عيسى بن مريم، ذهب يطعن، فطعن في الحجاب) (1).

5) عن أبي هريرة أن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قال: (خلق الله آدم على صورته طوله ستون ذراعاً) (2).

6) عن أبي هريرة أن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قال: (أنا خير من يونس بن متي فإنه كذب) (3).

7) عن أبي هريرة أن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قال: (ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير، يقول: من يدعوني فاستجيب له؟ من يسألني فأعطيه؟ من يستغفرني فأغفر له؟) (4).

8) عن أبي هريرة أن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قال: (كان بنو إسرائيل يغتسلون عراة فنظر بعضهم إلى بعض، وكان موسى يغتسل وحده، فقالوا: والله ما يمنع موسى أن يغتسل معنا إلا أنه أدر - بمعنى عظيم الخصيتين - فذهب مرة يغتسل فوضع ثوبه على حجر، ففر الحجر بثوبه، فجمع موسى في أثره يقول: ثوبي يا حجر، ثوبي يا حجر، حتى نظرت بنو إسرائيل إلى موسى فقالوا: والله ما بموسى من بأس) (5).

9) عن أبي هريرة أن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قال: (إذا نودي للصلاة أدبر الشيطان له ضراط حتى لا يسمع التأذين، فإذا قضي النداء، أقبل...) (6).

---

(1) المصدر نفسه، كتاب بدء الخلق، ج 4 ص 324.
(2) المصدر السابق، كتاب الاستئذان، ج 8 ص 160.
(3) المصدر السابق، كتاب التفسير، ج 6 ص 311.
(4) المصدر السابق، كتاب التهجد، ج 2 ص 136.
(5) المصدر السابق، كتاب الغسل، باب من اغتسل عرياناً وحدة في خلوة، ج 1 ص 169.
(6) المصدر السابق، كتاب الأذان، باب فضل التأذين، ج 1 ص 336.

10) عن أبي هريرة أن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قال: (بينما رجل راكب على بقرة، التفتت إليه فقالت: لم أخلق لهذا، خلقت للحراثة. قال: آمنت به وأبو بكر وعمر) [1].

11) عن أبي هريرة أن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قال: (بينما أنا نائم، رأيتني في الجنة فإذا امرأة تتوضأ إلى جانب قصر عمر. فقلت: لمن هذا القصر؟ فقالوا: لعمر ابن الخطاب. فذكرت غيرته فوليت مدبراً. فبكى عمر وقال: أعليك أغار يا رسول الله) [2].

12) عن أبي هريرة أن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قال: (لو أطلع في بيت أحد ولم تأذن له، حذفته بحصأة ففقأت عينه ما كان عليك من جناح) [3].

13) عن أبي هريرة أن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قال: لا يمشي أحدكم في نعل واحدة، لينعلهما جميعاً أو ليحفهما جميعاً) [4].

ماذا لو صحت هذه الأحاديث؟

نذكر فيما يلي طائفة أخرى من الأحاديث المروية في صحيحي البخاري ومسلم عن غير طريق أبي هريرة، والمستحقة للنظر والتساؤل:

1) عن عائشة قال: (جاءت سهلة بنت سهيل إلى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فقالت:

يا رسول الله، أرى في وجه أبي حذيفة من دخول سالم - وهو حليفه أو خادمه - فقال النبي: أرضعيه. قالت وكيف أرضعه وهو رجل كبير - وقد شهد بدراً على حسب رواية أخرى [5]. وفي ثالثة كان قولها: أنه ذو لحية [6] -

---

(1) المصدر السابق، كتاب المزارعة، باب استعمال البقر للحراثة، ج 3 ص 297.
(2) المصدر السابق، كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في وصف الجنة، ج 4 ص 306.
(3) المصدر السابق، كتاب الديات، باب من أخذ حقه أو اقتص دون السلطان، ج 9 ص 18.
(4) المصدر السابق، كتاب اللباس، باب لا يمشي في نعل واحدة، ج 7 ص 496.
(5) صحيح مسلم، كتاب الرضاع، حكم رضاعة الكبير، ج 3 ص 633.
(6) المصدر نفسه، ص 635.

فتبسم رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وقال: قد علمت أنه رجل كبير) (1). وفي ألفاظ أخرى قالت عائشة: (فقالت سهلة: أن سالماً قد بلغ ما بلغ الرجال وعقل ما عقلوا وأنه يدخل علينا وإني لأظن أن في نفس أبي حذيفة من ذلك شيئاً. فقال لها النبي (صلى الله عليه وآله وسلم): أرضعيه تحرمي عليه ويذهب الذي في نفس أبي حذيفة. فرجعت فقال: إني قد أرضعته فذهب الذي في نفس أبي حذيفة) (2).

ويقول النووي في شرحه وتبريره لهذا الحديث الغريب الذي أخرجه مسلم في صحيحه تحت باب رضاع الرجل الكبير: (قال القاضي في قوله (صلى الله عليه وآله وسلم) أرضعيه: لعلها حلبته (!) ثم شربه من غير أن يمس ثديها، ولا التقت بشرتاهما. وهذا الذي قاله القاضي حسن. ويحتمل أنه عفى عن مسه للحاجة كما خص بالرضاعة مع الكبر، والله أعلم) (3)!!.

2) عن أبي سعيد الخدري أن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قال بشأن اليوم الآخر والوقوف للحساب: (... فيتساقطون (الكفار) حتى يبقى من كان يعبد الله من بر أو فاجر، فيقال لهم: ما يحبسكم وقد ذهب الناس؟ فيقولون: فارقناهم ونحن أحوج منا إليه اليوم، وإنا سمعنا منادياً ليلحق كل قوم بما كانوا يعبدون، وإنما ننتظر ربنا.

قال: فيأتيهم الجبار في صورة غير صورته التي رأوه فيها أول مرة، فيقول: أنا ربكم. فيقولون: أنت ربنا! فلا يكلمه إلا الأنبياء. فيقول: هل بينكم وبينه آية تعرفونه بها! فيقولون: الساق. فيكشف عن ساقه، فيسجد له كل مؤمن) (4).

3) عن جرير أن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قال: (... إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر، لا تضامون في رؤيته) (5).

---

(1) المصدر نفسه، ص 633.
(2) المصدر نفسه، ص 634.
(3) المصدر نفسه، بشرح النووي، ص 634.
(4) صحيح البخاري، كتاب التوحيد، باب وجوه يومئذ ناضرة، ج 9 ص 396.
(5) المصدر نفسه، كتاب التفسير، باب قوله - فسبح بحمد ربك -، ج 6 ص 355.

ومما يذكر أن عائشة قد استنكرت إمكانية رؤية الله عندما سألها أحد الصحابة قائلاً: يا أمتاه، هل رأى محمد ربه؟ فقالت له: لقد قف شعري مما قلت [1]. وقرأت: (لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار) [الأنعام / 103].

وأما من يتوهم إمكانية رؤية الله من قوله تعالى: (وجوه يومئذ ناضرة ينبغي إلى ربها ناظرة) [القيامة / 22]، فهو تفسير خاطئ، لأن كلمة ناظرة ينبغي تأويلها على الانتظار وليس هي بمعنى النظر، وهذا مثل قوله تعالى: (واسأل القرية التي كنا فيها) [يوسف / 82]، بمعنى اسأل أهل القرية. وهكذا ينبغي تأويل كل آية يدل ظاهرها على أن الله جسماً أو يداً أو وجهاً أو ساقاً أو غير ذلك.

4) عن عبد الله بن عمر أن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قال: (إذا طلع حاجب الشمس فدعوا الصلاة حتى تبرز... فإنها تطلع بين قرني شيطان) [2]. وأما عن غروب الشمس فيروى أن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قال لأبي ذر حين غربت الشمس: أتدري أين تذهب؟ فقال أبو ذر: الله ورسوله أعلم. قال: (فإنها تذهب حتى تسجد تحت العرش فتستأذن فيؤذن لها، وتوشك أن تسجد فلا يؤذن لها، فيقال: ارجعي من حيث جئت، فتطلع من مغربها، فذلك قوله تعالى: (والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم) [يسين / 38]) [3].

5) وأما فيمن لا يقومون لصلاة الصبح، فقد روي عن عبد الله قال:

(ذكر عند النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) رجل فقيل: ما زال نائماً حتى أصبح ما قام إلى الصلاة. فقال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم): بال الشيطان في أذنه) [4].

---

(1) المصدر نفسه، باب سورة النجم، ص 359.
(2) صحيح البخاري، كتاب بدء الخلق، باب صفة إبليس وجنوده، ج 4 ص 319.
(3) صحيح البخاري، كتاب بدء الخلق، باب صفة الشمس والقمر بحسبان، ج 4 ص 382.
(4) المصدر نفسه، كتاب التهجد، ج 2 ص 135.

وأخيراً، بقي أن نذكر أن كل هذه الروايات هي مما أخرجه الشيخان البخاري ومسلم في صحيحيهما، وللمكانة التي يحتلها كتاباهما عند جمهور عريض من المسلمين، فإنه يلزم تعريفاً مختصراً بهما:

فالشيخ محمد بن إسماعيل البخاري يقول: (لم أخرج في هذا الكتاب إلا صحيحاً وما تركت من الصحيح أكثر) (1). ويقول أيضاً: (خرجت الصحيح من 600 ألف حديث) (2). ويذكر أن عدد الأحاديث المصنفة في كتاب البخاري هذا تراوح 600، 2 حديث، وقد صنفها في مطلع القرن الهجري الثالث.

ويقول الشيخ يحيى بن شرف النووي الشارح على صحيح مسلم: (اتفق العلماء (رحمهم الله) على أن أصح الكتب بعد القرآن العزيز الصحيحان:

البخاري ومسلم وتلقتهما الأمة بالقبول، وكتاب البخاري أصحهما) (3).

وأما الشيخ مسلم بن الحجاج النيسابوري والذي كان معاصراً للشيخ البخاري فقد قال: (صنفت هذا المسند الصحيح من 300 ألف حديث مسموعة) (4). وقد ذكر علماء الحديث أحياناً ما يشبه الأساطير حول تشدد هذين الشيخين في قبول الرواية وتوثيقها، إلى الحد الذي أهلهما ليكونا موضع إعجاب جمهور أهل السنة والجماعة على مر القرون.

وأما كتب الحديث عند الشيعة فالرئيسية منها أربعة هي: الكافي، من لا يحضره الفقيه، الإستبصار، التهذيب. ولكن علماء الشيعة لا يعدون جميع الأحاديث المخرجة في أي من هذه الكتب الصحيحة، بل يقولون إن فيها الغث

---

(1) ابن حجر في مقدمة شرحه على صحيح البخاري ج 1، ص 5، ط دار إحياء التراث العربي، بيروت.
(2) المصدر نفسه.
(3) النووي في مقدمة شرحه على صحيح مسلم، ج 1 ص 10، ط دار الشعب، القاهرة.
(4) المصدر نفسه، ص 11.

والسمين، كلها يجب إخضاعها لمقاييس الصحة والتوثيق، ولا يرون بإمكانية وجود أي كتاب يوضع قبال أو عدل لكتاب الله في الصحة والتوثيق. ويقول غالبية علماء الشيعة أن الأحاديث الضعيفة في كتاب الكافي - وهو أشهر كتب الحديث عندهم - أكثر من الأحاديث الصحيحة.

تقديس الصحابة على حساب عصمة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)

الغلو المفرط في تقديس الصحابة وأسبابه ونتائجه:

لقد كان الزعم القائل بتقوى جميع الصحابة وعلو منزلتهم من بين الأفكار التي عمل الأمويون على بثها وترسيخها لا سيما في بداية عهدهم، ليس فقط من أجل تفنيد أي نقد للصحابة عموماً، أو الخلفاء والولاة منهم على وجه الخصوص كالتغطية على بوائق معاوية وعمرو بن العاص على سبيل المثال، وإنما لإبعاد الأنظار عن تلك الميزة والمنزلة الخاصة التي أعطاها الله ورسوله لأهل البيت (صلى الله عليه وآله وسلم) بوصفهم المستحقين الحقيقيين لعرش الخلافة الإسلامية.

ويقول ابن عرفة المعروف بنفطويه في هذا الصدد: (إن أكثر الأحاديث في فضائل الصحابة قد افتعلت في أيام بني أمية تقرباً إليهم بما يظنون أنهم يرغمون أنوف بني هاشم، وقد صيغت بأسلوب يجعل من كل صحابي قدوة صالحة لأهل الأرض، وتصب على كل من سب أحداً منهم أو أتهمه بسوء كما جاء فيما رووه عن أنس بن مالك: (من سب أحداً من أصحابي فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، ومن عابهم أو أنتقصهم فلا تواكلوه لا تشاربوه ولا تصلوا عليه) وقد جاءت بهذا الأسلوب ولم تفرق بين صحابي وصحابي) [1].

---

(1) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، أنظر ص 13، 15، 16.

وهكذا شاعت أحاديث الفضائل، وأعطيت الأوصاف والألقاب لهذا وذاك، والتي تناقلها المسلمون عبر الأجيال وكأنها من المسلمات التي لا يمكن أن يتطرق إليها أي شك.

ومن ذلك ما زعم أن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) قال في معاوية كما يشهد ويثبت له البخاري في صحيحه أنه ـ فقيه! ـ، وأنه (صلى الله عليه وآله وسلم) قال في وصف صحابي آخر:

سيف الله المسلول، وقيل في ثالث أنه أمين هذه الأمة، وفي رابع أنه جرها، وفي خامس أنه صديقها، وفي سادس أنه فاروقها، وفي سابع أنه ذو النورين، حتى أصبح جميع الصحابة أنواراً كما في الحديث المزعوم: (أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم).

والصحابي عند جمهور المسلمين كما يصفه علماء أهل السنة هو: (كل مسلم رأى رسول الله ولو لحظة) (1). ويؤكد الشيخ النووي هذا التعريف في شرحه على صحيح مسلم بقوله: (وهذا هو الصحيح في حده، وهو مذهب ابن حنبل والبخاري في صحيحه والمحدثين كافة) (2). بل ذهب بعضهم إعطاء صفة الصحبة للذين لم يروا الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ولكن أسلموا في حياته (3).

وبالنسبة لدرجة المفاضلة بين الصحابة يقول أبو منصور البغدادي:

(أفضلهم الخلفاء الأربعة على الترتيب المذكور، ثم تمام العشرة المبشرين بالجنة، ثم أهل بدر ثم أحد ثم بيعة الرضوان، وممن له مزية أهل العقبتين من الأنصار، وكذلك السابقون الأولون وهم من صلى إلى القبلتين) (4).

وبالطبع فإن بعض هذه الدرجات تشمل حتى من اشتهروا بالبغي والفجور

---

(1) النووي في مقدمة شرحه على صحيح مسلم، ج 1 ص 28.
(2) المصدر نفسه.
(3) التدريب للسيوطي ص 213 نقلاً عن شرح التلقيح للقرافي.
(4) النووي في شرحه على صحيح مسلم، ج 5 ص 242.

كمعاوية وعمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة كما يذكر القاضي عياض على سبيل المثال: (وأما معاوية (رضي الله عنه) فهو من العدول الفضلاء والصحابة النجباء، رضي الله عنه) (1).

على أن المشكلة ليست في مجرد إعطاء الأوصاف والألقاب ودرجات التفضيل، فلو أن الناس اختلفوا مثلاً حول درجة فضل مجموعة أشخاص وتقواهم كسقراط أو بطليموس لما كان الأمر يهم في شئ، لأن ذلك يعد مفضول البحث وترفه. ولكن سبب اهتمامنا بما يخص حقيقة الصحابة وما جرى بينهم هو اعتبار عامة المسلمين لهم نموذجاً يقتدى به على مر الأجيال أو كما وصفهم الشهيد سيد قطب في كتابه معالم في الطريق بأنهم (جيل قرآني فريد)، بحيث أصبح من مقتضيات هذه القدسية اعتبار كل ما عمله الصحابة سنة، والوثوق بكل ما قالوه أو نقلوه أو فسروه أو اجتهدوه جزءا من شريعة الإسلام ينبغي الاقتداء به في كل زمان ومكان. وهذا يظهر من تعليق القاضي عياض على سبيل المثال: (وأما الحروب التي جرت بينهم فكانت لكل طائفة شبهة، اعتقدت تصويب أنفسهم بسببها، وكلهم عدول (رضي الله عنهم)، ومتأولون في حروبهم وغيرها، ولم يخرج شئ من ذلك أحداً منهم عن العدالة لأنهم مجتهدون، اختلفوا في مسائل من محل الاجتهاد، كما يختلف المجتهدون بعدهم في مسائل من الدماء وغيرها. ولا يلزم من ذلك نقص أحد منهم. وأعلم أن سبب تلك أن القضايا كانت مشتبهة، فلشدة اشتباهها اختلف اجتهادهم... فكلهم معذورون (رضي الله عنهم)، ولهذا اتفق أهل الحق ومن يعتد به في الإجماع على قبول شهاداتهم ورواياتهم، وكمال عدالتهم رضي الله عنهم أجمعين) (2).

---

(1) المصدر السابق.
(2) المصدر نفسه، ج 5 ص 242 - 243.

ويقول أحد المعاصرين: (عمل الصحابة حجة على من جاء بعدهم من المجتهدين وغيرهم، ولا يضر اختلافهم في المسائل المجتهد فيها، فلا يقال: إن ذلك يترتب عليه تضارب الحجج، لأن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) قال: في بعض ما روي عنه: أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم) (1).

وقد وصل التطرف والغلو بقدسية الصحابة إلى درجة تفضيل معاوية (وهو الخليفة غير راشد (!) الذي تلطخت يداه بدماء آلاف الأبرياء، وعلى يديه عادت الحياة الجاهلية بأقبح صورها إلى واقع المسلمين) على الخليفة عمر بن عبد العزيز والمعتبر من الراشدين، لا لشئ إلا لكون معاوية صحابي وعمر تابعي، بالرغم من كل ما اشتهر به عمر من تقوى وعدل، بحيث تكون مقارنته بمعاوية في واقع الحال كمقارنة ملاك بشيطان! ويظهر هذا التطرف جليا بقول ابن كثير: (إن يوماً واحداً من أيام معاوية مع رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) خير من عمر بن عبد العزيز وأهل بيته!) (2)، وللشيخ ابن تيمية في هذا الصدد قول أكثر تطرفاً.

ومن الأحاديث التي وضعت على لسان النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) لتأكيد هذه المكانة المفتعلة، وترسيخ المعتقدات التي نسجت حولها ما يلي:

1 - (إذا أراد الله برجل من أمتي خيراً ألقى حب أصحابي في قلبه) (3).

2 - الله الله في أصحابي، لا تتخذوهم غرضاً بعدي، فمن أحبهم فبحبي أحبهم، ومن أبغضهم فببغضي أبغضهم، ومن آذاهم فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى الله، ومن آذى الله يوشك أن يأخذه) (4).

---

(1) د. رويعي الرحيلي، فقه عمر بن الخطاب، ج 1 ص 59.
(2) الحافظ ابن كثير، الباعث الحثيث، ص 181.
(3) ابن حجر الملكي، الصواعق المحرقة، ص 5 نقلاً عن الترمذي.
(4) المصدر نفسه.

3 - (ما شأنكم وشأن أصحابي، ذروا لي أصحابي فوالذي نفسي بيده لو أنفق أحدكم مثل جبل أحد ذهباً ما أدرك مثل عمل أحدهم يوماً واحداً) (1).

4 - (مثل أصحابي مثل الملح في الطعام، لا يصلح الطعام إلا بالملح) (2).

5 - (خير القرون قرني ثم الذين يلونهم... ثم الذين يلونهم) (3).

6 - (لا تمس النار مسلماً رآني أو رأى من رآني) (4).

ومع أن الرواية الأخيرة تجعل جميع الصحابة والتابعين من المبشرين بالجنة، إلا أن الشيخين أبا بكر وعمر أحيطا بعناية خاصة أكثر من أي صحابي آخر في هذا الصدد، فأصبغت عليهما هالة قدسية فوق العادة، لدرجة الادعاء أن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قد خصصهما بالذكر بالقول المنسوب: (اقتدوا بالذين من بعدي أبي بكر وعمر) (5). فلو صح هذا الحديث، لكان يعني الشهادة لهما بالعصمة، لأن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) لن يأمر أمته بإتباع أحد بعده على هذا النحو المطلق ويحتمل ارتكابه لمعصية وإن صغرت.

ومن تلك الأحاديث التي وضعت فيهما ما روي عن عمرو بن العاص قال: (سألت النبي (صلى الله عليه وآله وسلم): أي الناس أحب إليك؟ قال: عائشة. قلت: من الرجال؟ قال: أبوها. قلت: ثم من؟ قال: عمر، فعد رجالاً) (6).

وأما الأحاديث التي خصت أبا بكر، فيكفي الإشارة إلى ما زعم أن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قال: (لو وضع إيمان أبي بكر في كفة، وإيمان الأمة في كفة،

---

(1) المصدر نفسه.
(2) المصدر نفسه.
(3) المصدر نفسه.
(4) المصدر نفسه.
(5) الرحيلي، فقه عمر) ج 1 ص 60، نقلاً عن الموافقات ج 4 ص 269.
(6) صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل أبي بكر، ج 5 ص 247.

لرجحت كفة أبي بكرٍ) (1). وكذلك قول النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) المزعوم: (لو كنت متخذاً خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً، ولكنه أخي وصاحبي، ولقد اتخذ الله عز وجل صاحبكم خليلاً) (2). ويقول القاضي عياض في شرحه لهذا الحديث: (قيل أصل الخلة الافتقار والانقطاع، فخليل الله المنقطع إليه. وأما قول أبي هريرة وغيره من الصحابة: سمعت خليلي رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فلا يخالف هذا، لأن الصحابي يحسن في الانقطاع إلى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم). وقيل أن الخلة هي الاصطفاء، وسمى إبراهيم خليلاً لأنه والى في الله وعادى فيه) (3).

وأما النووي فقد قال في شرحه لهذا الحديث: (إن حب الله تعالى لم يبق في قلب أبي بكر موضعاً لغيره) (4) بمعنى حتى لو كان هذا الغير هو الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)!

وأما عمر بن الخطاب، فقد رفع بواسطة الأحاديث التي وضعت في فضله إلى مرتبة فاق بها سابقه، مما يناقض حديثي الكفة والخليل السابقين، واللذين على فرض صحتهما ينبغي أن يجعلاً من أبي بكر الأعلى مرتبة. وهذه على كل حال جملة من الأحاديث التي خصت عمر بالفضل ونسبت إلى لسان النبي (صلى الله عليه وآله وسلم):

1 - قال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم): (لو كان بعدي نبي لكان عمر) (5) وفي رواية أخرى: (لو لم أبعث فيكم لبعث عمر) (6). فالنبوة لا يمكن احتمال وضعها في شخص عمر وهناك أبو بكر الأقوى منه إيماناً والأكثر فضلاً!

---

(1) هو من أكثر ما اشتهر عند أهل السنة بشأن فضائل أبي بكر، ولكننا لم نهتد إلى مصدره.
(2) صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل أبي بكر، ج 5 ص 245.
(3) النووي في شرحه على صحيح مسلم، ج 5 ص 244.
(4) المصدر السابق.
(5) الرحيلي، فقه عمر، ج 1 ص 57.
(6) المصدر السابق.

2 - قال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم): (والذي نفسي بيد ما لقيك الشيطان قط سالكا فجاً إلا سلك فجا غير فجك) (1). قال النووي في تفسيره لهروب الشيطان من مواجهته: لشدة خوفه من بأس عمر أن يفعل فيه شيئاً (2)!.

3 - قال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم): (كان في الأمم قبلكم محدثون، فإن يكن في أمتي منهم أحد فإن عمر بن الخطاب منهم) (3). وفي رواية أخرى: (.. فإن يكن في أمتي منهم فإنه عمر) (4). وقال ابن وهب في تفسير محدثون: ملهمون.

4 - قال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم): (ما أبطأ عني جبريل إلا خشيت أنه ذهب إلى عمر) (5).

5 - قال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم): (إن الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه) (6).

وروي عن ابنه عبد الله قال: (ما نزل بالناس أمر قط، فقالوا وقال، إلا نزل القرآن على نحو ما قال عمر) (7).

وعن ابن مسعود أنه قال: (لو أن علم عمر وضع في كفة ميزان، ووضع وعلم أحياء الأرض في كفة، لرجح علم عمر بعلمهم، ولقد كانوا يقولون أنه ذهب بتسعة أعشار العلم) (8).

ونسب أيضاً إلى عبد الله بن عمر أنه قال: (قال عمر: وافقت ربي في ثلاث: في مقام إبراهيم وفي الحجاب وفي أسارى بدر) (9). وإليك خبر هذه الموافقات الثلاث المزعومة كما نقلها الناقلون:

---

(1) صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل عمر، ج 5 ص 258.
(2) المصدر نفسه.
(3) المصدر نفسه، ص 259.
(4) المصدر نفسه.
(5) المصدر نفسه.
(6) الرحيلي، فقه عمر، ج 1 ص 56.
(7) المصدر نفسه، ص 33 نقلاً عن سنن الترمذي.
(8) المصدر نفسه، ص 34.
(9) صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل عمر، ج 5 ص 259.

الأولى: (إن عمر أشار على النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قبل نزول القرآن أن يتخذ من مقام إبراهيم مصلى، فأنزل الله في ذلك قرآنا يتلى: (واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى) [البقرة / 125] [1].

الثانية: (أشار عمر على النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أن يأمر نساءه بالحجاب، فأنزل الله تبارك وتعالى: (.. وإذا سألتموهن متاعاً فسألوهن من وراء حجاب) [الأحزاب / 53]) [2].

الثالثة: (استشار النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أصحابه في أسارى بدر، فكان من رأي عمر أن يقتلوا ولا يؤخذ منهم فداء، ولم يقل أحد بقوله. فنزل قول الله سبحانه وتعالى موافقاً لما قال: (ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم) [الأنفال / 67]) [3].

ومن هذه الموافقات المزعومة بالإضافة إلى الثلاث السابقة ما ذكره النووي في شرحه لقول عمر (وافقت ربي...): (هذا من أجل مناقب عمر وفضائله رضي الله عنه، وجاء في رواية في الصحيح: اجتمعت نساء النبي في الغيرة، فقال عمر: (عسى ربه أن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منكن) [التحريم / 5].

ثم نزل القرآن بذلك. وجاء في الحديث الصحيح موافقة عمر لله في منع النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) من الصلاة على المنافقين فنزل قوله تعالى: (ولا تصل على أحد منهم مات أبداً) [التوبة / 84]. وعندما كان القرآن يتدرج بتحريم الخمر على مراحل، طلب عمر أن يبين حكمه بياناً شافياً قطعياً فنزل قوله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من

---

(1) الرحيلي، فقه عمر، ج 1 ص 24، نقلاً عن الموافقات ج 2 ص 251.
(2) الرحيلي، فقه عمر، ج 1 ص 24، نقلاً عن فتح الباري، ج 8 ص 526.
(3) الرحيلي، فقه عمر، ج 1 ص 25، نقلاً عن صحيح مسلم.

عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون) [المائدة / 90]. فهذه ست موافقات، وليس في لفظه ما ينفي زيادة الموافقة، والله أعلم) (1).

وفي رواية الصلاة على المنافقين، فقد وردت موافقة أخرى لعمر، حيث كان النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) يستغفر لأحد المنافقين، فقال له عمر: سواء عليهم استغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم... فنزلت الآية بذلك. وكان مجموع ما ذكره السيوطي من حوادث الموافقات هذه أربع عشرة حادثة.

ويقول كاتب معاصر في تعليقه على هذه الموافقات المزعومة: (وهذا يدل على أن صوابه أكثر من صواب غيره بشهادة القرآن وذلك ببركة مجالسته للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، فقد تشربت روحه بالتشريع الإلهي حتى أنه قيل عنه أنه يتكلم بروح الشريعة) (2). ومن الواضح أن ضمير الهاء في كلمة غيره لا يشمل بقية الصحابة فقط، وإنما يشمل أيضاً النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) نفسه كما يتضح من حادثتي أسرى بدر والصلاة على أحد المنافقين!

وعلى كل حال، فإذا كانت هذه هي الصورة التي نقلت إلينا عن مكانة الصحابة وقدسيتهم، لا سيما الخليفة عمر. دعونا نرى قبل مناقشة هذه المكانة وتلك الموافقات الصورة التي نقلت إلينا من تلك المصادر والطرق - عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ودرجة قدسيته -:

المس بكمال عصمة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وخطورته:

لقد كان من ضحايا أزمة الخلافة لا أقل من شخص النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) نفسه، ذلك أنه ومن أجل تبرير مخالفة الصحابة والخلفاء منهم على وجه الخصوص للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في بعض المسائل، فإن وضاعي الحديث ومزوري التاريخ الذين

(1) النووي، شرح صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل الصحابة، باب فضائل عمر، ج 5 ص 460 - 461.
(2) الرحيلي، فقه عمر بن الخطاب، ج 1 ص 28.

كان منهم وعاظ سلاطين بني أمية، ذهبوا إلى الافتراء بالقول: أن صاحب الرسالة كان يخطئ في المواقع التي ليس فيها تبليغ عن الله من حكم أو آية، بل هو في تلك المواقع لا يختلف عن بقية البشر في شئ، فهو على رأيهم يتعرض لحالات السهو والنسيان بل لحالات السحر والهذيان (والعياذ بالله) وفيما يلي أمثلة قليلة من هذه الافتراءات:

1 - هجران النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)!

عندما كان النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في أحد أيامه الأخيرة، وقد اشتد به المرض، أراد أن يكتب وصيته الأخيرة بحضور ومشهد من أهل بيته وكبار الصحابة. وإليك ما حصل في ذلك اليوم كما يرويه لنا البخاري ومسلم في صحيحيهما بالإسناد إلى ابن عباس قال: (يوم الخميس وما يوم الخميس - ثم بكى حتى بل دمعه الحصى - اشتد برسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وجعه فقال: آتوني أكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعدي. فتنازعوا، وما ينبغي عند نبي تنازع، وقالوا: ما شأنه، أهجر؟ استفهموه.

قال الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم): دعوني، فالذي أنا فيه خير مما تدعوني إليه) [1].

وفي رواية أخرى، قال ابن عباس: (لما حضر رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وفي البيت رجال فيهم عمر بن الخطاب. فقال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم): هلم أكتب لكم لا تضلون بعده. فقال عمر: إن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قد غلب عليه الوجع وعندكم القرآن، حسبنا كتاب الله. فاختصموا، فمنهم من يقول قربوا يكتب لكم رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) كتاباً لن تضلوا بعده، ومنهم من يقول ما قال عمر. فلما أكثروا اللغو والاختلاف عند رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، قال: قوموا. فكان ابن عباس يقول: إن الرزية كل الرزية ما حال بين رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وبين أن يكتب لهم ذلك الكتاب من اختلافهم ولغطهم) [2].

---

(1) صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب مرض النبي ووفاته، ج 5 ص 511.
(2) صحيح مسلم، كتاب الوصية، باب ترك الوصية، ج 4 ص 171.

وفي رواية ثالثة، كان قول الراد على رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) كما جاء في صحيح مسلم: (إن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يهجر) (1)، وفي رواية رابعة، كان قول الراد على النبي (صلى الله عليه وآله وسلم): (.. فقال عمر كلمة معناها أن الوجع قد غلب على رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ثم قال عمر: عندنا القرآن حسبنا كتاب الله) (2). ويلاحظ في هذه الرواية الأخيرة أن كلمة يهجر استبدلت بعبارة (معناه أنه الوجع) الأكثر تهذيباً.

ويتضح من كل هذه الروايات أن أول من وصف رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بالهجران، والذي يعني في حالة المرض بالهذيان (3) هو عمر بن الخطاب ولكن علماء أهل السنة اعتبروا موقف عمر هذا دليلاً على عظمته وقوة بصيرته! فيقول مثلاً يحيى أبو زكريا النووي الشارح لأحاديث صحيح مسلم:

(.. وأما كلام عمر رضي الله عنه، فقد اتفق العلماء المتكلمون في شرح الحديث على أنه من دلائل فقه عمر وفضائله ودقيق نظره، لأنه خشي أن يكتب النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أموراً ربما عجزوا عنها واستحقوا العقوبة عليها لأنها منصوصة لا مجال للاجتهاد فيها، فقال عمر: حسبنا كتاب الله، لقوله تعالى (ما فرطنا في الكتاب من شئ) [الأنعام / 38] وقوله تعالى: (اليوم أكملت لكم دينكم..) [المائدة / 3]، فعلم عمر أن الله تعالى أكمل دينه، فأمن من الضلال على الأمة، وأراد الترقية على رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، فكان عمر أفقه من ابن عباس وموافقيه) (4).

ثم يؤكد النووي أن وصف عمر للرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) بالهجران كان في محله بقوله: (إعلم أن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ليس معصوماً من الأمراض والأسقام العارضة

---

(1) صحيح البخاري، كتاب المرضى، باب قول النبي - قوموا عني -، ج 7 ص 389، وصحيح مسلم، كتاب الوصية، باب ترك الوصية، ج 4 ص 176.
(2) المصدر نفسه، ص 175.
(3) السقيفة لأبي بكر الجوهري.
(4) أبو بكر الرازي، مختار الصحاح، ص 690، وأنظر صحيح مسلم بشرح النووي ج 4 ص 174.

للأجسام ونحوها مما لا نقص لمنزلته ولا فساد لما تمهد من شريعته، وقد سحر النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) حتى صار يخيل إليه أنه فعل الشئ ولم يكن فعله) (1).

وأما بشأن الكتاب الذي أراد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) كتابته، فيعلق النووي: (وقد اختلف العلماء في الكتاب الذي هم النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بكتابته، فقيل: أراد أن ينص على الخلافة في إنسان معين لئلا يقع نزاع وفتن، وقيل: أراد كتاباً يبين فيه مهمة الأحكام ملخصة ليرفع النزاع فيها ويحصل الاتفاق على المنصوص عليه) (2).

ثم ينقل قولاً للخطابي فيه المزيد من التبرير لتصرف عمر: (ولا يجوز أن يحمل قول عمر على أنه توهم الغلط على رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)... لكنه لما رأى ما غلب عليه الوجع وقرب الوفاة مع ما اعتراه من الكرب، خاف أن يكون قول الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) مما يقول به المريض مما لا عزيمة فيه (؟!)، فيجد المنافقون بذلك سبيلاً إلى الكلام في الدين) (3) - إلى قوله: إن أكثر العلماء يجوزون الخطأ على النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فيما لم ينزل عليه، وأنه كان يسهو في صلاته.

وأما بشأن مخالفة عمر للرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)، فهي من الأمور الصائبة لأنها - على رأيه - تأتي ضمن الأمور التي قال فيها النبي (صلى الله عليه وآله وسلم): (اختلاف أمتي رحمة) (4).

2 - محاولة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) رمي نفسه من قمة جبل!

وهذه الحادثة المزعومة تعد من أكثر الأمور غرابة، حيث تصف حال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) عندما تأخر عليه الوحي بعد نزوله عليه أول مرة في غار حراء.

وهذا نص ما ذكره البخاري في صحيحه نقلاً عن عائشة قالت: (... وفتر الوحي فترة حتى حزن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فيما بلغنا حزناً غدا منه مراداً كي يتردى من رؤوس شواهق الجبال، فكلما أوفى بذروة جبل لكي يلقي منه نفسه تبدى له

(!) صحيح مسلم بشرح النووي، ج 4 ص 172.
(2) المصدر نفسه.
(3) المصدر نفسه.
(4) المصدر نفسه.

جبريل فقال: يا محمد، إنك رسول الله حقاً، فيسكن لذلك جأشه وتقر نفسه فيرجع، فإذا طالت عليه فترة الوحي غدا لمثل ذلك، فإذا أوفى بذروة جبل تبدى له جبريل، فقال له مثل ذلك) (1).

3 - نسيان النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) آيات الكتاب!

روى البخاري ومسلم في صحيحيهما عن عائشة قالت: (سمع النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) رجلاً يقرأ في المسجد، فقال: رحمه الله، لقد أذكرني كذا وكذا آية كنت أسقطتها من سورة كذا وكذا) (2). أو حسب رواية أخرى: (.. رحمه الله، لقد أذكرني آية كنت أنسيتها) (3).

وقال النووي في شرحه لهذا الحديث: (قوله (صلى الله عليه وآله وسلم) كنت أنسيتها دليل على جواز النسيان عليه (صلى الله عليه وآله وسلم) فيما قد بلغه إلى الأمة!) (4). وقال القاضي عياض: (وأما نسيان ما بلغه في هذا الحديث فيجوز) (5).

4 - غفلة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) عن أداء الصلاة في وقتها!

فقد روى أصحاب الصحاح عدة حوادث زعم فيها أن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) غفل عن أداء بعض الصلوات في أوقاتها، ومن ذلك ما روي عن أبي هريرة قال:

(إن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) حين قفل من غزوة خيبر.. نام وأصحابه، ولم يستيقظ رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ولا بلال ولا أحد من أصحابه حتى ضربتهم الشمس، ففزع النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فقال: أي بلال. فقال بلال: أخذ نفسي الذي أخذ. بأبي أنت وأمي يا رسول الله بنفسك..) (6).

---

(1) المصدر نفسه، ص 173.
(2) صحيح البخاري، كتاب التعبير، باب أول ما بدي به رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، ج 9 ص 93.
(3) المصدر نفسه، كتاب الدعوات، باب قوله تعالى - وصل عليهم -، ج 8 ص 234.
(4) صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضائل القرآن، ج 2 ص 443.
(5) المصدر نفسه، ص 444.
(9) المصدر نفسه.

وعن أبي هريرة أيضاً قال: (عرسنا مع نبي الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فلم يستيقظ حتى طلعت الشمس، فقال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم): ليأخذ كل رجل برأس راحلته فإن هذا منزل حضرنا فيه الشيطان، ثم دعا بالماء فتوضأ ثم سجد سجدتين، ثم أقيمت الصلاة، فصلى) (1).

وفي صحيح البخاري، عن جابر بن عبد الله قال: (إن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) جاء عمر بن الخطاب يوم الخندق فقال: يا رسول الله، والله ما كدت أن أصلي حتى كادت الشمس تغرب، وذلك بعدما أفطر الصائم. فقال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم):

والله ما صليتها. فنزل النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) إلى بطحان وأنا معه فتوضأ ثم صلى العصر بعدما غربت الشمس، ثم صلى بعدها المغرب) (2).

وفيما يتعلق بصلاته (صلى الله عليه وآله وسلم)، روى البخاري عن أبي هريرة قال: (أقيمت الصلاة وعدلت الصفوف قياما، فخرج إلينا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، فلما قام في مصلاه ذكر أنه جنب. فقال لنا: مكانكم. ثم رجع فاغتسل، ثم خرج إلينا ورأسه يقطر فكبر فصلينا معه) (3).

ثم يروي أبو هريرة المزيد من سهو النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فيقول: (صلى بنا النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) الظهر ركعتين ثم سلم، ثم قام إلى خشبة في مقدمة المسجد، ووضع يديه عليها، وفي القوم يومئذ أبو بكر وعمر، فهابا أن يكلماه، وخرج سرعان الناس. فقالوا: يا نبي الله أنسيت أم قصرت؟ فقال: لم أنس ولم أقصر. وكان في القوم رجل يدعى ذا اليدين فقال: بل نسيت يا رسول الله. قال: صدق ذو اليدين) (4).

---

(1) صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب قضاء الصلاة الفائتة، ج 2 ص 325.
(2) صحيح البخاري، كتاب الأذان، باب قول الرجل للنبي - ما صلينا - ج 1 ص 349.
(3) المصدر نفسه، كتاب الغسل، باب إذا ذكر في المسجد أنه جنب، ج 1 ص 168.
(4) المصدر نفسه، كتاب الأدب، ما يجوز من ذكر الناس، ج 8 ص 8 48.

وعن أنس بن سيرين قال: (تلقينا أنس بن مالك حين قدم الشام فرأيته يصلي على حماد، ووجهه إلى يسار القبلة. فقلت له: رأيتك تصلي لغير القبلة. قال: لولا أني رأيت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يفعله لم أفعله) (1).

5 - هيام النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بحب عائشة على حساب عدله مع بقية نسائه

تشير بعض الروايات الواردة في الصحاح أن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) كان متيماً جداً بحب عائشة إلى حد العشق والهيام وبصورة غير عادية. فهذا البخاري عن أبي هشام قال: (إن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) لما كان في مرضه جعل يدور في نسائه ويقول: أين أنا غداً؟ حرصاً على بيت عائشة. قالت عائشة: فلما كان يومي سكن) (2). وفي رواية صحيح مسلم: (... أين أنا اليوم؟ أين أنا غداً؟ استبطاء ليوم عائشة. قالت عائشة: فلما كان يومي قبضه الله بين سحري ونحري) (3).

وتروي عائشة أيضاً: (كان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) إذا أراد سفراً أقرع بين نسائه، فأيتهن خرج سهمها خرج بها معه، وكان يقسم لكل امرأة منهن يومها وليلتها، غير أن سودة بنت زمعة وهبت يومها وليلتها لعائشة زوج النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) تبتغي بذلك رضا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) (4).

وعن عائشة أيضاً قالت: (إن الناس كانوا يتحرون بهداياهم يوم عائشة يبتغون بذلك مرضاة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) (5)... وكانت أم سلمة تغار من ذلك، فقال لها النبي (صلى الله عليه وآله وسلم): يا أم سلمة، لا تؤذيني في عائشة، فإنه والله ما نزل علي الوحي وأنا في لحاف امرأة منكن غيرها) (6).

---

(1) صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب جواز صلاة النافلة على الداية حيث توجهت، ج 2 ص 353.
(2) صحيح البخاري، كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل عائشة، ج 5 ص 77.
(3) صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل عائشة، ج 5 ص 299.
(4) صحيح البخاري، كتاب الهبة، باب هبة المرأة لغير زوجها، ج 3 ص 462.
(5) صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل عائشة، ج 5 ص 296.
(6) صحيح البخاري، كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل عائشة، ج 5 ص 78.

ثم تقول عائشة في شدة غيرة بقية النساء منها: (أرسل أزواج النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فاطمة إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فاستأذنت عليه وهو مضطجع معي في مرطي فأذن لها فقالت: يا رسول إن أزواجك أرسلنني إليك يسألنك العدل في ابنة أبي قحافة يعني عائشة - فقال لها النبي (صلى الله عليه وآله وسلم): أي بنية، ألست تحبين ما أحب؟

فقالت: بلى، قال: فأحبي هذه... إنها ابنة أبي بكر) (1).

والحقيقة أن كل هذه الروايات وغيرها الواردة في هذا الصدد تزعم أن سبب عشق النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) لعائشة، وتفضيله إياها على غيرها من نسائه (صلى الله عليه وآله وسلم) هو ليس كونها ابنة أبي بكر، وإنما لتميزها عن بقية نسائه (صلى الله عليه وآله وسلم) بصغر السن والبكارة حين زواجه منها، وبصورة تظهر النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وكأنه كان رجلاً شهوانياً أو ذواقاً (والعياذ بالله). وهذه رواية أخرى مفتراة كسابقاتها تؤكد هذا الزعم الباطل. فعن أنس بن مالك قال: (كان النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) يدور على نسائه في الساعة الواحدة من الليل والنهار، وهن إحدى عشرة. قال: قلت لأنس: أو كان يطيقه؟ قال: كنا نتحدث أنه أعطي قوة ثلاثين رجلاً) (2).

6 - وقوع النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) تحت تأثير السحر!

وهذا الزعم أيضاً مما روته عائشة وأخرجه البخاري في صحيحه قالت:

(سحر رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) حتى أنه يخيل إليه أنه فعل الشئ وما فعله، حتى إذا كان ذات يوم وهو عندي دعا الله ودعاه، ثم قال: أشعرت يا عائشة، أن [كان] الله قد أفتاني فيما استفتيته فيه؟) (3).

وفي رواية أخرى، قالت عائشة: (مكث النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) كذا وكذا يخيل إليه أنه يأتي أهله ولا يأتي... فقال ذات يوم: يا عائشة، أتاني رجلان فجلس

---

(1) صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل عائشة، ج 5 ص 296 - 298.
(2) صحيح البخاري، كتاب الغسل، باب إذا جامع ثم عاد ومن دار على نسائه في غسل واحد، ج 1 ص 165.
(3) المصدر نفسه، كتاب الطب، باب السحر، ج 7 ص 444.

أحدهما عند رجلي، والآخر عند رأسي، فقال الذي عند رجلي للذي عند رأسي:

ما بال الرجل؟ قال: مطبوب، يعني مسعوراً. قال: ومن طبه؟ قال: لبيد بن أعصم) (1). وكان الشيخ محمد عبده يستنكر هذه الروايات وأمثالها لتعارضها مع قوله تعالى: (وقال الظالمون إن تتبعون إلا رجلاً مسحوراً) [الفرقان / 8].

7 - أمر النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) الناس بما لا يعلم!

روى رافع بن خديج وعائشة: (قدم نبي الله المدينة وهم يأبرون النخل فقال: ما تصنعون؟ قالوا: يلقحونه. قال: لعلكم لو لم تفعلوا لصلح - وفي رواية صحيح مسلم كان قوله (صلى الله عليه وآله وسلم): ما أظن يغني ذلك شيئاً - (2) قال الراوي: فلما أخبروا بذلك تركوه. فخرج النخل شيصاً والمعنى ظهور فساد رأي النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) - وعندما مر بهم النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قال: ما لنخلكم؟

قالوا: قلت لنا كذا وكذا. فقال: إن كان ينفعهم ذلك [التلقيح] فليصنعوه، فإني ظننت ظناً فلا تؤاخذوني بالظن، ولكن إذا حدثتكم عن الله شيئاً فخذوا به، فإني ظننت ظناً فلا تؤاخذني بالظن، ولكن إذا حدثتكم عن الله شيئاً فخذوا به، فإني لن أكذب على الله عز وجل (3) - وفي رواية أخرى كان قوله: إنما أنا بشر إذا أمرتكم بشئ من دينكم فخذوا به وإذا أمرتكم بشئ من رأيي فإنما أنا بشر (4). وفي رواية ثالثة، قال لهم النبي (صلى الله عليه وآله وسلم): أنتم أعلم بأمور دنياكم) (5).

8 - إعراض النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) عن أعمى لانشغاله مع كفار!

يرى كثير من المسلمين أن الآيات الكريمة (عبس وتولى * إن جاءه الأعمى * وما يدريك لعله يزكى * أو يذكر فتنفعه الذكرى..) [عبس / 1 - 4]

(1) المصدر السابق، كتاب الأدب، باب إن الله يأمر بالعدل والإحسان، ج 8 ص 57.
(2) صحيح مسلم، كتاب الفضائل، باب وجوب امتثال ما قاله شرعاً النبي على سبيل الرأي، ج 5 ص 212 - 213.
(3) المصدر نفسه.
(4) المصدر نفسه.
(5) المصدر نفسه.

أنها نزلت عتاباً للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) لإعراضه عن عبد الله بن مكتوم - وكان مؤمناً ضريراً جاء يستقري النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) مما علمه الله - وظهور الكراهية في وجهه لقطعه كلامه مع من كان منشغلاً بالكلام معهم، وهم سادة كفر قريش كعتبة بن ربيعة وأبي جهل وأمية بن خلف يدعوهم إلى الإيمان بالله ويرجو إسلامهم. وكان سبب ظهور الكراهية في وجهه (صلى الله عليه وآله وسلم) حسب هذا الزعم قوله (صلى الله عليه وآله وسلم) في نفسه:

يقول هؤلاء الصناديد أنما أتباعه من العميان والعبيد، فعبس (صلى الله عليه وآله وسلم) في وجهه وأقبل على القوم الذين يكلمهم. فنزلت الآيات تعاتبه في ذلك. وكان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يكرم ذلك الأعمى إذا رآه ويقول له: مرحباً بمن عاتبني فيه ربي) (1).

وحقيقة هذه الآيات إنها نزلت استنكاراً لرجل من بني أمية كان عند النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، فجاءه ابن أم مكتوم، فلما رآه تقذر في نفسه، وعبس وأعرض بوجهه عنه. فأين أخلاق نبينا الكريم (صلى الله عليه وآله وسلم) من هذا التصرف؟

ومن علماء أهل السنة القلائل الذين نفوا نزول هذه الآيات في النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) هو فخر الدين الرازي بقوله: (لا نسلم أن هذا الخطاب متوجه إلى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم): لأن يقال أن أهل التفسير قالوا: الخطاب مع الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)، فإنا نقول: هذه رواية آحاد لا تقبل في هذه المسألة) (2).

ويقول السيد محمد حسين الطباطبائي في تفسيره (الميزان في تفسير القرآن):

(وليست الآيات ظاهرة الدلالة على أن المراد بها هو النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، بل خبر محض لم يصرح بالمخبر عنه، بل فيها ما يدل على أن المعني بها غيره لأن العبوس ليس من صفات النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) مع الأعداء المباينين فضلاً عن المؤمنين المسترشدين. ثم الوصف بأنه يتصدى للأغنياء ويتلهى عن الفقراء لا يشبه أخلاقه الكريمة) (3).

---

(1) أسباب النزول للواحدي، ص 252.
(2) فخر الدين الرازي، عصمة الأنبياء، 95.
(3) محمد حسين الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، ج 2 ص 223.

9 - خطأ النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في الصلاة على أحد المنافقين!

وتروى هذه الحادثة كما يلي في صحيح البخاري: (لما توفي عبد الله بن أبي جاء ابنه إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فقال: يا رسول الله، أعطني قميصك أكفنه فيه، وصل عليه واستغفر له. فأعطاه قميصه... فجاء [الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)] ليصلي عليه، فجذبه عمر فقال: أليس قد نهاك الله أن تصلي على المنافقين، فقال [لك] في كتابه: (استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم) [التوبة / 80] قال ابن عمر: فنزلت الآية (ولا تصل على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره) [التوبة / 84] قال: فترك الصلاة عليهم) (1).

والحقيقة التي غابت عن عمر في هذه المسألة أن الله سبحانه وتعالى لم يحرم على رسوله كما يفهم من الآية (استغفر لهم) الصلاة على المنافقين، وإنما خيره في ذلك بالرغم أن النتيجة في الحالتين هي عدم غفران الله لهم.

وقد اختار الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) أن يصلي على ذلك المنافق لمصلحة وفائدة بالغة توخاها في استئلاف قلوب أبناء قبيلته الخزرج، حيث أسلم منهم بعد صلاة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) تلك ألف رجل وبعد تحقق هذه الفائدة، نزل قوله تعالى: (ولا تصل على أحد منهم مات أبداً). [التوبة / 84].

ومما يكن من الأمر، فلا بد وأن يكون النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أعلم الناس بحلال الله وحرامه وأفهمهم لكتابه، ولا يحتمل أن يكون هناك أحد أعلم أو أفهم منه بذلك، وإلا لما كان النبي الذي أرسله الله للناس ليعلمهم الكتاب والحكمة، ولكان الأولى على الله أن يرسل الآخر بدلاً منه (والعياذ بالله). حتى أن عمر نفسه اعترف (بتجرئه) على رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بقوله: (فعجبت بعد من جرأتي على رسول الله) (2).

---

(1) صحيح البخاري، كتاب اللباس القميص، ج 7 ص 462.
(2) المصدر نفسه، كتاب الجنائز، ج 2 ص 252.

10 - خطأ النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بأخذ الفداء من أسرى بدر!

يرى غالبية المسلمين أن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) أخطأ عندما قرر الصفح عن أسرى بدر وأخذ الفداء منهم مقابل ذلك. ويعتقدون أن الصواب كان في جانب عمر بن الخطاب في اعتراضه على النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) والذي كان رأيه قتلهم جميعاً. وقد اعتبروا رأي عمر هذا من الكرامات والإلهامات لأنه على حسب فهمهم نزل قرآناً ليس فقط في تأييد موقفه، بل وعتاباً للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، والآيات هي: (ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم * لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم) [الأنفال / 68]. وما يوافق هذا التفسير ما أخرجه مسلم في صحيحه بإسناده إلى عمر نفسه قال: (فلما كان من الغد - بعد نزول الآية - فإذا رسول الله وأبو بكر قاعدين يبكيان. قلت: يا رسول الله، أخبرني من أي شئ تبكي أنت وصاحبك.. فقال الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم): أبكي للذي عرض علي أصحابك من أخذ الفداء، لقد عرض علي عذابهم أدنى من هذه الشجرة) (1) وفي رواية أخرى، كان قول النبي (صلى الله عليه وآله وسلم): (إن كاد ليمسنا في خلاف ابن الخطاب عذاب عظيم، ولو نزل عذاب ما أفلت منه إلا ابن الخطاب) (2).!!

وحقيقة هذه الحادثة أن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قد قرر الصفح عن الأسرى لمصلحة وحكمة متوخياً إسلامهم كما حصل فعلاً فيما بعد. وأما آية العتاب والعذاب تلك فإنها لم تنزل لتندد أو لتهدد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) - والعياذ بالله - وأصحابه الذين أيدوه بالصفح عن الأسرى وأخذ الفداء، وإنما نزلت قبل حدوث معركة بدر لتندد بالصحابة الذين أرادوا مخالفة رأي النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في قتال المشركين، وفضلوا بدلاً من ذلك الاكتفاء بأخذ العير وما تحمله قافلة أبي سفيان، كما في قوله تعالى: (وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم وتودون أن غير

---

(1) صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، ج 4 ص 377.
(2) السيرة النبوية للدحلاني، ج 1 ص 512.

ذات الشوكة تكون لكم ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين) [الأنفال / 7] وكان النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قد استشار أصحابه فقال لهم: إن القوم قد خرجوا على كل صعب وذلول، فماذا تقولون؟ العير أحب إليكم أم النفير؟

قالوا: بل العير أحب إلينا من لقاء العدو. وقال بعضهم حين رآه مصراً على القتال: هلا ذكرت لنا القتال لنتأهب له؟ إنا خرجنا للعير لا للقتال وهنا نزل قوله تعالى (ما كان لنبي). وكذب من زعم أنه (صلى الله عليه وآله وسلم) اتخذ الأسرى، وأخذ منهم الفداء قبل أن يثخن في الأرض، فإنه إنما فعل ذلك بعد أن أثخن في الأرض وقتل صناديد قريش وطواغيتها كأبي جهل وعتبة وشيبة والوليد وحنظلة إلى سبعين من رؤوس الكفر وزعماء الضلال، فكيف يمكن بعد هذا أن تفسر الآية على أنها عتاب للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) (1)؟

وكان من بين أسرى بدر العباس عم الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)، وقد أمر النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) الصحابة بعدم التعرض له، أو لأي من أسرى بني هاشم بالأذى لأنهم أخرجوا لقتال المسلمين مكرهين. ولكن عمر قام بشد وثاق العباس، حتى أنه كان يود قتله، وكان الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) يسمع أنينه وتضوره من الأذى فلا يأتيه النوم حتى أطلقه الأنصار (2). ومن المعلوم أن العباس كان ممن تحملوا العذاب مع النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في بداية البعثة والدعوة في مكة، وكان معه عندما حوصروا في الشعب مع بقية أبناء بني هاشم لثلاث سنين، وهو كان من الذين أمرهم الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) بكتم إسلامهم والبقاء في مكة ليكتب له أخبار قريش وأسرارهم، ولهذا قال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) يوم احتدام القتال في بدر: من لقي منكم العباس فلا يقتله، فإنه خرج مستكرها (3).

---

(1) بتصرف عن النص والاجتهاد ص 322 - 323، والفصول المهمة ص 112. لشرف الدين الموسوي.
(2) كنز العمال ج 5 ص 272.
(3) السيرة النبوية للدحلاني، ج 1 ص 504.

وأخيراً، نذكر مثال ابن حجر المكي في دفاعه عن معاوية اضطر إلى الطعن، بكمال خلق النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ورشده. حيث وجدنا ابن حجر يقول في محاولته تبرير دعاء النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) على معاوية (لا أشبع الله بطنه): (ولا نقص على معاوية في هذا الحديث أصلاً... [ثم قدم أعذاراً محتملة لمعاوية] وعند هذه الاحتمالات اللائقة بكمال معاوية وفقهه ومكانته، يتعين أن يكون هذا الدعاء عليه هو وليس له بأهل، فيكون له زكاة وأجراً ورحمة، كما قال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم): اللهم إني أغضب كما يغضب البشر فمن سببته أو لعنته أو دعوت عليه وليس هو أهلاً لذلك فاجعل اللهم ذلك له زكاة وأجراً ورحمة... فهذا الحديث من مناقب معاوية الجليلة لأنه بان بما قررته إنه دعاء لمعاوية لا عليه) (1).

خطورة الشبهة والافتراء وتفنيدهما:

أو ليس في كل هذه الروايات وغيرها كثير والتي تطعن بعصمة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وكمال خلقه وعلمه ما فيه فتحاً واسعاً للطعن والسخرية برسالة الإسلام ونبيها؟ فأي دين هذا إذا كان نبيه ومبلغه يتصف بمثل هذه الصفات، وبه مثل ذلك الضعف أمام السحر والغرائز، بل حتى نسيانه آيات الكتاب، وغفلته ونومه عن أداء الفرائض... فلم يعد الأمر متعلقاً بمجرد (خطأ) النبي بأمور الدنيا، لأن حفظ آيات الكتاب وأداء الفرائض ليست من أمور الدنيا على حسب تصنيف من جعلوا النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) معصوماً بأمور الدين وتبليغه ليس إلا!.

والأدهى من ذلك كله، تصحيح عمر له في أكثر من موقف، حتى أصبح الخليفة وكأنه أعلم وأبعد نظراً من رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) والعياذ بالله. فكيف لنا أن نقبل بتصديق تلك الإلهامات المزعومة لشخص أفنى شبابه وغالبية عمره في

---

(1) ابن حجر العيثمي المكي، تطهير الجنان واللسان، ص 29 - 30.

الجاهلية يعبد الأصنام ويشرب الخمر ويأد البنات، بل هو نفسه كان يعترف بكثرة أخطائه التي أرتكبها بعد إسلامه، وفي نفس الوقت نغفل عن كل تلك الآيات القرآنية الساطعة بكمال رأي النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وسداده وعصمته في أمور الدين والدنيا، وبراءته من كل نقيصة وذنب مهما صغر، بل وما يقتضيه العقل السليم بضرورة كون مبلغ الرسالة مثالاً ورمزاً في العلم والخلق! ومن تلك الآيات قوله تعالى: (وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا) [الحشر / 7]، وقوله: (إنه لقول رسول كريم * وما هو بقول شاعر قليلاً ما تؤمنون * ولا بقول كاهن قليلاً ما تذكرون * تنزيل من رب العالمين) [الحاقة / 40 - 43]، وقوله سبحانه وتعالى: (إنه لقول رسول كريم * ذي قوة عند ذي العرش مكين * مطاع ثم أمين * وما صاحبكم بمجنون) [التكوير / 19 - 22]، وقوله تعالى: (ما ضل صاحبكم وما غوى * وما ينطق عن الهوى * إن هو إلا وحي يوحى * علمه شديد القوى) [النجم / 2 - 5].

فبالرغم من كل هذه الأدلة القطعية على عدم احتمال فعل النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أو تفوهه إلا بما هو حق وصواب في جميع شؤون الدين والدنيا، ودون أي استثناء، فإنك تجد نفس الذين يصرون على كمال إلهامات عمر وموافقاته لله في مواقف عديدة اختلف فيها مع النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) تجدهم يقومون بتأويل بعض الآيات لأخذها ذريعة في إثبات خطأ النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وإنكار تمام عصمته، ويصرون على هذا الرأي أيما إصرار!

ومن تلك الآيات قوله تعالى: (إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً * ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطا مستقيما * وينصرك الله نصراً عزيزاً) [الفتح / 1 - 3]. ويرد السيد الطباطبائي في تفسيره (الميزان في تفسير القرآن) حول هذه الشبهة والتي تعد أكبر مستمسك بيد الطاعنين بكمال عصمة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بقوله: (ليس المراد بالذنب في هذه الآيات هو الذنب المعروف بمخالفة التكليف الشرعي، ولا المراد بالمغفرة

معناها المعروف بترك العقاب على المخالفة المذكورة. فالذنب في اللغة كما يستفاد من موارد استعمالاته هو العمل الذي له تبعة سيئة كيفما كان، والمغفرة هي الستر على الشئ... وفي الآيات، فإن المراد بالذنب التبعة السيئة التي كانت لدعوته (صلى الله عليه وآله وسلم) عند الكفار والمشركين، وهو ذنب له عليهم كما في قول موسى لربه: (ولهم علي ذنب فأخاف أن يقتلون) [الشعراء / 14].

وما تقدم من ذنبه هو ما كان منه (صلى الله عليه وآله وسلم) بمكة قبل الهجرة، وما تأخر من ذنبه هو ما كان منه بعد الهجرة، ومغفرته تعالى لذنبه هو ستره عليه بإبطال تبعته بإذهاب شوكتهم وهدم بنيتهم) (1).

ويقدم الشيخ جعفر السبحاني رداً آخر لهذه الشبهة بقوله: (إن إمعان النظر في فقرات الآيات خصوصاً في جعل غفران الذنب غاية للفتح المبين، يتضح أن المقصود بالذنب هو الاتهامات والنسب الباطلة التي كان الأعداء يلصقونها به، وأن ذلك الفتح المبين دل على افتعالها وعدم صحتها من أساسها، ونزه صحيفة حياة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) عن تلك النسب) (2).

---

(1) الطباطبائي، تفسير الميزان، ج 18 ص 258 - 259.
(2) السبحاني: عصمة الأنبياء، ص 204.

الفصل الثاني
أخطر الآثار

تفتت الأمة وانقسام إسلامها إلى فرق ومذاهب

لم يكن ضمن تعاليم الشريعة الإلهية حين نزولها ما يجعل من المسلمين مذاهب وفرق متعددة تخاصم وتكفر بعضها بعضاً كما حصل على مر تاريخنا الإسلامي وإلى اليوم، وإنما كان الأمر الإلهي يجمع المسلمين تحت راية واحدة وأن يدينوا بإسلام واحد: (إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون) [الأنبياء / 92].

وكان المسلمون في عهد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) على دين واحد وهو التسليم بما جاء من عقائد التوحيد والنبوة واليوم الآخر وأحكام الدين الضرورية كأحكام الصلاة والصيام وغيرها، وكانوا يرجعون فيما اختلفوا فيه إلى الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) الذي كان عندهم النبي والحاكم والقاضي راضين بذلك ومسلمين، ولم يكن حينئذ لأي أحد الفرصة لمنافسته أو مجرد التفكير بتكوين خط معارض أو بديل.

ولكن بعد وفاته (صلى الله عليه وآله وسلم) مباشرة، وحتى قبل أن يوارى جثمانه الطاهر، بدأ النزاع على الزعامة والحكم، والذي كان في بدايته على شكل بروز تحزبات وتحالفات سياسية كما حصل في سقيفة الأنصار، ثم تحول إلى صراعات مسلحة وحروب دامية أودت بحياة عشرات الآلاف من المسلمين كما حصل في مواقع الجمل وصفين والنهروان. وبسبب هذه المآسي، وبتشجيع من السلطات بدأت الفرق والمذاهب بالتشكل والظهور، وأخذت تنقسم وتتفرع حتى صارت مع مرور الأيام وتوالي الحكومات تعد بالمئات. وبالرغم من

انقراض الغالبية العظمى لهذه الفرق، فإن الأمة لا زالت تدفع الثمن الغالي من جراء التنازع وسوء الظن بين ما تبقى من تلك الفرق.

وفي فترات سابقة وصل التعصب بين بعض أتباع المذاهب الأربعة - على سبيل المثال - حد التكفير، فهذا محمد بن موسى الحنفي قاضي دمشق المتوفى سنة 506 ه يقول: (لو كان لي من الأمر شيئاً لأخذت على الشافعية الجزية). وسئل أحد متعصبي الشافعية عن حكم طعام وقعت فيه قطرة نبيذ، فقال: يرمى لكلب أو حنفي) (1)!

ويروي الشيخ محمد الغزالي في أحد كتبه أنه عاش الزمن الذي كان يدخل المسجد تقام فيه أربع جماعات منفصلة للصلاة حسب المذاهب الأربعة. ووصل الأمر إلى مجال التراشق بوضع الأحاديث على لسان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) - من ذلك قول الأحناف: (سيكون في أمتي رجل يقال له أبو حنيفة هو سراج أمتي)، ووضع الشافعية قولاً نسبوه إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): (عالم قريش يملأ طباق الأرض علماً) يقصدون بذلك محمد بن إدريس الشافعي - فرد عليهم الأحناف بحديث: (سيكون في أمتي رجل يقال له محمد بن إدريس أضر على أمتي من إبليس) (2).

ومن أمثلة هذا التعصب في زماننا نكتفي بالفتوى المؤرخة في 12 / 2 / 1412 ه والتي أصدرها الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن بن جبرين عضو مجلس الإفتاء السعودي في تحريم أكل ذبائح الشيعة لأنهم برأيه مشركون ومرتدون ويستحقون بذلك القتل؟!.

وأمام هذا التعصب المذهبي الأعمى من جهة، وتلك النزاعات وأحياناً الحروب بين المسلمين أنفسهم والمشحونة بالأهواء والنعرات الجاهلية من

---

(1) أسد حيدر، الإمام الصادق والمذاهب الأربعة، ج 1 ص 190.
(2) المصدر نفسه.

جهة أخرى، يمكننا فهم مغزى النبي المصطفى (صلى الله عليه وآله وسلم) من تحذيره للصحابة وعموم الأمة في كل عصر من مغبة الوقوع في الفتن والنزاع بعده بقوله لهم:

(لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض) (1)!

وفيما يلي نلقي نظرة في حال أمهات الفرق الإسلامية والتي كانت ولادتها وتشكلها من نتاج أزمة الخلافة والإمامة، وهي أربة:

1) أهل السنة والجماعة 2) الشيعة 3) المعتزلة 4) الخوارج

أولاً: أهل السنة والجماعة

نشوء الفرقة وتطورها:

إن المفهوم السائد في أذهان عموم أهل السنة أن الإسلام الصحيح هو المتمثل بما هم عليه وحدهم، وأن غيرهم من الفرق الإسلامية إما ضالة ومنحرفة أو خارجة عن الملة، وقليلون من علماء أهل السنة من يعطوا الفرق الإسلامية الأخرى أهمية البحث والدراسة. ولماذا يعطوا ذلك الاهتمام ما داموا يرون أن لقب (أهل السنة والجماعة) يعني أنهم وحدهم أتباع السنة النبوية وأبناء الفرقة الناجية؟

أما إذا أردنا أن ننظر إلى هذه المسألة بصورة موضوعية، فالاسم وحده لا يكفي لتمييز فرقة على أخرى وتفضيلها، والاقتداء بسنة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) هو عنوان تقول به الفرق الإسلامية الأخرى كالشيعة والمعتزلة وحتى الخوارج. فكل هذه الفرق توجب التمسك بالسنة النبوية وتقديسها. فكيف إذن احتكر أهل السنة والجماعة هذا الوصف دون غيرهم من الفرق؟

---

(1) صحيح البخاري، كتاب الحج، باب الخطبة أيام منى، ج 2 ص 462.

أن لقب (أهل السنة) كان ابتداء وصفاً لمجموعة من العلماء المشتغلين بتدوين الأحاديث النبوية، والذين عرف منهجهم في تحصيل العقائد والأحكام من ظواهر الروايات باسم (فرقة أهل الحديث) التي ظهرت في عهد الأمويين.

ولأن موضوع الأحاديث هو السنة النبوية فإن كلمة السنة أصبحت تستخدم أحياناً بديلاً لكلمة الحديث. وكما يظهر في رسالة لعمر بن عبد العزيز يرد فيها على القدرية قال فيها: (... وقد علمتم أن أهل السنة كانوا يقولون:

الاعتصام بالسنة نجاة...، وقول عمر بن الخطاب: إنه لا عذر لأحد عند الله بعد البينة إلا بضلالة ركبها حسبها هدى...). فمن الواضح هنا أن من يشير إليهم عمر بن عبد العزيز بوصف أهل السنة هم مدونو السنة النبوية وليس أي فرقة أو طائفة وإلا لما فرق بين قول عمر بن الخطاب وقول أهل السنة (1).

ومن المعلوم أن تدوين الأحاديث النبوية لم يبدأ إلا في مطلع القرن الثاني الهجري بأمر من الخليفة عمر بن عبد العزيز، حيث كان التدوين ممنوعاً في عهود من قبله.

وعندما برز الإمام أحمد بن حنبل وتصدر العمل في تدوين العقائد والمعارف المأخوذة من تلك الأحاديث في مطلع القرن الثالث الهجري، أخذ يوسع استخدام لقب (أهل السنة) والذي كان مخصوصاً بالعلماء مدوني السنة النبوية، ليشمل أيضاً الأتباع المقلدين لمذهبه والعوام المؤيدين لمنهج أهل الحديث. وبهذا يكون أحمد بن حنبل قد احتكر اسم أهل السنة ليكون عنواناً خاصاً لبعض المسلمين دون غيرهم من أهل القبلة.

ويذكر أحد المحققين المعاصرين أن أحمد بن حنبل قام بذلك ليوحد آراء أهل الحديث التي كانت مختلفة ومشتتة قبله في مجال العقائد (2)، ويقدم شاهداً على ذلك من كتاب تدريب الراوي للسيوطي، يكشف فيه عن وجود

---

(1) جعفر السبحاني، بحوث في الملل والنحل، ج 1 ص 343، 270.
(2) المصدر نفسه، ص 310.

الاتجاهات المتعددة والمتناقضة عندهم، وجاء إمام الحنابلة ليوحدهم ويقضي على الفاسد من آرائهم ومذاهبهم. فهم كانوا كما يصف السيوطي بين مرجئة ونواصب وشيعة وقدرية وجهمية وخوارج وواقفية وغير ذلك (1).

وهناك رأي ثان حول أصل تسمية أهل السنة والجماعة، حيث يذكر الحاكم أنه لما أمر معاوية بلعن الإمام علي عليه السلام على المنابر زعم أن ذلك سنة يثاب فاعلها، وسمي ذلك العام (عام السنة). ولما قتل علي عليه السلام وأصلح الحسن عليه السلام مع معاوية، واستقر الأمر للأمويين، قام معاوية بتسمية ذلك العام (عام الجماعة) (2)، تمشياً على ما يبدو مع الحديث الذي وضع خصيصاً لهذه المناسبة والذي يصف الفرقة الناجية: (... وواحدة في الجنة وهي الجماعة). فأصبح كل من يعتقد بإمامة معاوية يقول نحن (أهل السنة والجماعة)، ومن الواضح أن المراد بهم ليس أتباع سنة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ولا الجماعة الناجية.

ولشيخ الإسلام ابن تيمية رأي ثالث في منشأ التسمية والمذهب يقول فيه: (فلفظ أهل السنة يراد به من إثبات خلافة الخلفاء الثلاثة (يقصد أبو بكر وعمر وعثمان)، فيدخل في ذلك جميع الطوائف إلا الرافضة (يقصد الشيعة)، وقد يراد به أهل الحديث والسنة المحضة، فلا يدخل فيه إلا من يثبت الصفات لله تعالى، ويقول أن القرآن غير مخلوق، وأن الله يرى في الآخرة، ويثبت القدر وغير ذلك من الأصول المعروفة عند أهل والحديث) (3).

ولا أرى تناقضاً بين هذه الآراء الثلاثة حول أصل تسمية فرقة أهل السنة والجماعة ونشوئها. فالتفسيران اللذان قدمهما ابن تيمية يمكن توفيقهما مع

---

(1) تدريب الراوي للسيوطي، ج 1 ص 328.
(2) أحمد بن يحيى اليماني، المنية والأمل في شرح الملل والنحل، ص 106.
(3) أحمد بن تيمية، منهاج السنة، ج 2 ص 221.

الرأيين الأول والثاني. فقوله أن أهل السنة تعني من اعتقد بخلافة الخلفاء الثلاثة الأوائل ينسجم مع ما نسب إلى معاوية في الرأي الثاني. فمعاوية لم يكن يعمل فقط على ترسيخ فكرة أفضلية الثلاثة الأوائل وإثبات أحقيتهم بالخلافة، وإنما قام بمحاربة الخليفة الرابع وعمل بكل ما أوتي من سلطات على التقليل من فضائل أهل البيت عليه السلام ورفع غيرهم من الصحابة، وتجاوز ذلك إلى حد أمره لخطباء المسلمين بسب الإمام علي عليه السلام على المنابر واعتبار ذلك سنة.

وأما قول ابن تيمية أن أهل السنة يراد بها أهل الحديث والسنة المحضة، فإنه ينسجم مع الرأي الأول والذي أعطى فيه لقب أهل السنة لمعتنقي العقائد والمعارف التي استخرجها ودونها رجال الحديث.

وبناء على ما سبق فإن نشوء فرقة أهل السنة ينظر إليها من ناحيتين: الأولى متعلقة بالخلافة ببعدها السياسي البحت، والثانية متعلقة بالعقائد والأحكام.

فأما من الناحية السياسية، فقد وقع بشأنها أول خلاف بين المسلمين بعد وفاة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وذلك في سقيفة بني ساعدة عندما تنازع الإمارة المهاجرون والأنصار، وقاطع علي عليه السلام ومن معه من الهاشميين وبعض الصحابة نزاعهم ومن ثم اتفاقهم لأنهم كانوا يرون أن علياً كان أحق بالخلافة ممن تنازعوا عليها، وبقوا على رفضهم لمبايعة أبي بكر لستة شهور (1).

وهكذا يمكن اعتبار أن ولادة فرقة أهل السنة كانت في السقيفة وإن لم يظهر من معالمها المميزة آنذاك سوى الخط السياسي، حيث كان يعرف الأتباع من تأييدهم لخلافة أبي بكر وعمر وعثمان، ثم نما وترعرع هذا الخط في عهد الأمويين بحيث كانت تظهر السلطة الحاكمة كممثل ومدافع عن خلافة الثلاثة، وناقمة بل ومقطعة لرؤوس الموالين لعلي وأهل البيت والقائلين بأفضليتهم.

(1) صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة خيبر، ج 5 ص 382.

وأما من ناحية العقائد والأحكام، فقد كان ظهور أهل السنة والجماعة كفرقة إسلامية لها عقائدها المميزة ومدرستها الفكرية والفقهية المستقلة والواضحة المعالم على يد جماعة أهل الحديث في أواخر العصر الأموي، ثم تبلورت ونضجت زمن الإمام أحمد بن حنبل في مطلع القرن الثالث الهجري.

ولكن لا بد من الملاحظة هنا أن ابن حنبل ومن قبله أهل الحديث قد استندوا فيما ذهبوا إليه من عقائد وأحكام بصورة كبيرة على (اجتهادات) الخليفة عمر وآلاف الأحاديث التي رواها الصحابة معتبرين صحتها جميعاً، مما يظهر تأثرهم وارتباطهم الوثيق بالخط السياسي، والذي تولد نتيجة لصراعات وتنازعات تدخلت فيها الأهواء، بل وسالت بسببها بحار من الدماء، الأمر الذي يضع كثيراً من تلك العقائد والأحكام في محل الشك والارتياب.

إنقسام الفرقة وتشعبها

كان لتوسع الدولة الإسلامية وتباعد البلدان واختلافها في العادات والمشاكل السائدة في بيئاتها أكبر الأثر في ظهور حركة الاجتهاد وبألوان متعددة يمكن إجمالها بمنهجين رئيسيين في معرفة العقائد الإسلامية واستنباط الأحكام الشرعية: أحدهما يكثر فيه الرأي والقياس (بمعنى كثرة استخدام العقل) في المواضع التي لا تعطي فيها النصوص الشرعية الوضوح والتفصيل الكافيين لمعرفة الأحكام، وثانيهما يغلب عليه التمسك الصارم بالرواية وعدم الخروج عن حدود ألفاظ النص وظاهرها مهما كلف الأمر، ولا يأخذ بالعقل كأسلوب في تحصيل المعارف والأحكام. وهذان المنهجان (أهل الحديث وأهل الرأي أو النقلي والعقلي) تطوراً على شكل مدرستين لكل منهما علماؤها ومنظروها مما ساعد على ظهور الفرق الكلامية أو المذاهب العقائدية والمذاهب الفقهية.

أولاً: الفرق الكلامية (المذاهب العقائدية):

شهدت أواخر خلافة الإمام علي عليه السلام وبداية العصر الأموي أول ظهور للفرق الكلامية (وعلم الكلام هو العلم الذي يدور حول عقيدة التوحيد بآراء

فلسفية) وذلك من جراء الحوادث التي ألمت بالأمة ابتدأ بمقتل عثمان ومعارك الجمل وصفين وقتل المعارضين لبني أمية وغيرها، حيث كانت تدور المجادلات في مسائل المصير الأخروي لمرتكب الكبيرة والقضاء والقدر كالمعركة التي حصلت مثلا في صفين، هل كانت بقضاء الله وإرادته المفروضة على الناس أم كانت بفعل الذين شاركوا فيها وبكامل اختيارهم، وما هو حكم قادتها والمسلمين الذين ذهبوا ضحيتها. وقد كانت تتشكل المذاهب العقائدية تبعاً لآراء أصحابها تجاه هذه المسائل. ومن هذه الفرق التي حسبت تاريخياً من تشعبات أهل السنة ما يلي:

1 - المرجئة:

وهم الذين قالوا لا يضر مع الإيمان معصية، كما لا ينفع مع الكفر طاعة، ويرون تقديم الإيمان وإرجاء العمل. ويقولون أن المعرفة والاعتقاد القلبي كافيان للفوز بالجنة والسعادة الأخروية، حتى لو لم يصلوا ويصوموا (1). وأول ما أطلق هذا الاسم على الذين اجتمعوا مع معاوية بعد مقتل الإمام علي عليه السلام، وسموا المرجئة لأنهم والوا المتنازعين جميعاً في الجمل وصفين، وقالوا: أن أهل القبلة كلهم مؤمنون بإقرارهم الظاهر بالإيمان، ورجوا لهم جميعاً المغفرة (2).

ويرى المؤرخون أن هذه الفرقة نشأت أساساً بإيعاز ودعم من الحكم الأموي، فحكمت بمشروعية حكمهم، وتركت الحكم فيما اقترفوه من الأحداث الجسام إلى الله تعالى، فهو الذي يحكم بين عباده بالحق يوم القيامة، والمسلم يكفي أن يكون مسلماً، وليس لأحد أن يخوض في أعمالهم أو يحكم عليهم بشئ من عنده (3).

---

(1) شريف الأمين، معجم الفرق الإسلامية، ص 219.
(2) المصدر نفسه، ص 221.
(3) باقر شريف القرشي، موسوعة الإمام الصادق، ج 7 ص 212.

ويقول الخليفة المأمون: (أن الإرجاء دين الملوك) (1). وقد كان واضحاً أن هذه الفرقة كانت فعلاً أحد أجهزة السلطة الأموية آنذاك، ثم تحول فكر المرجئة كأداة للسلطات الحاكمة في كل العصور لتبرير سياسة الحاكمين والحيلولة دون نقدها في حالة مخالفتها لأحكام الشريعة.

2 - المجبرة:

وهم الذين قالوا أن العبد مجبر على ما هو فيه من طاعة أو معصية، ويسمون أيضاً بالقدرية لقولهم أن كل حادث حسناً كان أو قبيحاً هو بقضاء الله وقدره. وهم الذين وقفوا مع معاوية في حربه ضد الإمام علي عليه السلام، وقالوا أن كل ما حصل بينهما كان بقضاء الله وقدره ولا ذنب لهما فيه (2).

وهذا معاوية نفسه يقول في إحدى خطبه: (أن الله يقول: (وإن من شئ إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم) [الحجر / 2] فلم نلام نحن؟ فقام إليه الأحنف فقال: إنا لا نلومك على ما في خزائن الله، ولكن نلومك على ما أنزل الله علينا من خزائنه فأغلقت بابك دونه يا معاوية) (3). وأما الحجاج، فقد قال بعد أن قتل رجلاً لإظهاره حب الإمام علي عليه السلام: اللهم أنت قتلته ولو شئت لمنعتني منه (4).

وهكذا فإن بني أمية - كما يذكر المؤرخون - كانوا يركزون على مسألة الجبر لتبرير سلوكهم ومظالمهم ضد المسلمين ليكونوا معذورين، فقتلوا معبد الجهني (على يد الحجاج سنة 80 هجرية)، وغيلان الدمشقي (على يد هشام بن عبد الملك سنة 106 هجرية) لقولهما بحرية الإرادة (5).

---

(1) المصدر نفسه.
(2) أحمد اليماني، المنية والأمل في شرح الملل والنحل، ص 105.
(3) المصدر نفسه.
(4) المصدر نفسه، ص 87.
(5) مفيد الفقيه، العقل في أصول الدين، ص 27.

وقد انقسمت الجبرية إلى قسمين: متوسطة وهي التي تثبت للعبد كسباً في الفعل كالأشعرية، وخالصة لا تثبت للعبد أي فعل كالجهمية والنجارية والضرارية، وبهذا يلزمهم نفي التكليف الذي أوجبه الشرع [1].

3 - أهل الحديث:

وتشكلت هذه الفرقة أساساً من الذين عملوا على جمع الأحاديث تدوينها في القرن الثاني الهجري، وبنوا عقائدهم وأحكامهم بالاعتماد الكلي على ظواهر الآيات والروايات التي رواها الصحابة والتابعون الأوائل عن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ويحرمون تأويلها، فكثر فيهم من يقولون بأن الله جسم ينتقل ويحرك أعضاءه كاليد والرجل والوجه. وهم يحرمون المناظرات الكلامية أو المناقشات الفلسفية المتعلقة مثلاً بالقضاء والقدر أو التطرق بالحديث عن خلافات الصحابة ومواقع كالجمل وصفين وكربلاء. وهم بذلك عملوا على إعدام العقل في مجال التعامل مع الأحاديث والعقائد المأخوذة منها، أو أي قضية حصل حولها الجدال.

وقد كانت فرقة أهل الحديث تمثل الغالبية العظمى لأهل السنة زمن الأمويين وبداية العصر العباسي، وكانت على أقسام حسب درجة تعامل أصحابها مع الأحاديث لا سيما فيما يتعلق بتحقيق الأسانيد والرواة، فكان منهم ممن عرفوا بلقب (الحشوية) لأنهم كانوا يحشون الروايات التي لا أصل لها ويقبلونها على علاتها دون أي تحقيق.

وكان الإمام أحمد بن حنبل (160 - 241 هجرية) أشهر رجال الحديث المحققين حيث عمل على تنظيم الأحاديث المروية وتوحيد العقائد (السنية)، والتي يمكن إجمال أهمها في النقاط التالية حسب ما جاء في رسالة له [2]:

---

(1) شريف الأمين، معجم الفرق الإسلامية، ص 81.
(2) أحمد حنبل، السنة، ص 44 - 50 (بتصرف).

في صفات الله جل وعلا: الله تعالى سميع وبصير وجواد وحليم وحفيظ ويقظان وقريب ويتكلم ويسمع وينظر ويبصر ويضحك ويفرح ويحب ويكره ويبغض ويرضى ويغضب ويسخط ويرحم ويعفو ويعطي ويمنع وينزل إلى السماء الدنيا كيف يشاء، وقلوب العباد بين أصبعين من أصابع الرب عز وجل يقلبهما كيف يشاء ويوعيها ما أراد. وخلق الله عز وجل آدم بيده، والسماوات والأرض يوم القيامة في كفه، ويخرج قوماً من النار بيده.

في الاستواء على العرش: خلق الله سبع سماوات، وسبع أراضين، والماء فوق السماء السابعة وعرش الرحمن تبارك وتعالى فوق الماء، والله عز وجل على العرش.

في رؤية الله جل وعلا: ينظر أهل الجنة إلى وجهه، ويرونه فيكرمهم ويتجلى لهم فيعطيهم، ويعرض عليه العباد يوم الفصل والدين، ويتولى حسابهم بنفسه، لا يولي ذلك غيره.

في القرآن الكريم: هو كلام الله، ليس بمخلوق، فمن زعم أن القرآن مخلوق فهو جهمي كافر.

في القضاء والقدر: الله عز وجل قضى قضاءه على عباده، لا يجاوزون قضاءه، بل كلهم صائرون إلى ما خلقهم له، واقعون فيما قدر عليهم لا محالة، وهو عدل منه عز وجل. ومن زعم أن الله عز وجل شاء لعباده الذين عصوا الخير والطاعة، وأن العباد شاؤوا لأنفسهم الشر والمعصية فقد زعم أن مشيئة العباد أغلب من مشيئة الله عز وجل. فأي افتراء على الله أكبر من هذا؟

ومن زعم أن السرقة وشرب الخمر وأكل المال الحرام ليس بقضاء الله، فقد زعم أن هذا الإنسان قادر على أن يأكل رزق غيره. ومن زعم أن قتل النفس ليس بقدر الله عز وجل، فقد زعم أن المقتول مات بغير أجله.

في الخلافة: الخلافة في قريش ما بقي من الناس اثنان، ليس لأحد من الناس أن ينازعهم فيها، ولا يخرج عليهم ولا تقر بغيرهم إلى قيام الساعة.

في الصحابة وما شجر بينهم: ومن السنة ذكر محاسن أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) كلهم أجمعين، والكف عن الذي شجر بينهم، فمن سب أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) أو واحداً منهم، فهو مبتدع رافضي، حبهم سنة والدعاء لهم قربة، والاقتداء بهم وسيلة، والأخذ بآثارهم فضيلة، وخير هذه الأمة بعد نبيها (صلى الله عليه وآله وسلم) أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي رضوان الله عليهم، خلفاء راشدون مهديون. ثم أصحاب محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) بعد هؤلاء الأربعة، لا يجوز لأحد أن يذكر شيئاً من مساويهم ولا يطعن على أحد منهم، فمن فعل ذلك فقد وجب على السلطان تأديبه وعقوبته، ليس له أن يعفو عنه، بل يعاقبه ثم يستتبه فإن تاب قبل منه، وإن لم يتب أعاد عليه العقوبة، وجلده في المجلس حتى يتوب ويراجع.

في الفرق والمذاهب الأخرى: الكف عن أهل القبلة، ولا نكفر أحداً منهم بذنب ولا نخرجهم عن الإسلام بعمل إلا أن يكون في ذلك حديث فيروى كما جاء.

وبقيت هذه العقائد على مر العصور وليومنا هذا ممثلة لعقائد أهل السنة والجماعة ولكن بإضافة بعض (التعديلات والإصلاحات) التي أدخلها الأشاعرة والسلفية فيما بعد.

4 - الأشاعرة:

ومؤسس هذه الفرقة هو أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري (260 - 324 هجرية) الذي ينحدر من نسل الصحابي أبي موسى الأشعري أحد الحكمين يوم صفين. وقد كان تلميذاً عند أحد مشاهير المعتزلة وهو الشيخ أبو علي الجبائي قبل انشقاقه عنهم وإعلانه براءته من الاعتزال، وذلك بمقولته الشهيرة في المسجد الجامع بالبصرة يوم جمعة حيث نادى أمام الناس بأعلى صوته: (من عرفني فقد عرفني، ومن لم يعرفني فأنا أعرفه نفسي، أنا فلان بن فلان، كنت قلت بخلق القرآن، وأن الله لا يرى بالأبصار وأن أفعال الشر أنا أفعلها، وأنا تائب مقلع، معتقد للرد على المعتزلة) (1).

(1) فهرست ابن النديم ص 271.

ثم أعلن الأشعري اعتناقه لعقائد أهل الحديث كمبدء جديد له حيث قال: (قولنا الذي نقول به، وديانتنا التي ندين بها: التمسك بكتاب ربنا عز وجل، وسنة نبينا (صلى الله عليه وآله وسلم) وما روي عن الصحابة والتابعين وأئمة أهل الحديث ونحن بذلك معتصمون، وبما كان يقول به أبو عبد الله أحمد بن حنبل قائلون، ولمن خالف قوله مجانبون لأنه الإمام الفاضل والرئيس الكامل الذي أبان الله به الحق، ودفع به الضلال، وأوضح به المنهاج، وقمع به المبتدعين وزيغ الزائغين، وشك الشاكين) (1).

وقد أصبح للأشعري أتباع عندما أدخل على معتقدات فرقة أهل الحديث تعديلات وإصلاحات بإضافة العنصر العقلي في البرهان والإثبات، ذلك أن أهل الحديث كانوا يحرمون الخوض في العقائد الإسلامية عن طريق تقديم الأدلة العقلية والبراهين الفلسفية، ويكتفون بالمعاني الظاهرية للنصوص حتى لو خالفت المنطق والعقل، وهم بذلك على عكس المنهج الاعتزالي الذي يعطي العقل الوزن الأكبر في إثبات العقائد، وتأويل الآيات والروايات في حال مخالفة معانيها الظاهرية للمنطق العقلي.

وقد لاقت إصلاحات الأشعري قبول عامة الناس والسلطة الحاكمة حتى أصبح مذهب الأشاعرة المذهب الرسمي للدولة العباسية وطغى على المذاهب الاعتقادية الأخرى.

ومن أمثلة هذه الإصلاحات تنزيه الله سبحانه وتعالى عن كونه جسماً بالصورة التي يعتقدها أهل الحديث، فبالرغم من أن الأشعري لم يؤول الآيات والأحاديث التي يقول ظاهرها بأن لله يداً ورجلاً واستواء على العرش، إلا أنه أضاف كلمة خاصة أخرجته من مغبة التجسيم والتشبيه وهي أن لله سبحانه هذه الصفات لكن بلا تشبيه ولا تكييف، وقال: النزول صفة من صفاته،

(1) جعفر السبحاني، بحوث في الملل والنحل، ج 1 ص 170 - 71.

والاستواء صفة من صفاته، وفعل من أفعاله في العرش يسمى الاستواء [1].

وبشأن رؤية الله قال: يرى من غير حلول ولا حدود ولا تكييف [2].

ومن إصلاحاته في فهم القضاء والقدر، فإنه لما كان قول أهل الحديث بأن الله سبحانه وتعالى هو الخالق لأفعال العباد خيرها وشرها يعني أن الإنسان مجبور في أفعاله ولا معنى عندئذ للحساب والعقاب، فإن الأشعري حاول أن يعالجه بالقول أن الله سبحانه وتعالى هو الخالق للفعل، ولكن العبد هو الكاسب له.

ويقصد بذلك أن كل فعل صادر من الإنسان يشتمل على جهتين: جهة الخلق وجهة الكسب، فالخلق والإيجاد منه سبحانه وتعالى، والاكتساب من الإنسان.

وفي الحقيقة أن هذا التلاعب بالألفاظ لم يصلح من الأمر شيئاً، وقد عد الأشعري من القائلين بالجبر أيضاً لاعترافه بأن الله هو خالق فعل العبد خيره وشره، حيث أن (الكسب) الذي قال فيه لن يغير في شئ أصبح مخلوقاً.

وبالرغم من أن الإمام الأشعري تبنى إلى حد كبير عقائد أهل الحديث وكان مناصراً لهم، إلا أنه لقي منهم، لا سيما الحنابلة التحامل عليه، وعلى أتباعه من بعده التنكيل والنفي والقتل لأنه اتبع أسلوب الوسط بين المعتزلة وأهل الحديث، واتهموه بالتأثر بمذهب الاعتزال لمجرد محاولته إقحام العقل في مسائل العقيدة [3].

ولما جاء دور الخليفة العباسي القادر سنة 508 هجرية [4]، تدخل رسمياً لإنهاء النزاع كله، وجمع أهل الحديث وأنصارهم من الأشاعرة لوضع كتاب خاص للعقائد. وانتشر منذ ذلك الحين مذهب الأشاعرة بشكل واسع بين جمهور أهل السنة وأصبح التقليد في العقائد مرفوضاً من قبل السلطة.

---

(1) المصدر نفسه.
(2) الألكاني، شرح أصول السنة، ص 108.
(3) مفيد الفقيه، العقل في أصول الدين، ص 32.
(4) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج 3، ص 398.

وقد انشقت عن الأشاعرة فرقة الماتريدية وهي نسبة إلى أبي منصور الماتريدي السمرقندي المتوفى سنة 322 هجرية، وكان أحد تلامذة الإمام أبو الحسن الأشعري. ولم تختلف مع الأشاعرة إلا باختلافات طفيفة كان فيها ميلاً نحو المعتزلة. وقد انقرضت هذه الفرقة مع الأيام.

5 - السلفية والوهابية:

فأما السلفية فهي حركة ظهرت في أواخر القرن السابع الهجري على يد أحمد بن تيمية كرد فعل على الإصلاحات العقلية التي أدخلها الإمام الأشعري على عقائد أهل الحديث، واعتبر ابن تيمية، والذي كان من فقهاء الحنابلة أن تلك الإصلاحات خروجاً عن السنة، فعمل على إحياء عقائد أهل الحديث مستنكرا التأويلات التي قدمها الأشاعرة للأحاديث التي أخذت منها تلك العقائد.

وأطلق ابن تيمية على طريقته عنوان (منهاج السلف الصالح)، فعرفت دعوته بالسلفية لأنه كان يدعو إلى العودة إلى سيرة السلف الصالح والتمسك بكتاب الله وسنة رسوله (صلى الله عليه وآله وسلم) والتي - على رأيه - حاد عنها الأشاعرة والفرق الأخرى، ولم يقف عند هذا الحد، بل عمل على إظهار عقائد جديدة لم يناد بها ابن حنبل ولا أحد قبله، كقوله بأن السفر لزيارة قبر الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) والاحتفال بمولده الشريف والتبرك بآثاره والتوسل به وبأهل بيته وزيارة القبور بدعاً وشركاً ومخالفة لعقيدة التوحيد، وأنكر كثيراً من الفضائل الواردة في أهل البيت عليه السلام المروية في الصحاح والمسانيد. وبسبب هذه التعديلات والإضافات، فقد عد ابن تيمية عند أتباعه مجدداً عظيماً ولقبوه بشيخ الإسلام.

ولكن دعوته على مستوى الأمة لم تلاق القبول وبقيت محصورة في مناطق محدودة من الشام ومصر، وقد تصدى للرد عليه فقهاء ومحققو أهل السنة والفرق الأخرى، وسجن في مصر لسنة ونصف لإدانته بالتجسيم والتشبيه، ثم سجن ثانية في دمشق حيث أدركته المنية هناك عام 728 هجرية. وما لبثت دعوته أن خبت وضعفت بعد حقبة قصيرة من الزمن.

وأما الوهابية، فهي حركة ظهرت في القرن الثاني عشر الهجري على يد محمد بن عبد الوهاب (1115 - 1206 هجرية)، وعملت على إحياء ونشر الفكر السلفي لابن تيمية وتلميذه ابن القيم الجوزية في الجزيرة العربية، والذي تسرب لاحقاً إلى بلاد إسلامية أخرى.

وكان ابن عبد الوهاب أكثر حدة وتعصباً من ابن تيمية، حيث قام بتكفير عامة المسلمين ممن ليسوا على طريقته، بدعوى الشرك وعدم إخلاص التوحيد لله، ودعا إلى إزالة ما يرونه بدعاً بقوة السيف. ومن ذلك تهديمهم لآثار أهل البيت النبوي في مكة والمدينة.

وقامت قبيلة آل سعود باستغلال هذا الفكر المتطرف فأعلنوا اعتناقهم لمذهب السلفية، وشكلوا تحالفاً مع حركة ابن عبد الوهاب مما ساعدهم على احتلال معظم أجزاء الجزيرة العربية، والتي أنشأوا فيها لاحقاً وبالتعاون مع بريطانيا ما يعرف اليوم باسم المملكة العربية السعودية.

وبعد أن كانت هذه الحركة محصورة في بدايتها ضمن نطاق الجزيرة العربية، إلا أنها أصبحت اليوم وبفضل إمكانيات الدولة السعودية تتمتع بامتدادات واسعة في مناطق عديدة من العالم الإسلامي.

وبالرغم من أن الوهابيين يطرحون حركتهم كحركة إصلاحية، إلا أن علماء المسلمين من أهل السنة قبل غيرهم قد تصدوا للرد على ابن عبد الوهاب وتفنيد عقائده وأفكاره ومن ضمنهم أخيه سليمان بن عبد الوهاب في كتابه (الصواعق الإلهية).

وفيما يلي نذكر عينات من أفكار شيخ الإسلام ابن تيمية وأقواله التي تعد الركن الأساس في فهم العقائد الإسلامية وطرحها على الطريقة السلفية والوهابية:

ففي مجموعة رسائله (الحموية) في العقيدة يقول ابن تيمية: أن جميع النصوص تدل على أن الله فوق العرش في أعلى السماء، وأنه يمكن الإشارة إلى جهته بالأصابع، وأنه يرى يوم القيامة، وأن الله يضحك، وإذا أنكر أحد

وجود الله على العرش في أعالي السماوات وجب حمله على التوبة، وإذا لم يتب وجب ضرب عنقه، ويقول أيضاً: أن التأويلات التي وردت بهذا الشأن مثل تأويل الآية (الرحمن على العرش استوى) [طه / 5] بمعنى استولى، هو تأويل باطل.

وبالرغم أن ابن تيمية طعن بمن يقولون بالتجسيم صراحة، وضعف الأحاديث التي يستندون عليها، إلا أنه يؤكد أن لله جوارح كاليد والعين والوجه والأصابع والرجل ولكن ليس كجوارح المخلوقات (1).

وأما فيما يتعلق بمواقفه من أهل البيت عليه السلام وأعدائهم الأمويين، فإنه يقول في ذكره لحروب الإمام علي عليه السلام: (وعلي (رض) لم يكن قتاله يوم الجمل وصفين بأمر من النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وإنما كان رأياً له، وهو الذي ابتدأ أهل صفين بالقتال، وعلي إنما قاتل الناس على طاعته، لا على طاعة الله).

ويضيف قائلاً: (فمن قدح في معاوية بأنه كان باغياً، قال له النواصب: وعلي أيضاً كان باغياً ظالماً قاتل المسلمين على إمارته وصال عليهم. فمن قتل النفوس على طاعته كان مريداً للعلو في الأرض والفساد، وهذا حال فرعون، وليس هذا كقتال أبي بكر الصديق للمرتدين ومانعي الزكاة، فالصديق إنما قاتلهم على طاعة الله ورسوله، لا على طاعته، فإن الزكاة فرض فقاتلهم على الإقرار بها، بخلاف من قاتل ليطاع هو) (2).

وأما في معاوية ابن أبي سفيان، فإنه يقول: (فلم يكن ملك من ملوك المسلمين خير من معاوية، ولا كان الناس في زمان ملك من الملوك خيراً منهم في زمن معاوية)، ثم ذكر روايتين الأولى تصف معاوية أنه فقيه، والثانية على لسان أبي الدرداء بقوله: ما رأيت أحداً أشبه صلاة بصلاة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) من إمامكم هذا، يعني معاوية (3).

(1) العقيدة الحموية الكبري لابن تيمية.
(2) صائب عبد الحميد، ابن تيمية: حياته: وعقائده، ص 322، نقلاً عن منهاج السنة.
(3) ابن تيمية، منهاج السنة، ج 6 ص 222، 235.

وهكذا فقد عرف ابن تيمية بدفاعه الصريح عن أعداء أهل البيت (صلى الله عليه وآله وسلم) وبكل ما أوتي من قدرة على الجدال والالتفاف حول الكلمات والعبارات، ومختلقاً لهم الأعذار ومبرراً عداءهم لأهل البيت عليه السلام. ومن ذلك دفاعه عن يزيد بقوله: وما يدريك لعله تاب قبل موته. وقد صنف كتاباً أسماه (فضائل معاوية وأنه لا يسب).

المذاهب الفقهية السنية:

ظهر في تاريخ أهل السنة مذاهب فقهية عديدة انقرض غالبيتها، ولم يبق منها إلا أربعة وأما المذاهب المنقرضة، فهذه لمحة عن أشهر أصحابها:

1 - الليث بن سعد (92 - 175 هجرية): وهو فقيه مصر، وقد برز هناك عندما تصدى للدفاع عن عثمان بن عفان لكثرة انتقاص أهل مصر له. وقال فيه الشافعي: الليث أفقه من مالك. ويقال أن سبب انقراض مذهبه هو عدم قبوله منصب القضاء في خلافة أبي جعفر المنصور العباسي.

2 - داوود بن علي الظاهري (202 - 270 هجرية): ولد بالكوفة، ونشأ ببغداد واستمر العمر بمذهبه حتى القرن السابع الهجري حتى أن بعضهم عده رابع الأئمة بدلاً من الإمام أحمد بن حنبل (1).

3 - عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي (المتوفى سنة 257 هجرية): وقد انتشر هذا المذهب في الشام والأندلس، وبقي هناك لغاية 302 هجرية قبل أن يحل مكانه مذهب الإمام الشافعي.

4 - سفيان الثوري (65 - 161 هجرية): ولد في الكوفة، وكان أحد تلامذة الإمام جعفر الصادق عليه السلام، وهو أحد الأئمة المجتهدين، وله مذهب لم يدم العمل به لقلة أتباعه، وأراد الخليفة أبو جعفر المنصور قتله، فهرب. وبقي مذهبه معمولاً به لغاية القرن الرابع. وقد لقب بأمير المؤمنين

---

(1) محمد إبراهيم، أئمة المذاهب الأربعة، ص 30.

في الحديث وسيد الحفاظ، وقال ابن المبارك: كتبت عن ألف شيخ كان سفيان الثوري أفضلهم. وقال القطان: الثوري أحب إلي من مالك (1).

5 - الحسن البصري (المتوفى سنة 110 هجرية): وهو من التابعين وكان أبوه مولى لزيد بن ثابت الأنصاري، وأمه خيرة مولاة أم سلمة زوج النبي (صلى الله عليه وآله وسلم). عرف عنه أنه كان من المتظاهرين بتأييد سياسة بني أمية في الوقت الذي كان في حقيقة الأمر موالياً لأهل البيت عليه السلام، وكان يروي في مجلسه المشهور عن علي بن أبي طالب عليه السلام. وكان هذا نادراً في عصر كان فيه لعن الإمام علي عليه السلام سنة حسب التشريع الأموي.

6 - عامر بن شرحبيل الشعبي (المتوفى سنة 105 هجرية): كان قاضياً لعمر بن عبد العزيز ومحدث أهل الكوفة، وكان يفتي على ما صح عنده من الرواية، ولا يقول برأيه.

وكان هناك من المذاهب الفقهية غير هؤلاء حتى أنها عدت 50 مذهباً لم يعد لأي منها وجود (2). وكان السبب الرئيسي لانقراضها هو الأمر الرسمي الذي أصدره الخليفة العباسي المنتصر بالله في القرن السادس الهجري بإغلاق باب الاجتهاد وحصر التقليد في المذاهب الفقهية الأربعة (7)، الأمر الذي لا يزال كذلك إلى يومنا هذا فيما بقي باب الاجتهاد مفتوحاً لدى الشيعة.

المذاهب الأربعة:

1) المذهب الحنفي: وصاحب الإمام أبو حنيفة النعمان (80 - 150 هجرية)، ولد في الكوفة وتوفي في بغداد وأصله فارسي. وكان يعتبر فقيه العراق وصاحب المذهب المتبع في أكثر البلدان الإسلامية، ولقب بالإمام الأعظم (4).

---

(1) أسد حيدر، الإمام الصادق والمذاهب الأربعة، ج 1 ص 160.
(2) المصدر نفسه.
(3) مفيد الفقيه، الفعل في أصول الدين، ص 32.
شريف الأمين، معجم الفرق الإسلامية، ص 104.

وكان الإمام أبو حنيفة يستنبط فقهه من القرآن الكريم وما صح عنده من الحديث مع توسع في استعمال الرأي والقياس. وقد تلقى الدرس لمدة سنتين عند الإمام جعفر الصادق حيث اشتهر عنه قوله في مدح الإمام: (لولا السنتان لهلك النعمان). وكان أقوى عوامل انتشار مذهبه هو استلام تلميذه أبو يوسف لمنصب رئاسة القضاء في حكومة هارون الرشيد والذي كان مقرباً جداً من الخليفة. ومن أشهر رجال الخليفة محمد الشيباني وزفر بن الهذيل والحسن اللؤلؤي. وقد ألف الشيباني عدة كتب فقهية لها درجة الاعتبار الأكبر عند الحنفية، وله آراء كثيرة خالف فيها الإمام أبو حنيفة.

وفي العصور اللاحقة، تبنت الدولة العثمانية المذهب الحنفي ودعمته بكل قوة حتى صار مذهبها الرسمي، وساعدت على انتشاره وذلك بسبب عدم اشتراط الحنفية في الخليفة أن يكون قرشياً.

2) المذهب المالكي: وصاحبه الإمام مالك بن أنس (39 - 179 هجرية) المولود في المدينة وهو يمني الأصل. وقد تلقى العلم عن الشيخ ربيعة الرأي والإمام جعفر الصادق عليه السلام. وكان يستنبط الأحكام بصورة رئيسة وموسعة على القرآن والسنة، ولم يكن للرأي والقياس عنده بالمكانة نفسها التي كانت عند الحنفية، وله كتاب (الموطأ) أورد فيه الكثير من الأحاديث النبوية. وقد حاول الخلفاء العباسيون الذين سبقوا الرشيد تبني مذهب مالك والعمل على نشره، حتى أن المنصور طلب من مالك نشر مذهبه بالقوة للحيلولة دون انتشار مذهب الإمام الصادق والذي بلغت مدرسته الفقهية آنذاك أوجها، إلا أن مالك رفض طلب الخليفة ثم حاول الرشيد فعل ذلك مجدداً خلال سنوات حكمه الأولى حين كان يعلن: (لا يفتي إلا مالك).

وكان انتشار مذهبه على أيدي القضاة والأمراء في الأندلس وشمال إفريقيا حيث حل مذهبي الأوزاعي والظاهري اللذين كانا سائدين هناك.

ولا زال المذهب المالكي المذهب الرئيسي في بلاد المغرب العربي.

وأهم دعاة المذهب هم: القاضي أبو بكر العربي وابن عبد البر القرطبي والقاضي عياض السبتي وأبو الوليد الباجي وابن القطان الفاسي [1].

3) المذهب الشافعي: وصاحبه محمد بن إدريس الشافعي (150 - 204 هجرية) المولود في غزة، وقد انتشر مذهبه أولاً في مصر ثم صار له أتباع في العراق وخراسان وشمال إفريقيا والأندلس. وهو يتميز من بين المذاهب الأربعة بتنظيمه على أصول موضوعة وقواعد ثابتة ومضبوطة ضبطاً دقيقاً، والمذهب بجملته وسط بين أهل الرأي وأهل الحديث [2]. وقد كان للدولة الأيوبية في مصر بقيادة صلاح الدين العامل الأقوى في نشر مذهبه هناك حيث منع تدريس المذهب الشيعي في الجامع الأزهر الذي أسسه الفاطميون، واستبدل بتدريس مذاهب الشافعي وأبي حنيفة ومالك، وبنى لهم المدارس ورغب الناس فيها [3].

ومن أشهر رجال الشافعية أبو حامد الغزالي وأبو بكر أحمد بن الحسين والبيهقي.

4) المذهب الحنبلي: وصاحبه الإمام أحمد بن حنبل (164 - 241 هجرية) المولود في بغداد، وهو آخر المذاهب الأربعة وأقلها أتباعا. وقد كان ابن حنبل في رأي العلماء القدماء - كابن جرير وابن قتيبة والمقدسي وابن عبد البر - من رجال الحديث لا من الفقهاء [4] وقال فيه ابن خلدون: فأما أحمد بن حنبل فمقلدوه قليلون لبعد مذهبه عن الاجتهاد وأصالته في معاضدة الرواية بعضها ببعض [5]. وما يشهد على ذلك أنه لم يكتب أي كتاب في الفقه، وإنما اشتهر بكتابه المعروف بمسند أحمد والذي يحوي على أربعين

(1) المصدر السابق، ص 209.
(2) محمد إبراهيم، أئمة المذاهب الأربعة، ص 40.
(3) أسد حيدر، الإمام الصادق والمذاهب الأربعة، ج 1 ص 168.
(4) المصدر نفسه، ص 169.
(5) المصدر السابق.

ألف حديث. وله أيضاً كتب أخرى كطاعة الرسول، الناسخ والمنسوخ، والعلل. وقد كاد هذا المذهب - لقلة أتباعه - أن يضمحل بالتدريج لولا تولي عبد الله الحجازي القضاء عام 738 هجرية.

ومن أشهر رجال الحنابلة الذين قاموا بنشر المذهب ابن تيمية وتلميذه ابن القيم الجوزية. وفي العصور المتأخرة محمد بن عبد الوهاب صاحب الدعوة الوهابية الذي قام بنشر المذهب الحنبلي في نجد.

ثانياً: الشيعة

نشوء التشيع

يرى علماء أن فكرة الولاء لأهل البيت عليه السلام، واستخلاف النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) لعلي عليه السلام إنما هي من جوهر العقيدة الإسلامية قام بوضع بذرتها الأولى رسول الإسلام (صلى الله عليه وآله وسلم)، وإنه عمل على تعزيز هذه الفكرة بأكثر من موقف حتى أعلنها رسمياً بعد حجة الوداع في مكان يدعى غدير خم وبصورة واضحة وصريحة لا تحتمل أي معنى آخر. ويقدمون لذلك أدلة من القرآن الكريم وكتب صحاح الحديث عند أهل السنة، ويرون أيضاً أن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) هو أول من أعطى اسم شيعة لقباً لأتباع علي عليه السلام والموالين لأهل البيت وذلك عندما قال مشيراً إلى علي بشأن الآية (أولئك هم خير البرية) [البينة / 7]: (والذي نفسي بيده أن هذا وشيعته هم الفائزون يوم القيامة) (1). ولكن ابن حجر قال في تعليقه على هذه الرواية التي ذكرها في كتابه دون أن يشكك في صحتها: (وشيعته هم أهل السنة ولا تتوهم الشيعة قبحهم الله... إلى آخر ما قال (2).

(1) السيوطي، الدر المنثور في التفسير المأثور، ج 6 ص 379.
(2) ابن حجر المكي، الصواعق المحرقة، ص 152.

ويرى البعض الباحثين أن التشيع كتكتل وخط واضح قد بدأ في اليوم الأول من وفاة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) عندما ظهر اسم علي عليه السلام كمرشح للخلافة وكأحق شخص بها، حيث قام الفضل بن العباس فخطب في الناس المجتمعين في السقيفة قائلاً: يا معشر قريش إنه ما حقت لكم الخلافة بالتمويه، ونحن أهلها دونكم وصاحبنا (يعني علي) أولى بها منكم (1).

ويرى آخرون أن أول تشيع حول علي وأهل بيته عليه السلام كان عندما اجتمع عدد بارز من الصحابة في بيت علي وفاطمة بنت النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) يوم انعقاد السقيفة (2). ويحدثنا اليعقوبي عن ذلك بقوله: (وتخلف عن بيعة أبي بكر قوم من المهاجرين والأنصار ومالوا مع علي ومنهم العباس والفضل بن العباس والزبير وخالد بن سعيد والمقداد وسلمان وأبو ذر وعمار والبراء وأبي بن كعب) (3). ويقول أحمد أمين: (وكانت البذرة الأولى للشيعة الجماعة الذين رأوا بعد وفاة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أن أهل بيته أولى الناس أن يخلفوه) (4).

ولكن هناك باحثون آخرون يرون أن التشيع كان وليد الأحداث التي حصلت زمن الخليفة عثمان بن عفان، وآخرون يرون ذلك زمن استلام الإمام علي عليه السلام للخلافة والأحداث التي تلت لا سيما معارك الجمل وصفين والنهروان. ويعزي آخرون التشيع إلى الأحداث التي تمخضت عنها مأساة كربلاء. وما يلفت الانتباه أن بعضهم ذهب إلى نسب التشيع إلى جذور يهودية من خلال رجل يهودي يدعى عبد الله بن سبأ الذي تظاهر بدخول الإسلام زمن خلافة عثمان، ثم تنقل بين البلدان الإسلامية يبث بينهم أفكاراً

(1) تاريخ اليعقوبي ج 2 ص 124.
(2) هاشم الموسوي، التشيع: نشأته... معالمه، ص 26.
(3) تاريخ اليعقوبي، ج 2 ص 124.
(4) أحمد أمين، فجر الإسلام، ص 226.

ضالة يدور محورها حول الوصاية لعلي بن أبي طالب بالخلافة (1)، وهناك من المستشرقين من ينسب التشيع إلى جذور فارسية (2).

الانحراف عن الخط الشيعي:

إن الشيعة لا يرون أن كل من والى الإمام علي عليه السلام وفضله على غيره من الضروري أن يكون من الشيعة أو حتى من المسلمين، فقد انتسبت إلى التشيع فرق ضالة كثيرة عدها كتاب الفرق من فرق الشيعة كالمغيرية والخطابية والبزيغية والعلباوية والمخمسة وغيرها من فرق الغلاة والمفوضة، غير أن أئمة أهل البيت عليه السلام برؤوا منهم ولعنوهم وأفتوا بكفرهم وخروجهم عن الإسلام وقد اندثر أكثر هذه الفرق مع الأيام في حين استمر خط التشيع بنقائه وأصالته المعهودة يكافح كفاحاً علمياً ضد انحراف تلك الفرق وغيرها من الفرق الضالة التي ولدت في البيئة الإسلامية (3).

وسنعرف في ما يأتي بهذا الخط الذي سمعي بمذهب الإمامية الاثني عشرية لاعتقاده بإمامة اثني عشر إماماً من سادة أهل البيت عليه السلام، وسمي كذلك بالمذهب الجعفري نسبة إلى الإمام جعفر بن محمد الصادق سادس أئمة أهل البيت عليه السلام، لما أظهر من العلم والفقه، كما نسبت المذاهب الفقهية إلى أصحابها، كالمذهب الحنفي والمالكي والشافعي والحنبلي والزيدي... الخ (4).

الإمامية الاثني عشرية

وهم الشيعة القائلون بإمامة الأئمة الاثني عشر، وهم: علي والحسن والحسين، وعلي بن الحسين (زين العابدين)، ومحمد بن علي (الباقر)، وجعفر بن محمد (الصادق)، وموسى بن جعفر (الكاظم)، وعلي بن موسى

---

(1) تاريخ الطبري، ج 3 ص 378.
(2) أحمد الوائلي، هوية التشيع، ص 51.
(3) هاشم الموسوي، التشيع: نشأته ومعالمه، ص 43.
(4) م. س: ص 43 - 44.

(الرضا)، ومحمد بن علي (الجواد)، وعلي بن محمد (الهادي)، والحسن بن علي (العسكري)، ومحمد بن الحسن (المهدي المنتظر) عليهم السلام.

وعندما تذكر كلمة الشيعة مجردة، فإنما يقصد بها هذه الفرقة الإمامية الاثني عشرية والتي يمثل أتباعها الغالبية العظمى للشيعة في أيامنا، ويقيمون كأغلبية ساحقة في كل من إيران والبحرين وآذربيجان، ويشكلون ثلثي سكان العراق وأكثر من نصف مسلمي لبنان، وما يقارب ثلث السكان في السعودية والكويت والباكستان، وما لا يقل عن ربع مسلمي الهند بالإضافة إلى أقليات متوزعة في مختلف ربوع العالم الإسلامي.

أصول العقائد عند الإمامية الاثني عشرية

وتسمى عندهم بأصول الدين وهي خمسة:

1 - التوحيد: وهو الاعتقاد بوحدانيته في الألوهية، وعدم اتخاذ شريك له في الربوبية واليقين بأنه المستقل بالخلق والرزق والموت والحياة. فمن اعتقد أن شيئاً من الرزق أو الخلق أو الموت أو الحياة بيد غير الله تعالى فهو كافر ومشرك، وكذا يجب إخرص الطاعة والعبادة لله. وأما طاعة الأنبياء والأئمة والتبرك والتوسل إلى الله بمنزلتهم وكرامتهم عنده فهو جائز وليس من العبادة في شئ.

ومن مقتضيات التوحيد الإيمان باستحالة رؤيته جل وعلا حسياً في الدنيا أو في الآخرة، وتنزيهه سبحانه وتعالى عن التجسيم والتشبيه. فالصفات الواردة في الكتاب والسنة كالوجه والأيدي والاستواء وأمثالها تؤول ولا تؤخذ على ظاهرها. فمثلاً الآية: (بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء) [المائدة / 64] تؤول على أن الله سبحانه وتعالى كريم قادر على البذل وبرئ من البخل.

2 - النبوة: بمعنى أن جميع الأنبياء رسل من الله سبحانه وتعالى بعثوا لدعوة الخلق الحق، وأن محمداً (صلى الله عليه وآله وسلم) خاتم الأنبياء وسيد المرسلين

وأفضل الخلق أجمعين، وأنه معصوم من الخطأ في أمور الدين والدنيا، وأنه لم يرتكب معصية طيلة عمره الشريف قبل البعثة وبعدها، ومن اعتقد النبوة أو نزول كتاب لأحد بعده فهو كافر مرتد. ومن مقتضيات النبوة الإيمان بأن القرآن الكريم الموجود في أيدي المسلمين اليوم هو الكتاب الذي أنزله الله تعالى على رسوله وأنه لا نقص فيه ولا تحريف ولا زيادة.

3 - المعاد: بمعنى أن الله سبحانه وتعالى يعيد الخلائق بعد موتهم ويحييهم بأجسادهم وأرواحهم يوم القيامة للحساب، والإيمان بوجود الجنة والنار ونعيم البرزخ وعذابه والميزان والصراط والأعراف والكتاب الذي لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، وغير ذلك من التفاصيل.

4 - العدل: بمعنى استحالة ظلم الله سبحانه وتعالى لأحد من الخلق أو فعله لشئ يستقبحه العقل السليم. ومن مقتضيات العدل الإيمان بأن الإنسان هو الخالق لأفعاله بإذن الله سبحانه وتعالى، وإلا لما كان للعبد أي دور فيها، ومن الظلم محاسبته عليها، ومعنى ذلك أن الإنسان هو مصدر أفعاله ولكن بقدرة مكتسبة من الله عز وجل، والإنسان بهذه القدرة المكتسبة مخير بفعل الحسن أو اقتراف القبيح.

5 - الإمامة: بمعنى أنها منصب إلهي يختاره الله تعالى بسابق علمه بعباده كما يختار الأنبياء، وأنه سبحانه وتعالى لا يخلي الأرض من نبي أو وصي ظاهر مشهور أو غائب مستور، وأن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) قد أوصى لعلي، وعلي أوصى للحسن، وهكذا إلى الإمام الثاني عشر.

ومن مقتضيات الإمامة الإيمان بعصمة الأئمة من الذنوب والأخطاء كعصمة الأنبياء وذلك لأن الإمامة تعتبر استمراراً لوظيفة النبوة من حيث حفظ الرسالة وصيانتها من التحريف وتعليمها للناس، وبذلك فالإمام يملأ الفراغات التي يتركها النبي جميعها.

المذاهب الفقهية عند الإمامية الاثني عشرية

الفقه عند الشيعة هو العلم بالأحكام الشرعية الفرعية من أدلتها التفصيلية، وتسمى هذه الأحكام بفروع الدين، والعالم بها هو الفقيه ويقال له المجتهد أو المرجع، ويجوز للعوام تقليده.

وقد اشتهرت فرقة الإمامية الاثني عشرية بلقب الجعفرية باعتبار أن مذهبهم الفقهي أخذ عن الإمام السادس جعفر الصادق عليه السلام أكثر مما أخذ عن غيره، إن كانت عندهم مرتبة الأخذ عن الإمام الصادق هي نفسها عن أي من الأئمة الاثني عشر. وأما سبب كثرة أخذهم عن الإمام الصادق فهو لأن عصره كان في أواخر الدولة الأموية وقد بدأت بالضعف، وبداية الدولة العباسية ولم يكن قد بدأ فيها التعصب والعداء لأهل البيت عليه السلام، فكان للأئمة شئ من الحرية مكنهم من رواية الأحاديث ونشر المذهب.

وهكذا أصبحت كلمة (الجعفرية) تستخدم كلقب للمذهب الفقهي عند الشيعة الإمامية الاثني عشرية، وليس بالضرورة أن يكون المقلد على هذا المذهب معتقداً بالعقائد الشيعية، فالفوارق الفقهية بين المذهب الجعفري والمذاهب الأربعة عند أهل السنة يوجد ما يقابلها من فوارق بين المذاهب الأربعة نفسها، وحتى أنه - على سبيل المثال - تجد المذهب المالكي في معظم المسائل أقرب إلى المذهب الجعفري منه إلى المذاهب الثلاثة الأخرى. وهذا ما حدا بشيخ الجامع الأزهر الشريف محمود شلتوت بإعلان فتواه الشهيرة عام 1958 م بشأن المذهب الجعفري وهذا نصها: (إن مذهب الجعفرية المعروف بمذهب الإمامية الاثني عشرية مذهب يجوز التعبد به كسائر مذاهب أهل السنة. فينبغي للمسلمين أن يعرفوا ذلك، وأن يتخلصوا من العصبية بغير الحق لمذاهب معينة، فما كان دين الله وما كانت شريعته بتابعة لمذهب، أو مقصورة على مذهب، فالكل مجتهدون مقبولون عند الله

تعالى يجوز لمن ليس أهلاً للنظر والاجتهاد تقليدهم والعمل بما يقررونه في فقههم، ولا فرق في ذلك بين العبادات والمعاملات) (1).

وقد انقسم الجعفرية حسب تعاملهم مع الروايات وموقفهم من الاجتهاد إلى أصوليين وإخباريين:

الأصوليون: ويسمون أيضاً المجتهدين لأنهم يجوزون الاجتهاد.

ومصادر التشريع عندهم أربعة: القرآن والسنة والإجماع والعقل، ويعتبرون الروايات المأخوذة من كتب الحديث الرئيسية الأربعة (وهي الكافي، من لا يحضره الفقيه، الإستبصار، التهذيب) فيها الصحيح والحسن والموثوق والضعيف وغيرها، وأنه يجب البحث في أسانيدها عند إرادة العمل بها، والغالبية العظمى من علماء الشيعة يؤيدون هذا المنهج.

الإخباريون: وهم يحرمون الاجتهاد، وسموا بالإخباريين لأنهم يقتصرون في معرفتهم للأحكام الشرعية على الأخبار أو الروايات الواردة عن أهل البيت عليه السلام، وأسقطوا الاستدلال بالمصادر الثلاثة الأخرى وهي القرآن والإجماع والعقل. فهم لا يستدلون بالقرآن بذريعة أن القرآن لا يفهمه سوى أهل البيت والواجب الرجوع إلى أحاديثهم، ولا يستدلون بالإجماع لأنه عندهم بدعة أوجدها أهل السنة، وينكرون كذلك صلاحية العقل السليم ليكون حجة أو دليلا (2).

وقد ظهرت حركة الإخباريين قبل أربعة قرون على يد الملا أمين الاسترآبادي، ويقال إن مذهبهم ترجع جذوره إلى قبل ذلك وأن رئيسهم هو الشيخ الصدوق (المتوفى سنة 381 هجرية) وصاحب كتاب من لا يحضره الفقيه (3).

---

(1) رسالة الإسلام، العدد الثالث من السنة الحادية عشرة، ص 227 عام 1959 م.
(2) مرتضى مطهري، الاجتهاد في الإسلام، ص 13.
(3) محيي الدين الغريفي، الاجتهاد والفتوى، ص 97.

وقد بادر العلماء بالوقوف في وجه حركة الإخباريين، وعدوها حركة جامدة ومناوئة للعقل. وكان من بين هؤلاء العلماء الشيخ وحيد البهبهاني وتلميذه الشيخ مرتضى الأنصاري والشيخ جعفر وكاشف الغطاء وغيرهم.

ويقول مطهري: (ولولا وقوف عدد من العلماء المبرزين الشجعان في وجه تلك الموجة وصدها، لما كنا نعرف موقعنا ووضعنا الحاضر) (1).

ثالثاً: الخوارج

وهم الذين خرجوا على الإمام علي عليه السلام في معركة صفين بعد قبول التحكيم، واشتهروا بتكفيره عليه السلام، وتكفير كل من معاوية والحكمين عمرو بن العاص وأبي موسى الأشعري وكل من رضي بالتحكيم، وكذلك يكفرون أصحاب الجمل وعائشة وطلحة والزبير، بالإضافة إلى تكفيرهم لكل مسلم يرتكب كبيرة، وحكمهم عليه بالخلود في النار.

وقد قاتلهم الإمام علي عليه السلام في النهروان وهزمهم شر هزيمة ولم ينج من القتل منهم إلا عدد قليل، وعرفوا بلقب المارقة، وفيهم قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): (يأتي بعدي من أمتي قوم يقرأون القرآن لا يجاوز حلاقيمهم يخرجون من الدين كما يخرج - وفي رواية أخرى: يمرقون من الدين كما يمرق - السهم من الرمية، ثم لا يعودون فيه، وهم شر الخلق والخليقة) (2).

وقد انتشر من نجا بالنهروان من الخوارج في المدن الإسلامية الكبيرة كالمدينة ودمشق والبصرة بأواخر فترة علي عليه السلام وبداية حكم الأمويين، وعقدوا مجالس المناظرات والمجادلات الكلامية فيها. وكانت بذلك فرقة الخوارج هي أولى الفرق الكلامية التي ظهرت في التاريخ الإسلامي. وتشعب الخوارج إلى فرق عديدة أشهرها العجاردة والنجدية والصفرية والأزارقة

---

(1) مرتضى مطهري، الاجتهاد في الإسلام، ص 13.

(2) راجع صحيح البخاري، كتاب التوحيد، ج 9 ص 489.

والأباضية، ولم يبق من هذه الفرق سوى الأباضية التي تعد الأكثر اعتدالاً، ويشكل أتباعها اليوم أغلبية سكان سلطنة عمان بالإضافة إلى وجود أقليات منهم في شمال إفريقيا.

وأصول الاعتقاد عند الأباضية ثمانية هي (1):

1 - صفات الله ليست زائدة على ذاته: بمعنى أن الصفات ليست شيئاً غير الذات، فهي ليست صفات قائمة بذاتها ولا منفكة عن الذات.

2 - امتناع رؤية الله في الآخرة: ومعنى الرؤية عندهم كمال العلم به، ويعتقدون بعدم إمكانية رؤيته سبحانه وتعالى حسياً بالصورة المتخيلة عند الناس.

3 - القرآن حادث غير قديم: بمعنى أن القرآن مخلوق لله سبحانه، وحادث بعد أن لم يكن.

4 - الشفاعة: بمعنى أن المؤمنين يدخلون الجنة بسرعة، وأما مرتكبي الكبائر من المذنبين إذا ماتوا بلا توبة فهم محكومون بالخلود في النار.

5 - مرتكب الكبيرة كافر نعمة لا كافر ملة: اعتقدت جميع فرق الخوارج على مر التاريخ أن مرتكب الكبيرة كافر وخارج عن الملة، ولكن الأباضية قالوا: كافر نعمة ولا يخرج عن الملة.

6 - الخروج على الإمام الجائر: بمعنى وجوب الخروج على أئمة الجور، بالإطاحة بهم بأي وسيلة يقدر عليها، بالقوة أو بغيرها.

7 - التولي والتبري والوقوف: فأما التولي فهو وجوب الولاية والحب لأولياء الله ومن أتصف بالإيمان، والتبري فهو وجوب البراءة من الفاسقين سواء كانوا من المشركين أو أهل كفر نعمة، وأما الوقوف فيعني التوقف بالحكم فيمن لم يعرف فيهم موجب الولاية أو البراءة.

---

(1) جعفر السبحاني، بحوث في الملل والنحل، ج 5 ص 213 - 240 (بتصرف).

8 - آراؤهم في الصحابة: إجماعهم على حب الشيخين أبي بكر وعمر وكراهية عثمان وعلي.

رابعاً: المعتزلة

وهي فرقة كبيرة تأسست على يد الشيخ واصل بن عطاء (80 - 131 هجرية) أحد أبرز تلامذة الحسن البصري الذي كان يعقد مجالسه الكلامية للرد على بدع الخوارج وأضاليلهم. وفي سبب تسميتها بالمعتزلة عدة أقوال أرجحها هو ما يروى عن اعتزال واصل بن عطاء لمجلس الحسن البصري بعد أن دب خلاف بينهما في مسألة المصير الأخروي للمسلم الذي يرتكب الكبيرة (1)، أو بصورة خاصة مصير المسلمين الذين شاركوا في قتل الخليفة عثمان (2)، هل بقوا على إيمانهم أم أصبحوا بحكم الكفار؟ فكان رأي البصري إنهم منافقون، وأما واصل فقد كان رأيه إنهم ليسوا كفاراً ولا مؤمنين وإنما بمنزلة بين المنزلتين.

وقد اشتهرت المعتزلة من بين جميع الفرق الإسلامية باعتمادهم على العقل والمنطق لا غير في تحصيل مبادئ الإسلام ومعتقداته وأحكامه. ويسمون أيضاً بالمفوضة لقولهم بتفويض الإنسان في جميع أفعاله بصورة مطلقة ودون أي تدخل من الإرادة الإلهية.

وأصول الاعتقاد عند المعتزلة خمسة هي (3):

1 - التوحيد: ويراد منه العلم بأن الله واحد لا يشاركه غيره فيما يستحق من صفات نفياً وإثباتاً، والتوحيد بذلك عندهم رمز لتنزيهه سبحانه عن شوائب الإمكان والتجسيم والتشبيه وإمكان الرؤية وطروء الحوادث عليه، وعندهم لا قديم مع الله ومنها قالوا إن القرن مخلوق وليس قديماً.

(1) شريف الأمين، معجم الفرق الإسلامية، ص 35.
(2) محمد إبراهيم، أئمة المذاهب الأربعة، ص 35.
(3) جعفر السبحاني، بحوث في الملل والنحل، ج 3 ص 291 - 416 (بتصرف).

2 - العدل: ويراد منه تنزيه الله عن الظلم عند محاسبة العباد على أفعالهم. فهو لا يكلف العباد ما لا يطيقون، بل يعلمهم ويبين لهم صفة ما كلفهم به وكيفيتهم ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حيي عن بينة.

3 - الوعد والوعيد: ويراد منه أن الله تعالى وعد المطيعين بالثواب وتوعد العصاة بالعقاب وأنه يفعل ما وعد وتوعد به لا محالة، ولا يجوز الخلف لأنه يستلزم الكذب. وعلى ضوء هذا الأصل حكموا بتخليد مرتكب الكبائر في النار إذا مات بلا توبة.

4 - المنزلة بين المنزلتين: ويراد بها أن مرتكب الكبيرة لا يسمى كافراً كما يقول الخوارج، ولا يسمى مؤمناً كما هو عليه جمهور المسلمين وإنما يسمى فاسقاً. فلا تكون منزلته بحكم الكافر ولا بحكم المؤمن وإنما بين المنزلتين.

5 - الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: يرى المعتزلة أن وجوبهما يعرف عقلاً خلافاً لجمهور المسلمين سنة وشيعة، الذين قالوا لولا النص الشرعي لما كان دليلاً على الوجوب. وقد تميزت المعتزلة بجعل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أصول الدين الذي لا يتم إلا به، وهذا يقتضي قيامهم ضد الحاكم الجائر في حالة توفر القدرة لذلك. ولربما كان هذا أحد أسباب اضطهاد الدولة الأموية لعلماء المعتزلة وملاحقتهم. وأما فيما يتعلق بالنبوة والإمامة، فهم يوافقون أهل السنة في ذلك.

وقد لاقى مذهب الاعتزال رواجاً كبيراً في العراق ووصل إلى بلاد بعيدة كالمغرب واليمن وخراسان وأرمينية. وانقسم المعتزلة إلى مدرستين رئيسيتين هما مدرسة البصرة ومدرسة بغداد، ولكل منهما منهجها الخاص في تحليل المسائل الاعتقادية. وتشعبت إلى فرق عديدة أشهرها الواصلية والهذلية والنظامية والجاحظية والبشرية والتمامية والشيطانية وغيرها كثير.

وبلغ الاعتزال أوجه زمن العباسيين عندما اعتنق المذهب بعض الخلفاء كان أولهم المأمون ثم المعتصم والواثق الذين أخذوا يجبرون الناس على الاعتقاد بعقائد المعتزلة حتى بلغ التعصب لدرجة الجلد وأحياناً كثيرة قتل كل من يقول بعدم خلق القرآن، وقد أريقت دماء كثيرة تبعاً لذلك، حتى عرفت هذه المعضلة تاريخياً باسم (محنة خلق القرآن)، وكان من ضحاياها الإمام أحمد بن حنبل الذي حبس زمن الخليفة الواثق وجلد ألف جلدة حتى كاد أن يموت ولكنه لم يغير رأيه. وعندما جاء الخليفة المتوكل لم تعجبه عقائد المعتزلة، وكان على خلاف من قبله يميل نحو الأشاعرة، فعمل على تقريبهم منه، ونشر مذهبهم في مختلف الولايات حتى صارت الأشعرية دين الدولة الرسمي والممثلة لعقائد أهل السنة والجماعة (1). ومنذ ذلك الحين، انقلبت الدائرة على علماء المعتزلة حيث مارست السلطات ضدهم الضغط والمطاردة، فكانت هذه الإجراءات ضربة قاصمة لفرقة المعتزلة والتي ما لبثت أن ضعفت حتى كانت نهايتها الانقراض. ولم يعد للمعتزلة في أيامنا أي وجود كفرقة دينية أو مذهب إسلامي مستقل.

وهذا لا يعني اضمحلال الفكر الاعتزالي نهائياً من عقول المسلمين، فقد بدأت في العصر الحديث ميول جديدة في بعض أوساط المثقفين من أهل السنة نحو المنهج العقلي الذي يتميز به المعتزلة. وقد يكون تفسير هذه الميول على أنها رد فعل على تفشي ظاهرة التحجر والجمود في أطروحات بعض التيارات الإسلامية المعاصرة التي أعدمت العقل وأظهرت الإسلام وكأنه دين لا يصلح إلا للعصور القديمة وسكنة البوادي.

وهذا أحمد أمين يسجل رأيا لصالح المعتزلة حيث يقول بشأن حرية الإرادة: (وقالت المعتزلة بحرية الإرادة وغلوا فيها أمام قوم سلبوا الإنسان

(1) شريف الأمين، معجم الفرق الإسلامية، ص 35.

إرادته حتى جعلوه كالريشة في مهب الريح أو الخشبة في اليم. وعندي أن الخطأ في القول بسلطان العقل وحرية الإرادة والغلو فيهما خير من الغلو في أضدادهما، وفي رأيي أنه لو سادت تعاليم المعتزلة إلى اليوم لكان للمسلمين موقف آخر في التاريخ غير موقفهم الحالي وقد أعجزهم التسليم وشلهم الجبر، وقعد بهم التواكل) [1].

وفي مسألة التوحيد يقول: (وقد كانت نظرتهم في توحيد الله نظرة في غاية السمو والرفعة، فطبقوا قوله تعالى: (ليس كمثله شئ) أبدع تطبيق، وحاربوا النظريات الوضعية من مثل نظريات الذين جعلوا الله تعالى جسماً) [2].

ويضيف أحمد أمين في مقال خاص بمدح المعتزلة تحت عنوان المعتزلة والمحدثون: (كان للمعتزلة منهج خاص أشبه ما يكون بمنهج من يسميهم الفرنج (العقليين) عمادهم الشك أولاً والتجربة ثانياً، والحكم أخيراً.

وللجاحظ في كتابه (الحيوان) مبحث طريف عن الشك. وكانوا وفق هذا المنهج لا يقبلون الحديث إلا إذا أقره العقل، ويؤولون الآيات حسب ما يتفق والعقل كما فعل الزمخشري في كتابه (الكشاف).

ويقابل هذا المنهج منهج المحدثين، وهو منهج يعتمد على الرواية، لا على الدراية، ولذلك كان نقدهم للحديث نقد سند لا متن، ومتى صح السند صح المتن ولو خالف العقل، وقل أن نجد حديثاً نقد من ناحية المتن عندهم، وإذا عرض عليهم أمراً رجعوا إلى الحديث ولو كان ظاهرة لا يتفق والعقل، كما يتجلى مذهب الحنابلة...) [3].

---

(1) أحمد أمين، ضحى الإسلام، ص 70.
(2) المصدر نفسه، ص 68.
(3) رسالة الإسلام التي تصدرها (دار التقريب بين المذاهب الإسلامية). بالقاهرة: العدد الثالث من السنة الثالثة.

الفصل الثالث
الآثار اللاحقة

1 - التمويه على حقائق الأحداث التاريخية وتحريفها

بعد حادثتي منع تدوين السنة النبوية وشيوع ظاهرة الوضع والتدليس في الحديث، فقد وجد هناك على مر التاريخ الإسلامي من تلاعبوا بتفسير الأحداث التاريخية حسب ما أملته عليهم أهواؤهم وميولهم المذهبية الخاصة، مما عمل على زيادة درجة التشويش والفوضى في فهم بعض القضايا التاريخية الهامة، كما سترى من خلال الأمثلة القليلة التالية:

1 - ففي تبريره للاختلاسات التي حصلت في عهد الخليفة عثمان، فإن ابن تيمية الذي اشتهر باصطناع الكلمات والالتفاف حولها بدفاعه عن بني أمية قال بأن تلك الأموال التي كان عثمان يجود بإعطائها لأقاربه الأمويين. إنما كانت جزءاً من سهم أموال الخمس الخاص بذوي القربى الذي يعطى حسب نصوص التشريع الإسلامي إلى أقارب الإمام (1)، فكان ولي أمر المسلمين الإمام عثمان يعطي أقاربه ما زاد عن ملايين الدراهم بناء على هذا الأساس الشرعي! فلماذا الاعتراض إذاً؟ ثم يقدم ابن تيمية احتمالاً آخر لتفسير إعطاء تلك الأموال على أنها جزء من سهم العاملين عليها، فعثمان كان عاملاً عليها، والعامل عليها يستحق ولو كان غنياً (2). وهذا أيضاً من أحكام الشرع كما فهمها ابن تيمية، فلماذا كل هذه الضجة؟ ولعل تلك الدور السبعة التي

(1) أحمد بن تيمية، منهاج السنة، ج 6 ص 246، 356، 357.

بناها عثمان لزوجاته وبناته (1)، بالإضافة إلى قصور مروان بن الحكم العديدة كانت كلها من أسهم ذوي القربى والعاملين عليها التي يقول بها شيخ الإسلام.

ثم يظهر ابن تيمية شيئاً من المرونة وهو يعترف قائلاً: (ونحن لا ننكر أن عثمان (رض) كان يحب بني أمية وكان يواليهم ويعطيهم أموالاً كثيرة. وما فعله يعد من مسائل الاجتهاد التي تكلم فيها العلماء... ولا ندعي عصمة في أحد بعد رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) من الذنب، فضلاً عن الخطأ في الاجتهاد) (2) وفي مورد آخر يقول: (فهذا ذنب لا يعاقب عليه في الآخرة، فكيف إذا كان من موارد الاجتهاد؟) (3). والجواب أنه سيئاب في كل الأحوال على ذلك. وذلك تمشياً مع القول الشائع عند بعض المسلمين إنه إذا اجتهد المسلم وأصاب فله أجران، وإن أخطأ فله أجر واحد!.

2 - يبرر القاضي ابن العربي طرد عثمان لأبي ذر لاعتراض الأخير على معاوية بكنز الأموال بقوله: (ومن العجيب أن يؤخذ عليه (عثمان) في أمر فعله عمر، فقد روي أن عمر بن الخطاب (رض) سجن ابن مسعود في نفر من الصحابة سنة بالمدينة حتى استشهد فأطلقهم عثمان، وكان عمر قد سجنهم لأن القوم أكثروا الحديث عن رسول الله) (4).

وفي محاولته التغطية على بوائق عمال عثمان يقول: (وأما قول القائلين في مروان بن الحكم والوليد بن عقبة فشديد عليهم، والحكم عليهما بالفسق فسق منهم. فمروان كان رجل عدل من كبار الأمة عند الصحابة والتابعين وفقهاء المسلمين...) (5).

---

(1) ابن قتيبة الدينوري، الإمامة والسياسة، ج 1 ص 50.
(2) أحمد بن تيمية، منهاج السنة، ج 6 ص 356، 357.
(3) المصدر السابق.
(4) القاضي أبو بكر بن العربي، العواصم من القواصم في تحقيق مواقف الصحابة بعد وفاة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، ص 75 - 76.
(5) المصدر السابق، ص 88 - 89.

وأما محب الدين الخطيب فإنه دافع عن الوليد بقوله أنه يستحيل أن تكون الآية (إن جاءكم فاسق بنبأ...) [الحجرات / 6] (1) قد نزلت في الوليد لا لسبب إلا لأنه كان موضع ثقة الشيخين أبي بكر وعمر (2).

وقد تكفل العلامة أبو الأعلى المودودي بالرد على ابن تيمية وابن العربي والخطيب وكل من دافع عن عثمان والأمويين بمثل تلك الطريقة خير رد، فبعد أن قام باستعراض أمثلة عديدة من انتهاكات أقارب الخليفة الذين جعل بأيديهم شؤون إدارة الخلافة ومفاتيح بيت المال قال: (لا شك أن هذا الجانب من سياسة سيدنا عثمان (رض) كان غلطاً، والخطأ خطأ على أي حال أياً كان فاعله، أما محاولة إثبات صحته باصطناع الكلام لغواً وعبثاً فهو أمر لا يقتضيه العقل، ولا يرضاه الإنصاف، كما أن الدين لا يطالبنا بعدم الاعتراف بخطأ صحابي من الصحابة) (3).

3 - وممن حاولوا تزوير التاريخ فيما يتعلق بالدوافع الحقيقية لحدوث معركة الجمل سيف بن عمرو التميمي الذي اختلق أسطورة من خياله الخاص، وجعل بطلها رجلاً يهودياً، وسماه عبد الله بن سبأ ولقبه ابن السوداء، وادعى التميمي أن ابن سبأ هذا قدم من اليمن وأعلن إسلامه في عهد عثمان، ولكنه أخفى تحت ذلك حقداً دفيناً على الإسلام، فتنقل بين البقاع الإسلامية كمصر والبصرة والكوفة على حسب زعم هذه الأسطورة، ثم أخذ ينادي برجعة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ووصاية علي عليه السلام واغتصاب عثمان لحق علي بالخلافة، فحث على قتله، وجيش لذلك آلافاً جاءوا من البصرة والكوفة ومصر، وتمكنوا من محاصرته وقتله، ثم اندس القتلة في جيش الإمام

---

(1) المصدر السابق، ص 90.
(2) المصدر السابق.
(3) أبو الأعلى المودودي، الخلافة والملك، ص 71.

علي عليه السلام وعائشة، وأحدثوا الفتنة وأشعلوا نار الحرب بين الطرفين والتي عرفت بموقعة الجمل.

وقد تصدى لتفنيد هذه الخرافة عدد من العلماء المحققين، وتمكنوا من إثبات وهمية شخصية عبد الله بن سبأ، ومن هؤلاء المحققين الدكتور طه حسين في كتابه (الفتنة الكبرى)، والدكتور كامل مصطفى الشيبي في كتابه (الصلة بين التشيع والتصوف)، والعلامة مرتضى العسكري في كتابه (عبد الله بن سبأ). ونقتطف فيما يلي من كلمات الأخير في هذا الصدد: إن جميع المؤرخين أخذوا هذه الأسطورة عن سيف بن عمرو التميمي الكوفي المتوفى سنة 170 ه، ثم انتشرت في كتب التاريخ على مر العصور وإلى يومنا هذا، وكأنها من الحوادث التأريخية التي لا يتطرق إليها الشك، بعد أن فات معظم الكتاب والمؤرخين من الشرقيين والمستشرقين إن واضع رواية هذه الأسطورة هو راو واحد. لا شريك له، وقد اشتهر عند القدامى من علماء الحديث بالوضع واتهم عندهم بالزندقة. فهذا أبو داود يقول فيه: (ليس بشئ كذاب)، وقال فيه ابن عبد البر: (سيف متروك، وإنما ذكرنا حديثه للمعرفة)، وقال فيه النسائي: (سيف ضعيف، متروك الحديث وليس بثقة ولا مأمون).

وقد أخذ عن هذا الراوي كل من الطبري وابن عساكر وابن أبي بكر، ثم أخذ عن الطبري سائر الكتاب والمؤرخين إلى يومنا هذا (1).

4 - في تبريره لتحويل معاوية نظام الخلافة إلى نظام ملكي يقول القاضي ابن العربي أن الملك هو مرتبة من مراتب الولاية كمرتبة الخلافة (2)، ودليله (!) على ذلك قوله تعالى في النبي داود عليه السلام: (وآتاه الله الملك والحكمة) [البقرة / 251] فجعل النبوة ملكاً.

(1) مرتضى العسكري، عبد الله بن سبأ (بتصرف).
(2) ابن العربي، العواصم من القواصم، ص 207 - 210.

وهذا أيضاً محب الدين الخطيب يؤيد هذا التبرير معلقاً: (الخلافة والملك والإمارة عناوين اصطلاحية تتكيف في التاريخ باعتبار مدلولها العملي، والعبرة دائماً بسيرة المرء وعمله) (1). ولحق ابن العربي والخطيب نسخاً عنهما الشيخ عبد المتعال الجبري وهو أحد رموز بعض الجماعات الإسلامية في مصر قائلاً: (والواقع أن المسألة هي مسألة اصطلاح... خلافة أو إمارة أو ملك، فالجميع مقيدو السلطات بقوانين الله المسطورة في الكتاب والسنة، فالعبرة بالنظام والعدل لا بالألقاب وأسماء الحكام والولاة وأسماء وظائفهم، وقد كان داوود وسليمان ملوكاً صالحين، فما عابهما ذلك) (2)!

ولكن معاذ الله أن يقارن معاوية المحتال وسفاك الدماء البريئة بأنبياء الله الصالحين. فقد كان من سيرة معاوية وعمله قتل حجر بن عدي وأصحابه لرفضهم سب الإمام علي عليه السلام والتبري منه كما ثبت ذلك من المصادر التاريخية، إلا أن ابن العربي يرى أن قتلهم كان حقاً، لأن معاوية هو إمام الأمة، والأصل في فعل الإمام هو الحق (3) (!)، ويستشهد بما كتب على أبواب مساجد بغداد: (خير الناس بعد رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) أبو بكر، ثم عمر، ثم علي، ثم معاوية خال المؤمنين رضي الله عنهم) (4).

ولعدم وجود أي مبرر واقعي لقتل حجر وأصحابه، فإن ابن العربي يقول (بعد أن ذكر عتاب عائشة لمعاوية ورده لها: دعيني وحجراً حتى نلتقي عند الله): (وأنتم يا معشر المسلمين أولى أن تدعوهما حتى يقفا بين يدي الله مع صاحبهما العدل، الأمين، المصطفى، المكين..) (5).

---

(1) محب الدين الخطيب في تحقيقه لكتاب ابن العربي، ص 207.
(2) عبد المتعال الجبري، حوار مع الشيعة حول الخلفاء الراشدين وبني أمية، ص 223.
(3) ابن العربي، العواصم من القواصم، ص 213.
(4) المصدر السابق.
(5) المصدر السابق.

وهذا عبد المتعال الجبري مرة أخرى يظهر جرأة غريبة بقوله: (ولم تتوقف فتوح معاوية [أيام ولايته على الشام] وغزواته إلا أيام الفتنة الكبرى، حينما شغل بالحروب مع الإمام علي رضي الله عنهما وغفر لهما) (1).

وكل من يتمعن بهذا القول يجد فيه تخطيئاً مبطناً لعلي عليه السلام، ويطلب الكاتب من الله المغفرة له على خطئه هذا، لأنه عليه السلام شغل معاوية عن الجهاد!!. فمن الذي شغل من؟ ومن الذي تمرد على من؟ أوليس الإمام علي عليه السلام هو الخليفة الذي ينبغي أن يطاع والذي يأمر بالغزو ويعين قادته ووقته ووجهته؟ فما لمعاوية والجهاد في وقت لم يكن فيه سوى وال متمرد نصب نفسه خليفة بعد أن عزله الخليفة الشرعي عن الإمارة. بل أنه من الثابت تاريخياً أن معاوية وعندما أحكم نزوته أخيراً على كرسي الخلافة، فإنه قام بتوقيع معاهدة خنوع أخذ يدفع بموجبها 100 ألف دينار سنوياً مقابل امتناع الروم عن غزو الشام (2).

ثم يضيف الجبري في أثناء دفاعه المستميت عن معاوية وعموم بني أمية وتخطيئاً لعلي عليه السلام: (كما أننا لا نعلم لأي شئ استعجل علي عزل معاوية أمير الشام، وقد عينه [والصحيح عين أخوه يزيد] على ذلك المنصب من قبله أبو بكر الصديق ثم [عينه] عمر بن الخطاب، وأقره على ذلك بعدهما عثمان، وفوق ذلك كله لم يرفع عنه شكوى واحدة (!)، مع كثرة الشكاوى على العمال والحكام والولاة) (3).

وفي محاولة لإغلاق أي باب للبحث في فواحش معاوية فإن الجبري ينقل في كتابه ما رواه الحافظ ابن عساكر عن أبي زرعة الرازي أنه عندما قال له

(1) الجبري، حوار مع الشيعة، ص 219.
(2) تاريخ الطبري.
(3) الجبري، حوار مع الشيعة، ص 203.

رجل: إني أبغض معاوية. فقال له: ولم؟ قال: لأنه قاتل علياً. فقال له أبو زرعة: ويحك، إن رب معاوية رحيم، وخصم معاوية خصم كريم، فما دخلك بينهما رضي الله عنهما) (1). منطق غريب!

5 - وفيما يتعلق بقتل الحسين عليه السلام، فإن القاضي أبو بكر بن العربي يفتري بكل الصراحة والجرأة قائلاً: أن الإمام الحسين عليه السلام قد استحق القتل لخروجه عن طاعة ولي الأمر يزيد، لأن خروجه كان - على رأيه - تفريقاً لكلمة المسلمين! وهذا النص الحرفي لما قال: (وما خرج أحد لقتال الحسين إلا بتأويل، ولا قاتلوه إلا بما سمعوا من جده المهيمن على الرسل، المخبر بفساد الحال، المحذر من دخول الفتن، وأقواله في ذلك كثيرة. منها قوله (صلى الله عليه وآله وسلم): إنه ستكون هنات وهنات، فمن أراد أن يفرق أمر هذه الأمة وهي جميع فاضربوه بالسيف كائناً من كان. انتهى الحديث. فما خرج الناس - يقصد القتلة - إليه إلا بهذا الحديث وأمثاله) (2). بمعنى أن كل ما فعله يزيد وزبانيته في كربلاء كان مجرد تطبيق لحكم الشرع على ضوء أحاديث النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)!!

ولعل حسن تطبيق يزيد للشرع هو الذي جعل محب الدين الخطيب أن يصفه بأنه كان شخصاً لامعاً، ومكتمل المواهب، ومستكملاً للصفات اللائقة بمهمة المركز الذي أراده الله له وهو الخلافة (3).

ليس ذلك فقط، فهذا ابن حجر المكي يقدم (دليلاً!) على اكتمال كمالات يزيد الخلقية بقوله: (إن يزيد لما وصل إليه رأس الحسين بكى قائلاً: رحمك الله يا حسين، لقد قتلك رجل لم يعرف حق الأرحام)! (4)! فيا له من افتراء على التاريخ!

---

(1) المصدر السابق، ص 222.
(2) ابن العربي، العواصم من القواصم، ص 232.
(3) المصدر السابق (في الحواشي) ص 227.
(4) ابن حجر المكي، الصواعق المحرقة، ص 220.

وأما الشيخ أبو حامد الغزالي صاحب كتاب (إحياء علوم الدين) فإنه يريد قتل ومحو أي علوم متعلقة بفاجعة مقتل الحسين عليه السلام وأهل البيت كلية من مصادرها التاريخية، وهذا نص ما قال: (ويحرم على الواعظ وغيره رواية مقتل الحسين وحكاياته، وما جرى بين الصحابة والتشاجر والتخاصم، فإنه يهيج على بعض الصحابة، والطعن فيهم وهم أعلام الدين!!) (1) فيا لها من فتوى، إنه كلام غريب يشتم منه رائحة تفوح بوجود مؤامرة حقيقية لدفن الحقائق إن لم يكن تزويرها. وللقارئ أن يتصور سبب غفلة معظم أبناء أهل السنة والجماعة عن مأساة الإمام الحسين بصورة خاصة وأهل البيت عليه السلام بصورة عامة.

وعلى كل حال، فإن الغزالي يعترف أن جريمة قتل الحسين، وتشاجر الصحابة وتخاصمهم مع بعضهم مدعاة للبغض والطعن فيهم، وأفعالهم تلك المشابهة لهذه هي فعلاً محل للبغض والطعن. وأما قوله إنهم أعلام الدين، فهذا يعد تناقضاً عجيباً لا يمكن أن يقبله عقل سليم.

وأخيراً، فإن عبد المتعال الجبري يحاول التغطية على يزيد باتهامه بدلاً من ذلك بقتله أهل الكوفة أولاً (2)، والقضاء والقدر ثانياً، بقوله: ومضى إلى حتفه بظلفه، وكان أمر الله قدراً مقدوراً!!

2 - تطرف بعض العاملين في الميدان الإسلامي وتخبطهم وجمودهم

ونعني بصورة خاصة بعض العاملين في الأوسط الدينية كنشاطات الدعوة والتبليغ والتدريس، وكذلك بعض العاملين أو المنادين بإقامة الحكم الإسلامي في هذا العصر من خلال تنظيم الجماعات، والأحزاب،

(1) المصدر السابق، ص 223.
(2) الجبري، حوار مع الشيعة، ص 248.
(3) المصدر السابق.

والميليشيات، والذين نصبوا أنفسهم قادة للصحوة الإسلامية المعاصرة التي ستعيد للإسلام مجده الغابر وخلافته الراشدة.

والناظر لحال غالبية هؤلاء العاملين ضمن تلك الأطر والأوساط لن يصعب عليه ملاحظة حالات الجمود الفكري والتخبط الحركي التي يعيشونها، وذلك نتيجة لافتقاد المناهج المنفتحة على الواقع المعاصر، وغياب القيادة الواعية والمتفهمة لتقلبات الزمان والمكان، فتجدهم يلجأون دائماً إلى التقليد الأعمى لسير الماضين، ويأخذون بطرق تفكيرهم وأساليبهم بصورة حرفية، ويصرون على ذلك أيما إصرار، مدعين أنه لا سبيل للتغيير والإصلاح سوى مناهج السلف الصالح، وأنه (لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها). ومع كل التحفظات في إطلاق هذه المسميات واستخدامها، فإن ذلك لا يعني بأي حال من الأحوال الاستغراق في الماضي وأساليبه كل هذا الاستغراق، وتقليد السلف حذو النعل بالنعل.

ولكن المشكلة لا تكمن بمجرد عدم صلاحية أساليب الماضي لهذا الزمان نظراً للمفارقات الواضحة بين العصرين، وإنما أيضاً في تناقض أساليب وأفكار السلف أنفسهم مع بعضهم بعضاً، بل وانحرافها عن المنهاج النبوي منذ البدايات الأولى لعهود الخلافة، الأمر الذي يجعل من التعصب لرموز ذلك الزمان، وتقليدهم بتعصب يعني إعادة تلك الأخطاء والمآسي التي حصلت فيما بينهم.

مجرد مثال!

ولك في تجربة المجاهدين الأفغان الذين اعتبرهم الكثيرون (صحابة العصر!) خير مثال على ذلك، فأي صدمة وإحباط تلقاها كل من بنى عليهم آمالاً بإقامة حكم إسلامي يصلح لأن يكون مثالاً حياً لكل الحركات المجاهدة في العالم الإسلامي، لا سيما بعد كل تلك السنوات الطويلة من المعاناة والتضحيات في جهادهم ضد الجيش السوفيتي. ولكنهم بعد التحرير، وبدل

أن يتوجهوا إلى البناء، رأيناهم يديرون فوهات المدافع ضد بعضهم بعضاً هذه المرة وبشراسة فاقت تلك التي واجهوا بها الجيش الشيوعي في الأمس القريب. حتى أنه تردد على ألسنة سكان كابل، وهم الضحية المنسية لهذه الحروب: (كفر الشيوعيين ولا إسلام المجاهدين!).

وهكذا نجد أن العالم الإسلامي اليوم يشهد تجارب جديدة في ثورة تخبط في الفكر، تنقلب إلى ثورة تطرف في الواقع، ولعل أبشع نماذجها تجده في حكومة ميليشيات الطالبان التي نسمع قصتها ونعيش مرارتها هذه الأيام.

فما دام قد وجد في تاريخنا معارك اسمها الجمل وصفين، فلماذا لا يقتتل المسلمون ضد بعضهم بعضاً اليوم؟ وما دمنا قد برأنا جميع أطراف الاقتتال في صفين وهم الجيل الفريد والقدوة المثالية، فلماذا لا نجد المبرر أيضاً للاقتتال الداخلي بين المجاهدين الأفغان؟ فهم أولى أن تقع (الفتن!) بينهم من أولئك، ويحق لهم أن يجتهدوا كما اجتهد معاوية ببغيه للوصول إلى مراكز القوة والتسلط المطلق. ولماذا لا، ما دام يتوجب على المسلمين حمل أي منكر فعلوه على أنه كان (اجتهاداً خاطئاً) يثابوا عليه أجراً واحداً، ومحملاً حسناً حتى لو كان ذلك المنكر القتل وبث الفتنة والمخالفة الصريحة للكتاب والسنة.

ولك أن ترى أثر تلك المحاولات المستميتة للتوفيق بين متناقضات الصحابة، والتي لا تقبل التوفيق، وتبرير كثير من تصرفاتهم المنكرة والتي كان من ضمنها سب بعضهم بعضاً وقتلهم وحملها محمل الاجتهاد، لك أن ترى أثر ذلك كله في تشويش الفكر وتحقير العقل، بل وتولد تطرفاً وضيقاً في الأفق والنظر نحن في غنى عنه.

وهذا النمط من التفكير القشري والمنغلق على كل حال لا يزال يوجد له انتشار واسع في الوسطين السني والشيعي، ويطلق عليه مرتضى مطهري مصطلح التحجر بمعنى الجمود وانعدام المرونة والليونة، وهي حالة تشاهد عند الإنسان حين تنعدم له المرونة في الموقف من أي فكرة أو ظاهرة جديدة.

والشخص الموصوف بالتحجر يضع لنفسه أصولاً ثابتة وأطراً محددة، ويفترض عدم إمكان طروء أي تغيير عليها (1).

وقد حذر الإمام الخميني (وهو مثال المجاهد العصري ضد تحجر الفكر لا سيما السياسي منه) من خطر ظاهرة التحجر هذه بقوله: (وما هو بالضئيل خطر المتحجرين والحمقى من المتظاهرين بالقدسية في الحوزات العلمية، فلا يغفل الأعزاء طلبة العلوم الدينية ولا للحظة عن هذه الأفاعي ذات الظاهر الخداع... وعلى حد زعم بعضهم، فإن عالم الدين يكون جديراً بالاحترام والتكريم عندما يكون غارقاً في (التعبد المنغلق) بشكل كلي، وإلا فإن عالم الدين المعني بالسياسة أو المدبر والذكي هو ذو أهداف ومطامع مشبوهة... وكأن تعلم اللغات الأجنبية يعد كفراً، ودراسة الفلسفة والعرفان تعد معصية وشركاً. وإنني على يقين من أنه لو كان قد كتب لهذا التيار الاستمرار لأصبح وضع الحوزات الدينية وعلمائها كوضع كنائس القرون الوسطى) (2)، ويذكر الإمام الخميني مرة أن ابنه مصطفى شرب مرة من ماء في زير خزفي بإحدى المدارس الدينية، فقام بعض أولئك المتحجرين بغسل الزير الخزفي بالماء لتطهيره، وذلك لأن الإمام كان يدرس الفلسفة! (3).

جذور التطرف والجمود الديني

ويرى مطهري أن الجذور التاريخية لهذا التحجر تجده في بعض الفرق والمذاهب التي ظهرت نتيجة لما حصل بين المسلمين من تنازع واضطراب (4).

ويخصص منها ثلاثة وهي: الخوارج، وأهل الحديث والإخباريون.

---

(1) محسن آجينتي، الالتقاط الفكري والتحجر العقائدي في نظرة العلامة المطهري، ص 112.
(2) من البيان الذي وجهه سماحة المرحوم السيد الإمام الخميني إلى المراجع والحوزات العلمية في 22 / 2 / 89 م.
(3) المصدر السابق.
(4) محسن آجينتي، الالتقاط الفكري والتحجر العقائدي في نظرة العلامة المطهري، ص 118.

فالخوارج وبالرغم من أنهم ذوو ميول شديدة نحو الجهاد والفداء والتضحية في سبيل عقائدهم وأفكارهم، وكانوا من المتعبدين والمتنسكين يمضون الليل في العبادة، إلا أنهم كانوا جاهلين وحمقى، ونتيجة لجهلهم فإنهم لم يكونوا يفهمون الحقائق ويفسرونها تفسيراً سيئاً، وأصبحوا من ذوي النظرة الضيقة، وقصيرة المدى، ويفكرون في أفق محمود جداً. كانوا يرون الإسلام محصوراً في جدران أربعة من أفكارهم الضيقة، ويعتقدون أن جميع من سواهم لا يفهمون البتة، ومن أهل جهنم) (1).

ويؤكد مطهري أن نمط تفكير الخوارج قد تسلل ونفذ إلى داخل المجتمع الإسلامي طوال تاريخه، وعلى الرغم من أن سائر الفرق تعد نفسها مخالفة لهم، بيد أن التفكير السائد عند الخوارج هو سائد أيضاً في أذهان تلك الفرق، ويمكننا أن نرى بين المدارس الفكرية والعقيدية والعلمية الإسلامية، ومن بين النظريات الفقهية تعتقد بانفصال التعقل عن التدين، وهذا الاعتقاد قام على مرتكزات التفكير الخوارجي (2).

وأما فرقة أهل الحديث، فهي فرقة أخرى لنمط التفكير المتميز بالجمود والسطحية، وقد خالف رؤساء هذا التيار أمثال أحمد بن حنبل ومالك بن أنس الاستدلالات العقلية التي تميزت بها فرقة المعتزلة، لأنها بنظرهم تتعارض مع ظواهر الحديث والسنة، وهم يرون أن البحث والتحليل والاستدلال في القضايا الإيمانية حرام. ويعتبر مطهري أن نجاح أهل الحديث والأشاعرة في القضاء على فرقة المعتزلة بمساعدة بعض الخلفاء العباسيين كان ضربة كبيرة للحياة العقلية في العالم الإسلامي (3).

---

(1) المصدر السابق، ص 122 - 23.
(2) مرتضى مطهري، الجدب والدفع في شخصية علي، ص 165 - 66.
(3) المصدر السابق، ص 167.

وأما مذهب الإخباريين، وهو من المذاهب الفقهية الشيعية، فإن أصحابه كما بينا سابقاً لا يؤمنون بالاجتهاد، ولا يرون له أية حاجة وضرورة، فقد جعلوا حجية الروايات والأحاديث محوراً لعملهم وتوجهاتهم بنحو خاص، ورفضوا الاستدلال بالإجماع والعقل، ويعتبرون جميع الروايات صحيحة سواء كانت في واقع الحال ضعيفة أو قوية أو صحيحة أو مختلقة وموضوعة، بل يعتبرون ظاهرها هو المقياس والملاك، وهم بذلك يشتركون مع الخوارج وأهل الحديث بالسطحية والتحجر، وتخطئة العقل والتفكر ورفضهما.

أعراض هذه الظاهرة

وبعد أن عرفنا أن لهذا التجمد والتطرف الفكري الديني الذي نشهده في أيامنا له مثل هذه الجذور الممتدة في عمق التاريخ الإسلامي، تعالوا بنا نتفحص بعض أعراض هذه الآفة كما شخصها بعض مفكري هذا العصر علمائه:

وفهذا الشيخ الدكتور يوسف القرضاوي يرى في مقالة له تحت عنوان (صحوة الشباب المسلم ظاهرة صحية يجب ترشيدها لا مقاومتها) أن هناك خمس أمور أنكرت على الصحوة وهي:

1) الدراسة القاصرة للإسلام وشريعته.

2) عدم الاعتراف بالرأي الآخر.

3) الاشتغال بالمعارك الجانبية عن القضايا الكبرى.

4) الجدال بالتي هي أخشن.

5) التزام التشدد والتعسير [1].

---

(1) يوسف القرضاوي (صحوة الشباب المسلم ظاهرة صحيحة يجب ترشيدها لا مقاومتها)، الصحوة الإسلامية: رؤية نقدية من الدخل ص 30 - 34، نقلاً عن مجلة الأمة، العددان التاسع والعاشر 1981.

وأما الشهيد مطهري فيجمل خصائص تيار الجمود والتطرف وملامحه بما يلي:

1) الركود الفكري وتعطيل العقل.

2) ضعف الأسس والمرتكزات العقائدية.

3) النظرة السطحية (الضحالة الفكرية).

4) التقديس الأجوف الزائف.

5) ضيق الأفق والنظر.

6) الجهل واعوجاج الفهم.

7) الرجعية وعبادة القديم.

8) الرياء وخداع العوام [1].

وأما الدكتور حسن الترابي فيرى أن هناك أربع علل رئيسية هي:

1) الانقطاع عن الأصول الشرعية في الكتاب والسنة، والرضا والاقتناع بكل ما هو قديم من تقليد التطبيق العملي للسلف.

2) العكوف على (الفروعية) كأحكام الطهارة، والوضوء وتعداد فرائض الصلاة ومندوباتها ومكروهاتها، أو أحكام البيع، والشراء وكيف تكون الطاعة وآداب الراعي والرعية، في نفس الوقت التزام الصمت المطبق بشأن النظام الإسلام السياسي والاقتصادي.

3) خلل في ترتيب الأوليات، فهذه النظرة أفقدت العالم الإسلامي أولويات الإسلام. فما دامت الأمور كلها فروعاً، فهو لا يعلم أي الفروع أهم.

---

(1) محسن آجينتي، الالتقاط الفكري والتحجر العقائدي في نظرة العلامة المطهري، ص 137 - 147.

4) الشكلية، وهي من الآفات التي أبعدتنا شيئاً عن أصول الدين. فالألفاظ أخذ الاهتمام بها وكأنها ذات معنى خطير في الإسلام، وهكذا بالنسبة إلى وضع اليدين في الصلاة وقيام الإصبع عند قراءة التشهد وغير ذلك من الشكليات (1).

ويرى الأستاذ فهمي هويدي أن ظاهرة الصحوة بحاجة ماسة إلى (الفرز) بين ما هو سلبي أو إيجابي في فصائل الصحوة وأفكارها، لأن هناك الكثير مما يحتاج تنقية فيما تطرحه تلك الفصائل من أفكار... فهي بحاجة إلى (التجميع) و (الترشيد)، وليس مقبولاً أن يكون غاية جهدها حشد مجموعات من الدراويش في صلاة الجمعة أو أفواج الحج والعمرة. فالعمل العبادي التزام يجب أداؤه، ولكن الوعي بما يجري والرؤية الأوسع للواقع الاجتماعي، والاقتصادي، والسياسي وترتيب أولويات القضايا تحتاج إلى عمل جاد ومتواصل (2).

ويقدم المرحوم الشيخ محمد الغزالي تفصيلاً أكثر حول هذه الظاهرة في مقالة له تحت عنوان (بين الاعتدال والتطرف)، فيقول: (وأريد أن أؤكد للشباب أن إقامة دين شئ، واستيلاء جماعة من الناس على الحكم شئ آخر، فإن إقامة دين تتطلب مقادير كبيرة من اليقين والإخلاص، ونقاوة الصلة بالله، كما تتطلب خبرة رحبة بالحياة والناس والأصدقاء والخصوم، ثم حكمة، تؤيدها العناية العليا في الفعل والترك والسلم والحرب...!

إن أناساً حكموا باسم الإسلام، ففضحوا أنفسهم، وفضحوا الإسلام معهم!! فكم من طالب حكم يؤزه إلى نشدان السلطة حب الذات، وطلب الثناء، وجنون العظمة!! وكم من طالب حكم لا يدري شيئاً عن العلاقات

---

(1) حسن الترابي، تجديد الفكر الإسلامي، ص 10 - 17.
(2) فهمي هو يدي (مقابلة): مجلة التوحيد العدد 16، رمضان - شوال 1405 ه.

الدولية، والتيارات العالمية، والمؤامرات السرية والجهرية!! وكم من طالب حكم باسم الإسلام وهو لا يعرف مذاهب الإسلاميين في الفروع والأصول، فلو حكم لكان وبالاً على إخوانه في المعتقد، يفضلون عليه حكم كافر عادل!!

ولقد رأيت أناساً يتحدثون عن إقامة الدولة الإسلامية لا يعرفون شيئاً إلا أن الشورى لا تلزم حاكماً، وأن الزكاة لا تجب إلا في أربعة أنواع من الزروع والثمار، وأن وجود هيئات معارضة حرام، وأن الكلام في حقوق الإنسان بدعة... إلخ، فهل يصلح هؤلاء لشئ؟) (1).

وحول الإفراط والتفريط، يعلق الغزالي: (والخلاف الفقهي لا يوهي بين المؤمنين أخوة، ولا يحدث وقيعة! وهؤلاء يجعلون من الحبة قبة، ومن الخلاف الفرعي أزمة... والغريب أن التطرف لا يقع في مزيد من الخدمات الاجتماعية، ولا في مزيد من مظاهر الايثار والفضل، إنه يقع في الحرص البالغ على الأمور الخلافية كالتنطع في مكان وضع اليدين أو طريقة وضع الرجلين خلال الصلاة!

والمجال المستحب للغالين في دينهم ينفسخ عندما ينظرون في ذنوب الناس، إنهم يسارعون إلى الحكم بالفسق أو الكفر وكأن المرء عندهم مذنب حتى تثبت براءته، على عكس القاعدة الإسلامية... ومنذ أيام ثار جدل حول حكم تارك الصلاة كسلاً، فلم يذكر أحد في شأنه إلا أنه كافر، مستوجب القتل، مخلد في النار!، قلت: لماذا تنسون حديث أصحاب السنن في أن الرجل لا عهد له عند الله ـ بتكاسله ـ إن شاء عاقبه، وإن شاء عفا عنه!...

وعلينا بالتلطف والنصح الحسن، أن نقوده إلى المسجد لا إلى المشنقة، بيد أن المتطرفين يأبون إلا القول بالقتل، وأن هذا وحده هو الإسلام!!) (2).

---

(1) محمد الغزالي، (بين الاعتدال والتطرف)، الصحوة الإسلامية، رؤية نقدية من الدخل، ص 66 - 67، نقلاً عن كتاب الأمة رقم (1) الصادر عن المحاكم الشرعية في قطر.
(2) المصدر السابق، ص 72 - 74.

وحول وضع المرأة المأساوي في مجتمعاتنا الإسلامية، يقول الغزالي:

(إن حبسها وتجهيلها واتهامها هو محور النظر في شؤونها العادية والعبادية جميعاً... وإذا خرجت من البيت لضرورة قاهرة فلا ينبغي أن يرى لها ظفر، هي عورة كلها، لا ترى أحداً ولا يراها أحد!!

ومن هؤلاء المتطرفين ناس لهم نيات صالحة، ورغبة حقة في مرضاة الله، وعيبهم - إن خلوا من العلل والعقد - ضحالة المعرفة وقصور الفقه، ولو اتسعت مداركهم لاستفاد الإسلام من حماسهم وتفانيهم) (1).

3 - عزل الدين عن الدولة

يرى عامة المسلمين أن فصل الدين عن الدولة قد أدخل إلى عالمنا الإسلامي عام 1924 م عندما تم القضاء على الخلافة العثمانية. وهذا الكلام يصح على الدين الظاهري الصوري الذي كان يدين به السلاطين العثمانيون كما ورثوه من أسلافهم، وأما إذا تحدثنا عن الإسلام بأصالته وواقعيته، فقد تم فصله جزئياً عن حياة المسلمين منذ أن تنازع المهاجرون والأنصار الزعامة في سقيفة بني ساعدة، ثم اكتمل هذا الفصل وبصورة واقعية باعتلاء معاوية بن أبي سفيان عرش الخلافة والحكم، وتحويل هذا المنصب إلى أداة لتحقيق أحلام جاهلية، وفرصة للاستغراق في المزيد من الملذات واللهو. وبالطبع، فكل ذلك على حساب نشر قيم الإسلام وتعاليمه، بل وتجاوزوا ذلك بمحاولاتهم وبكل ما أوتوا من جهود للقضاء التام على تلك القيم والتعاليم.

وكان من ضمن تلك الجهود كما بينا سابقاً دورهم الكبير في تنشيط ظاهرة وضع الحديث وتزويره، وتأويل آيات الكتاب بما يتمشى ومصالحهم الخاصة. والأمويون هم الذين اختلقوا قصة تأبير النخل والتي زعم فيها أن

---

(1) المصدر السابق، ص 74.

النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قال: (أنتم أعلم بأمور دنياكم) [1] أريد من وراء هذه الكلمات المنسوبة كذباً على النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) عزل الدين عن حياة الناس، وإن كان حقاً عدم تدخل الشرع الإلهي بطريقة تلقيح النخل وغيره.

ويقرر المرحوم الغزالي أن عزل الدين عن الدولة في المجتمع الإسلامي قد تم منذ أمد بعيد بقوله: (ومن النكسات التي أصابت جماعة المسلمين وأوهنت قواهم من قديم انفصال الحكم عن العلم، وسير كل منهما في مجرى اختص به... ومن هذا الانفصال ورث المسلمون المعاصرون مشكلتين جديرتين بالنظر العميق، الأولى: هجرة العقول الكبيرة إلى الغرب، والثانية:

رداءة الأوعية الحاملة للفقه، وطلبها للدنايا تحت أقدام [الحكام] المستبدين) [2].

ويضيف مؤكداً ضرورة عدم وجود مثل هذا العزل: (إن المرء ليغوص في بحار الحيرة عندما يرى كرادلة العالم النصراني يختارون أدهاهم وأذكاهم وأجلدهم على خدمة الدين، وعندما يرى معتنقي الشيوعية يختارون أقدرهم وأمهرهم وأشجعهم على خدمة المذهب، على حين يقود المسلمين على مر التاريخ رجل أعظم مؤهلاته أنه ينتمي إلى المأسوف على شبابه أمية بن حرب - يقصد حكام الدولة الأموية - أو ابن الصحابي المعروف عباس بن عبد المطلب - يقصد حكام الدولة العباسية - أو ابن الأناضول عثمان بن هيان بن بيان! - يقصد حكام الدولة العثمانية -. إن أولئك الخلفاء لا ترشحهم مواهبهم الخاصة لمنصب ذي بال، وليس في كتاب الله ولا سنة رسوله إلا ما يحارب هذا المسلك، بيد أن تقاليد العرب أعوجت بتعاليم الإسلام كرهاً ودفعتها في هذا المجرى) [3].

---

(1) مر ذكر مصادرها هذا الحديث في الفضل الأول من هذا القسم.
(2) محمد الغزالي، مائة سؤال عن الإسلام، ج 2 ص 351، 358.
(3) المصدر السابق، 357.

ويفهم من ذلك أنه يستحيل أن يتوفر عندنا نظام إسلامي دون أن يكون رأس هذا النظام من المسلمين العالمين بعقائد الإسلام وأحكامه، والمطبقين لتعاليمه، ليس فقط على مستوى الشعائر والطقوس العبادية، وبل وقبل ذلك وأكثر أهمية تطبيق العدالة الاجتماعية، وتجسيد أخلاقية الإسلام في جميع العلاقات والشؤون، وما دون ذلك فهو ليس بالإسلام الذي نادى به محمد (صلى الله عليه وآله وسلم).

وهذه المعايير لم يعمل النظام الأموي على بمخالفتها فقط، بل عمل على قلتها ونشر نقائضها من الظلم الاجتماعي، وإحياء النعرات الجاهلية وتشويه التعاليم الإسلامية ومسخها.

وإن كان هناك دين قد طبق، فهو الدين الذي شرعه معاوية، والذي كان من سننه المؤكدة ختم كل خطبة جمعة وعيد بسب الإمام علي ولعنه!، ولم يكن من هذا الدين في واقع الأمر سوى تطبيقات شكلية لمختلف الشعائر والطقوس، وقد أفرغت معانيها من روحية الإسلام وجوهره، وأفقدت بالتالي الغايات التي شرعت من أجلها.

يضاف إلى ذلك التشويه المتعمد للعقائد الإسلامية والتلاعب بمعانيها إلى حد السخرية والاستهزاء، ومن ذلك استحداث عبد الملك بن مروان عقيدة (الإرجاء) لسد الباب في وجه كل من ينتقد تلك المخالفات الصريحة التي كان يتركبها الخلفاء وحواشيهم، فما داموا مسلمين ناطقين لكلمة التوحيد، فإنه لا يجوز لأحد الخوض في أعمالهم أو انتقادهم عليها، فضلاً عن الحكم عليهم بأي وصف من أوصاف الكفر أو الفسق والعصيان، وإنما يجب (إرجاء) ذلك إلى الله سبحانه وتعالى الذي سيحاسبهم على تلك الأعمال. ومن البديهي أن يقوم الخلفاء الأمويون بنشر هذه العقيدة الفاسدة وأمثالها للتغطية على مفاسدهم، وإبعاد أنظار الناس وتفكيرهم من كل ما يتعلق بسياسة الحكم وسلوك الحكام. ويعلق الدكتور شوقي ضيف حول هذه المسألة: (إن أفكار المرجئة تخدم البيت الأموي، الذي كان في رأي الشيعة

وكثير من الأتقياء منحرفاً عن الجادة الدينية، وينبغي أن يغيره المسلمون ويضعوا مكانه البيت العلوي. والمرجئة لم يكونوا يوافقونهم على هذا الرأي لأنهم لا يريدون المفاضلة بين المسلمين ولا الحكم على أحد بتقوى وغير تقوى، فالمسلم يكفي أن يكون مسلماً) (1).

وقد وصف الخليفة العباسي المأمون هذا المعتقد الأموي بقوله:

(الإرجاء دين الملوك)، وقد بقي الأمر كذلك على مر تاريخ ملوك الإسلام!

ومن يتأمل في حال أنظمة الحكم الإسلامي في هذا الزمان، ونظرة المسلمين إليها، يرى أن هذا المعتقد لا يزال له وجود واقعي، لا سيما في طروحات بعض التنظيمات والجماعات الإسلامية، وبصورة واضحة تراها في خطب وعاظ السلاطين أو محترفي مهنة التدين. ولا يخفى على أحد أثر مثل هذا المعتقد ودوره في تكريس الظلم، وإفساح المجال للحاكم الظالم لأن يتوسع في ظلمه.

وعلى سبيل المثال، فإنه ولشدة إعجاب نظام آل سعود بالنظام الأموي ونوع العقائد التي قاموا ببثها، وشكل النظام السياسي الذي حكموا الأمة من خلاله، فإنه قرر ضمن مناهج التعليم المدرسي في المملكة بعنوان (حقائق عن أمير المؤمنين يزيد بن معاوية)!، فخادم الحرمين الشريفين فهد بن عبد العزيز يطمح من وراء هذا الكتاب جعل يزيد مثالاً للحاكم الإسلامي المعاصر، حيث إنه ما دام الصحابة والتابعون قد بايعوا يزيدا واعتبروه خليفة حقاً لرسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، فلماذا لا يحق لفهد أن يعتبر كذلك؟

وهذا المنطق المستوحى من الإسلام الأموي نجده واضحاً في قول أحد المدافعين عن شرعية النظام السعودي وإسلاميته: (هذه المملكة، دون غيرها من بلاد المسلمين، تجسيد حي لفكرة أن الإسلام هو الدين والدولة: رئيس الدولة هو إمام المسلمين قبل أن يكون الملك، ومن هذا المنطلق تخلى إمام

---

(1) سعيد أيوب، معالم الفتن، ج 2 ص 373، نقلاً عن التطور والتجديد في الشعر الأموي ص 50.

المسلمين في المملكة عن اللقب المعتاد للملوك صاحب الجلالة، وجعل لقبه خادم الحرمين الشريفين... فتأمل أبعاد القرار) [1]!

4 - الخنوع والاستسلام لحكام الجور

لعل من أبرز أسباب هذا الخنوع الغريب، وحالة الانقياد التام للحكام الذي نراه سائداً في غالبية البلاد الإسلامية هو تغلغل بعض الأفكار وترسخها في نفوس المسلمين وعقولهم، حيث كان الملوك والسلاطين على مر التاريخ الإسلامي يربطون شرعية حكمهم ولزوم طاعتهم بشريعة الإسلام بحيث يكون الخروج عليهم خروجاً عن الدين، والتفكير بمخالفتهم من وساوس الشيطان، حتى لو ظهر من الحاكم هذا أو ذاك كل الفواحش والآثام، أو تسبب في جلب العار أو التخلف لشعبه وأمته، فإنه قلما تجد أي تحرك يستحق الذكر لخلعه.

وقد كان لبعض الأحاديث التي وضعت خصيصاً لهذه الغاية، والتي كانت أيادي الأمويين وراء اختراعها، لها أثر كبير في تعزيز هذه الحالة وتوريثها عبر الأجيال.

ومن ذلك ما نسب قوله إلى الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم): (من رأى من أميره شيئاً يكرهه فليصبر، فإنه من فارق الجماعة شبراً فمات، فميتته جاهلية) [2].

وهذا ابن تيمية يلمح - كما بينا سابقاً - إلى أن الحسين مات ميتة جاهلية والعياذ بالله، بقوله: (إن يزيد رغم ما فيه من ظلم وقتل، وفعل ما فعل يوم الحرة [استباحة المدينة المنورة] فإنه لا يجوز الخروج عليه، لأن من لم يكن مطيعاً لولاة الأمور مات ميتة جاهلية) [3].

(1) غازي القصيبي، حتى لا تكون فتنة، ص 13.
(2) صحيح مسلم، كتاب الإمارة، ج 4 ص 517.
(3) ابن تيمية، منهاج السنة، ج 1 ص 37.

وكانت عقيدة الجبر من العقائد التي ساعد الأمويون أيضاً على زخرفتها بما يناسبهم وبثها بين المسلمين، والتي كانت تعني فيما يتعلق بسلوك الحكام، إنهم مهما بالغوا في فسادهم وظلمهم، فإن ذلك كله ضمن القضاء والقدر الإلهي الذي يجب على الناس قبوله والتسليم فيه بدون أدنى تساؤل!. ويستشهد المروجون لهذه الأفكار بأحاديث موضوعة لتبرير فساد الحاكم، زعماً منهم كما في الرواية التالية أن ما ظهر من الخلفاء من مفاسد وانتهاكات كان مما تنبأ النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بحدوثه، ولم يكن فيه خروج عن العلم الإلهي المسبق الذي يعني تخطيطاً وقضاء منه جل وعلا، وبالتالي لا يستوجب ما حصل فعلاً أي استنكار أو رفض لأنه كان قدراً مقدوراً!، فعن حذيفة بن اليمان قال: قلت: يا رسول الله، إنا كنا بشر. فجاء الله بخير فنحن فيه، فهل وراء هذا الخير من شر؟ قال: نعم. قلت: وهل وراء ذلك الشر قال: (يكون بعدي أئمة لا يعتدون بهداي، ولا يستنون بسنتي، وسيقوم فيهم رجال، قلوبهم قلوب الشياطين في جثمان أنس [مثال: يزيد بن معاوية؟].

قلت: كيف أصنع يا رسول الله إن أدركت ذلك؟ قال: تسمع وتطيع للأمير وإن ضرب ظهرك وأخذ مالك، فاسمع وأطع (1)!!

ويؤكد الشيخ محمد أبو زهرة تورط الأمويين في مسألة الجبر بقوله: (إننا نجزم بأن القول في الجبر شاع في أول العصر الأموي وكثر حتى صار مذهباً في آخره.. وقد قالوا إن من فعل ذلك بعض اليهود، فقد علموه لبعض المسلمين وهؤلاء أخذوا ينشرونه... وهكذا تشابكت فروع الشجرة الأموية مع فروع شجرة أهل الكتاب بعد أن التقطوا منهم فكرة الجبر في ثوبها الجديد، لأنها تتلاءم ومبدأهم السياسي) (2).

---

(1) صحيح مسلم، كتاب الإمارة، ج 4 ص 515.
(2) سعيد أيوب، معالم الفتن، ج 2 ص 367، نقلاً عن كتاب تاريخ الفرق الإسلامية، ص 9.

ومن الشواهد على هذه الحقيقة أيضاً أن معاوية قال في إحدى خطبه:

(إن الله يقول: (وما من شئ إلا وعندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم) فلم نلام نحن؟) (1). وأما الحجاج فقد قال بعد أن قتل رجلاً أظهر حب الإمام علي عليه السلام: (اللهم أنت قتلته، ولو شئت لمنعتني منه!) (2). وكما يذكر المؤرخون أن معبد الجهمي قتل بيد الحجاج سنة 80 ه، وغيلان الدمشقي بأمر من الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك سنة 106 ه لقولهما بحرية الإرادة (3).

ويصف السيد محمد حسين فضل الله الحالة الانهزامية المتوارثة أمام الحكام بقوله: (... أما الآخرون، فقد توزعوا بين الذين يعيشون الاستسلام للواقع، لأنهم آمنوا أن عليهم طاعة أولي الأمر كيفما كانوا، وأن مسألة التمرد عليهم ليست واردة في الحساب، بل لا بد من إضفاء صفة القداسة عليهم في الطاعة والخضوع والالتزام، لأن هذا هو (أمر الله!)، وبذلك عاش الجمهور الكبير في أجواء عجيبة من الحيرة والقلق والضياع، بين طبيعة القيم التي يؤمن بها، وبين الإطار الذي فرضه عليه الخطأ في الفهم أو الاجتهاد) (4).

ويقول الدكتور حسن الترابي ما يوافق هذا الرأي: (فإن صورة النظام السياسي الذي ورثناه هي صورة شائهة، لأنها مركبة من عناصر السكون لا الحركة، عناصر الركون إلى الواقع والقعود عن التبديل الاجتماعي نحو التي هي خير، وعناصر الاستسلام إلى تقليد الإمام أو الحاكم أو السلطان) (5).

---

(1) أحمد اليماني، المنية والأمل في شرح الملل والنحل، ص 105.
(2) المصدر السابق، ص 87.
(3) مفيد الفقيه، العقل في أصول الدين، ص 27.
(4) محمد حسين فضل الله، تأملات في الفكر السياسي الإسلامي، ص 128.
(5) حسن الترابي، تجديد الفكر الإسلامي، ص 194.

5 - شيوع الجهل والتخلف

بما أن الدين الإسلامي بشريعته السماوية الحقة، وأحكامه الشاملة لجميع نواحي الحياة، هو بإجماع الأمة دين محكم لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وصالح لكل زمان ومكان، وقادر على الوصول بالإنسانية إلى أسمى ما يمكن أن يطمح له البشر من درجات الحضارة والسمو، فإن هذا يعني أن درجة تقدم أو تخلفهم في كل عصر ستعتمد بصورة أولية على درجة التوثيق والأمانة في نقل تعاليم هذا الدين السماوي.

وسلامة تفسير ما صح من نقله، علاوة على التفسير الموضوعي لأحداث التاريخ الإسلامي بعد النظر في سلامة نقلها أيضاً. فالتاريخ كما يقال هو عبارة عن (حقائق تكونت من ضلال الحركة والانتقال في آنات الماضي، لتصبح ركيزة للحاضر، الذي يحتضن المستقبل ويؤثر به ويرسم معالمه).

والأداة التي تحول أنات الماضي إلى ركيزة الحاضر هي الاجتهاد، ولكي يؤدي دوره الحيوي والفعال لا بد وأن يكون محدداً ضمن إطار الشرع الإسلامي الصحيح، ومعتمداً على التراث التاريخي السليم، ومتفاعلاً مع حقائق العصر الحاضر.

وبالنظر في تعاطي المسلمين لتاريخهم، فإننا سنجده كما يصفه الشيخ المرحوم محمد الغزالي: (إنه لا غرابة في وجود أخطاء في تاريخنا الثقافي والسياسي، وإنما الغرابة في التستر على هذه الأخطاء أو الاستحماق في معالجتها والتعفية على آثارها... فالقتال الداخلي بين المسلمين أنفسهم [يقصد في الجمل وصفين] كانت له آثار بعيدة المدى على حاضرهم ومستقبلهم) (1).

ذلك أنه كان فعلاً للخلفاء وما جرى بينهم من حروب ومنازعات على الحكم الدور الكبير في تجهيل المسلمين، وإعطائهم تلك الصورة المشوهة

---

(1) محمد الغزالي، مائة سؤال عن الإسلام، ج 2 ص 353.

والمحرفة عن عقائد الإسلام ونظمه وأحكامه، الأمر الذي حدث غالباً عبر ما وضع من أحاديث، وأدخل من إسرائيليات، وتلوعب بتفسير الكتاب والسنة وتأويلها، وزور من حقائق التاريخ، فضلاً عن سيادة العادات والتقاليد البالية أكثرها وانتشار الأساطير والخرافات.

فلا غرابة إذا بوجود مثل هذه الحالة من التخلف والجهل في أمة الإسلام هذه الأيام، وهي كما يصفها الدكتور الترابي: (وإذا كان الشأن في الإسلام أن يعمر الحياة بمعانيه ويغمرها بصوره وألا ينفك كذلك مواكباً لتطورها الموصول، فقد أصبح نصيبنا من الإسلام تديناً تقليدياً متأخراً عن تقدم حركة الحياة في الاعتقاد والفكر والعمل. فقد نضبت في مواقفنا العقدية معاني التوكل والإقدام التي تدعو لاقتحام كل تحد جديد وتسخيره واتخاذه مادة لعبادة الله الواحد، وأصبح غاية أمرنا أن نحفظ بقية الدين لا نزيده ولا نجدده... والجنوح إلى السكون وإلى القعود عن التفاعل مع الكون والحياة ببواعث الدين هو علة تخلفنا الاقتصادي أيضاً) (1).

ويذكر الدكتور الشيخ القرضاوي إحدى علل انحطاط المسلمين بقوله:

(أهملوا إلى حد كبير فروض الكفاية المتعلقة بمجموع الأمة كالتفوق العلمي، والصناعي والحربي...) (2).

وأما السيد فضل الله فيقدم شرحاً وتشخيصاً أوفى للعلل والأمراض بقوله: (إذا درسنا وضع العالم الإسلامي فسنواجه وضعاً ثقافياً متخلفاً على صعيد المعرفة الإسلامية فيما يتعلق بتفاصيل العقيدة، وخطوط الشريعة، ومناهج العمل، وأساليب التحرك، ووعي التحديات المضادة، مما يجعل

---

(1) حسن الترابي، تجديد الفكر الإسلامي، ص 191 - 192، 195.

(2) يوسف القرضاوي (صحوة الشباب الإسلامي ظاهرة صحية يجب ترشيدها لا مقاومتها، الصحوة الإسلامية: رؤية نقدية من الداخل، ص 49، نقلاً عن مجلة الأمة، ع 1059، 1981 م.

الإنسان المسلم يفقد وضوح الرؤية للأشياء، ويبتعد عن إمكانيات التمييز الدقيق بين ما هو واقع الساحة فيما يمارسه من حياة، وبين ما هو واقع الانتماء فيما يحمله من عقيدة وفكر، وبذلك فقد أصبح فريسة سهلة لكل الدعوات الكافرة والضالة والمنحرفة التي استغلت هذا الجهل بالإسلام، فعملت على تضليله، وإرباك تصوره لمبادئه والإيحاء له بأن الكفر لا يبتعد عن الإسلام وأن الضلال قد يأخذ دور الهدى.

وقد ساهم هذا الجهل في تعقيد عملية الإصلاح، لأن الصورة المشوهة التي يحملها الناس عن الإسلام فيما يفهمونه من عقائده وأحكامه، أصبحت تحمل في داخلها، معنى من القداسة، التي تتحول فيها الأخطاء إلى مقدسات، والأوهام إلى مبادئ، مما يجعل من قضية المناقشة فيها، فضلاً عن رفضها، أمراً يبلغ حد الكفر، ويحمل معنى الانحراف، وبذلك أصبح للذهنية الأمية التي يحملها العوام، ضغط كبير على مسار الفكر الناقد لدى العلماء والمفكرين تحت ضغط الخوف من خسارة ثقة العامة. وهكذا بقيت الأوهام والأضاليل التي أفرزها واقع التخلف في حركة الذهنية العامة للإنسان واقعاً ثقافياً، إسلامياً، مقدساً، معترفاً به) [1].

وبما أنه لا بد وأن يكون لكل تشريع حكمة وغاية، فإن تعطيل أي من تلك الأحكام المشرعة، أو فهمها على غير صورتها الحقيقية، أو تطبيقها على غير الطريقة التي أرادها الشارع المقدس، فإن ذلك لا بد وأن يولد آثاراً سلبية تخل في النظام الإسلامي العام، أو تجعل فيه فراغاً يتهيأ من خلاله فرص الإفساد والانحراف.

ونقدم فيما يلي أمثلة متنوعة وشواهد حية على هذا التخلف والجهل في فهم العديد من قضايانا الإسلامية المعاصرة وتطبيقها:

---

(1) محمد حسين فضل الله، تأملات في الفكر السياسي الإسلامي، ص 125 - 126.

1 - الجهل والتخلف في فهم العقائد

ونعود بمثالنا في هذه الناحية إلى مفهوم القضاء والقدر، حيث بينا في موقع سابق المنشأ السياسي الواضح في تشويش الفهم حول هذه المسألة، وخصوصاً فيما يتعلق بالجبر والاختيار، ولكن غالبية المسلمين قد انطلى عليهم هذا التشويه لعقائد الإسلام ومعاني الكتاب، واستندوا إلى ظاهر بعض الآيات القرآنية والمؤولة أموياً بالجبر أو تسيير الإنسان على غير إرادته واختياره. ومن هذه الآيات (وما تشاؤون إلا أن يشاء الله) [الإنسان / 30]، وقوله تعالى: (قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا) [التوبة / 51]، وقوله تعالى: (ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها) [الحديد / 22].

ويقول الشيخ محمد الغزالي في تفنيده لهذا التأويل الباطل: (والغريب أن جمهوراً كبيراً من المسلمين يجنح إلى هذه الفرية، بل إن عامة المسلمين يطوون أنفسهم على ما يشبه عقيدة الجبر باختيار خافت موهوم... وقد أسهمت بعض المرويات في تكوين هذه الشبهة وتمكينها، وكانت سبباً في إفساد الفكر الإسلامي، وانهيار الحضارة والمجتمع) (1). وفي تعليق آخر يقول: (كل ميل بعقيدة القدر إلى الجبر فهو تخريب متعمد لدين الله ودنيا الناس، وقد رأيت بعض النقلة والكاتبين يهونون من الإرادة البشرية، ومن أثرها في حاضر المرء ومستقبله، وكأنهم يقولون للناس: أنتم محكومون بعلم سابق لا فكاك منه، ومسوقون إلى مصير لا دخل لكم فيه، فأجهدوا أنفسكم فلن تخرجوا عن الخط المرسوم لكم مهما بذلتم... إن هذا الكلام الردئ ليس نضح قراءة واعية لكتاب ربنا، ولا اقتداء دقيق بسنة نبينا، إنه تخليط قد جنينا منه المر...!!) (2).

---

(1) محمد الغزالي، السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث، ص 144.
(2) المصدر السابق، ص 148.

وفي تحذيره من الأخذ بالأحاديث الكثيرة المشبوهة التي وضعت على ما يبدو لإسناد هذا التأويل الفاسد لمسألة القضاء والقدر، يضيف الغزالي:

(جاءت في القدر أحاديث كثيرة نرى أنها بحاجة إلى دراسة جادة، حتى يبرأ المسلمون من الهزائم النفسية والاجتماعية التي أصابتهم قديماً وحديثاً) (1).

وأما الأحاديث التي يحذر الغزالي من أخذها على علاتها، فلا بد وأن تكون الأحاديث التالية من ضمنها، والتي أخرجها جميعاً مسلم في صحيحه:

فعن أبي هريرة قال: (قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): احتج آدم وموسى عليه السلام عند ربهما، فحج آدم موسى، قال موسى: أنت آدم الذي خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأسجد لك ملائكته، وأسكنك في جنته، ثم أهبطت الناس بخطيئتك إلى الأرض!!! فقال آدم: أنت موسى الذي اصطفاك برسالته وبكلامه، وأعطاك الألواح فيها تبيان كل شئ وقربك نجياً، فبكم وجدت الله كتب التوراة قبل أن أخلق؟ قال موسى: بأربعين عاماً. قال آدم: فهل وجدت فيها (وعصى آدم ربه فغوى)؟ قال: نعم، قال: أفتلومني على أن عملت عملاً كتبه الله علي أن أعمله قبل أن يخلقني بأربعين سنة؟ قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): فحج آدم موسى) (2).

وأما عمرو بن العاص فإنه يختلف مع رواية أبي هريرة بعدد السنين بقوله: (سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يقول: كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، وقال: وعرشه على الماء) (3).

ويروي عمرو بن العاص أيضاً: (سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يقول: إن قلوب بني آدم كلها بين أصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصرفه حيث يشاء. ثم قال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم): اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك) (4).

---

(1) المصدر السابق، ص 156.
(2) صحيح مسلم، كتاب القدر، ج 5 ص 507.
(3) المصدر السابق، ص 509.
(4) المصدر السابق، ص 509 - 510.

ويروي أبو هريرة أيضاً: (إن الله كتب على ابن آدم حظه من الزنى أدرك ذلك لا محالة، فزنى العين النظر، وزنى اللسان النطق، والنفس تمنى وتشتهي، والفرج يصدق ذلك أو يكذبه) (1).

وأما عائشة فتختصر كل هذه الروايات جميعها بالمعنى التالي كما تروي قائلة: (دعي رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) إلى جنازة صبي من الأنصار. فقلت: يا رسول الله، طوبى لهذا عصفور من عصافير الجنة لم يعمل السوء ولم يدركه. قال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم): أو غير ذلك يا عائشة؟! إن الله خلق للجنة أهلاً خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم، وخلق للنار أهلاً خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم) (2).

فإذا صحت هذه الروايات لا قدر الله، فلماذا الحساب والعقاب إذا؟؟

2 - الجهل والتخلف في أداء الفرائض

ونكتفي في هذا الجانب بتقديم مثال متعلق بصلاتنا اليومية، نأخذ مسألة الجمع فيها. فالجمع يكون عاد تقديماً أو تأخيراً بين صلاتي الظهر والعصر، وبين صلاتي المغرب والعشاء.

وقد أشارت أدلة قطعية من السنة النبوية إلى ثبوت جواز مثل هذا الجمع في جميع الأحوال، وليس مخصوصاً بحالات الضرورة القصوى كالسفر أو المطر أو الحرب.

فمن صحيح البخاري، قال ابن عباس: (صلى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) سبعاً جمعاً - يعني المغرب والعشاء - وثمانياً جمعاً - يعني الظهر والعصر -) (3) وفي رواية صحيح مسلم بإضافة: (من في غير خوف ولا سفر) (4).

---

(1) المصدر السابق، ص 511.
(2) المصدر السابق، ص 517.
(3) صحيح البخاري.
(4) صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب جواز الجمع بين الصلاتين في السفر، ج 2 ص 356. =

وفي رواية ثالثة، كان قول ابن عباس: (صلى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بالمدينة من غير خوف ولا سفر. قال أبو الزبير: فسألت سعيداً: لم فعل ذلك، فقال:

سألت ابن عباس كما سألتني، فقال: أراد ألا يحرج أحداً من أمته) (1). وقال رجل لابن عباس: الصلاة! فسكت ابن عباس، ثم قال: الصلاة! فسكت، ثم قال: الصلاة! ثم قال [له ابن عباس]: لا أم لك! أتعلمنا بالصلاة وكنا نجمع بالصلاتين على عهد رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)) (2).

وينقل السيد سابق في كتاب (فقه السنة) (3) تحت عنوان الجمع للحاجة عن النووي في شرحه لصحيح مسلم: (ذهب جماعة من الأئمة إلى جواز الجمع في الحضر لمن يتخذه عادة. وهو قول ابن سيرين وأشهب من أصحاب مالك.

وحكاه الخطابي عن القفال والشاشي الكبير من أصحاب الشافعي وعن أبي إسحاق المروزي، وعن جماعة من أصحاب الحديث، واختاره ابن المنذر، ويؤيده قول ابن عباس: (أراد ألا يحرج أمته). فلم يعلله بمرض ولا غيره) (4).

وبالرغم من وضوح أدلة السنة النبوية على جواز الجمع بين الصلاتين في جميع الأحوال، وتأييد غالبية فقهاء المسلمين لذلك، إلا أن السائد عند أتباع المذاهب الأربعة هو عدم الجمع باستثناء حالات الضرورة القصوى، الأمر الذي يشير بأصابع الاتهام مرة أخرى إلى تيار التشدد والتعسير الذي تسرب بقوة إلى عبادات المسلمين ومعاملاتهم.

ولا يخفى مدى أهمية وجود مثل هذه الرخصة، ودورها في المحافظة على الصلوات، لا سيما لدى أولئك المتثقلين من أدائها (وما أكثرهم!) مفرقة في أوقاتها الخمسة.

---

(1) المصدر السابق، ص 357.
(2) المصدر السابق، ص 359.
(3) السيد سابق، فقه السنة، ج 1 ص 291 - 292.
(4) النووي في شرحه على صحيح مسلم، ج 2 ص 359.

3 - الجهل والتخلف في فهم القضايا التاريخية

كم هي القضايا المتعلقة بأحداث هامة في تاريخنا الإسلامي فهمت على غير حقيقتها، وزورت تفاصيلها، وشوهت صورتها حتى صارت كما نقلت إلينا وكأنها قضية مختلفة تماماً عن واقعها الأصلي. ونأخذ ثورة كربلاء كمثال:

فبالرغم من الأهداف النبيلة لهذه الثورة الحسينية، ودورها في إنقاذ الإسلام من ابتذال بني أمية وسطوتهم، بكشف الغطاء عن وجههم الحقيقي المعادي للإسلام، فإنها تعرضت للكثير من التحريفات والتشويهات من قبل كثير من أبناء الأمة على مر العصور. ففي جانب، يرى بعضهم في الإمام الحسين الرجل المتسرع الذي يرمي نفسه إلى التهلكة، ويرفض الاستماع إلى بعض النصائح في عدم الخروج عن طاعة ولي الأمر (!) يزيد بن معاوية.

ويلاحظ في هذا الجانب أيضاً اعتبار كثير من المسلمين يوم ذكرى استشهاد الحسين مناسبة سارة، لا لمقتله عليه السلام، وإنما بحجة أن يوم العاشر من محرم هو اليوم الذي أنقذ الله سبحانه وتعالى فيه النبي موسى عليه السلام من بطش فرعون. ولذلك فإن الأمويين تفننوا في وضع المرويات التي فيها أخبار إنقاذ العديد من الأنبياء في هذا اليوم نفسه، وثواب كبير لصائميه. وتجد بعض المسلمين في الهند وبنغلادش يحتفلون في العاشر من محرم بابتهاج وسرور كبير، وكأنه عيد كبير من الأعياد!

وفي جانب آخر، تحولت عاشوراء لمسلمين آخرين إلى ذكرى يجتمع فيها الناس لمجرد البكاء وضرب الصدور، ظناً منهم أن هذه هي الطريقة المثالية لمواساة الحسين وأهل البيت عليهم السلام في مصابهم.

وبالرغم من والعلماء المسلمون - باستثناء الوهابيين - لا يحرمون البكاء على الإمام الحسين عليه السلام وغيره من شهداء الإسلام فضلاً عن أموات عموم الناس، بل إن ذلك أمر يثاب فاعله عليه إذا كان البكاء بدافع الحب والحزن، لا سيما عند تذكر الطريقة الوحشية التي ذبح بها الإمام الحسين وأهل بيته وأصحابه. ولكنه

في الوقت نفسه، ليس من المقبول أن يختار الناس قارئ العزاء في هذه الذكرى على أساس قدرته فقط على إبكاء الحضور على حساب الخطيب القادر على إبراز الدروس والعبر النافعة من هذه الحادثة. ففضلاً عن أن الإحياء بهذه الصورة هو حصر للقضية الحسينية في بعدها الشخصي العاطفي، فإنه أيضاً يعطي صورة سلبية عن الدين لأنه يعبر عن مظهر من مظاهر الجهل والتخلف.

وأما الدروس والعبر التي يؤكد العلماء على ضرورة الاستفادة منها من هذه القضية، فهي التضحية في سبيل الرسالة والمبدأ، والعمل في سبيل الله دون النظر إلى الأخطار الدافعة إلى الخوف كمبرر للتقاعس والتوقف عن خدمة الدين، فعاشوراء ليست للدموع والبكاء، وإنما هي للإسلام والرسالة.

4 - الجهل والتخلف في فهم القضايا الأخلاقية

هناك العديد من المفاهيم الأخلاقية التي أخذها المسلمون على غير حقيقتها كمفاهيم الزهد، والصبر، والتوبة، والتوكل، وغيرها، ونأخذ الزهد كمثال:

فالإسلام في الحقيقة قد حث على الزهد ورغب فيه، والزهد يطلق على ترك الإنسان لشئ يرغب فيه رغبة طبيعية، أي أن هذه الصفة لا تطلق على المريض الراغب عن تناول الطعام بسبب فقدانه شهية الأكل.

وهذا المفهوم السامي كغيره من المفاهيم العديدة التي تشوهت صورتها في أذهان المسلمين، حتى أصبح الزهد مما ينفر منه، لأنه يعني عندهم ترك الإنسان الدنيا ولذاتها من أجل التفرغ للعبادة. وهذا الفهم المنحرف قد تسرب إلى فكر المسلمين من المسيحية التي تفرق بين العمل الدنيوي والأخروي، حيث تطلق هذه الديانة على كل ممارسة عملية للإنسان مع الطبيعة والحياة عملاً دنيوياً، بينما أطلقت على الطقوس المعزولة عن كل ممارسة حياتية اسم العمل الأخروي. في حين أن الإسلام يعطي أي عمل أو نشاط للإنسان صفة الأخروية ويعده عبادة إذا كان مؤدى بنية التوجه والقرب من الله.

وقد أوجز الإمام علي عليه السلام الزهد في حكمتين من القرآن: (لكي لا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم) [الحديد / 23]. وفي الحديث الشريف: (الزهد ليس أن لا تملك شيئاً، وإنما أن لا يملكك شئ).

ويرى الشهيد مطهري أن سبب حث الإسلام على الزهد لأن فيه تجسيداً للإيثار، ومواساة للفئة المحرومة، والتحرر والانعتاق من قيود الشهوة والنهم وشح النفس وحب الادخار والجاه ونظائرها، بالإضافة إلى أن الزهد يساعد على تذوق اللذات المعنوية لأن الانغماس التام في تلبية حاجات الجسد المادية يغلظ الحس ويضخمه (1).

وهو يستنكر الزهد الذي يعني الانفصال عن حياة الناس، أو الامتناع عن اللذات الدنيوية، فهو زهد لا روح فيه، بل إن الإسلام ينفر من مثل هذا الزهد وأولئك الزهاد (2).

5 - التخلف والجهل في القضايا السياسية

من أكبر مظاهر جهل المسلمين وتخلفهم في هذا الجانب هو طاعتهم العمياء على مر العصور التي حكمت فيها دولة الخلافة، وحتى في بعض البلدان بأيامنا هذه لحكام الجور، بحجة عدم جواز الخروج عن طاعة أولياء الأمور حتى لو كانوا من الفجار والمجرمين. وقد بينا هذه الحالة في بند سابق.

وسنتناول في هذه الزاوية حالة أناس موازية لأولئك المسلمين المؤمنين بالطاعة العمياء. ولكن باختلاف في التفاصيل. فقد وجد هناك بعض المسلمين ممن لا يؤمنون بطاعة حكام الجور، ولكنهم مخدرون أيضاً لأنهم لا يؤمنون بوجوب إقامة الحكم الإسلامي في عصر غيبة الإمام المهدي المنتظر، بل إن منهم من حرم السعي والتحرك لذلك.

ومن الواضح

(1) مرتضى مطهري، إحياء الفكر في الإسلام، ص 43 - 46.
(2) مرتضى مطهري، الحق والباطل، ص 173.

ومن الواضح أن الحالة الأولى قد سادت في عالم الإسلام السني، والثانية قد لوحظ لها وجود في عالم الإسلام الشيعي.

ويقول الإمام الخميني مستنكراً هذا الجهل بقوله حول ضرورة قيام الحكومة الإسلامية في هذا الزمان بأنها: (فكرة علمية واضحة، قد لا تحتاج إلى برهان، بمعنى أن من عرف الإسلام أحكاماً وعقائد يرى بداهتها، ولكن وضع المجتمع الإسلامي، ووضع مجاميعنا العلمية على وجه الخصوص، يضع هذا الموضوع بعيداً عن الأذهان، حتى لقد عاد اليوم بحاجة إلى البرهان) (1). وكان كلام الإمام هذا رحمه الله قبل انتصار الثورة الإسلامية في إيران بسنوات عديدة.

وأما جذور ذلك الفهم المتخلف، فهو راجع إلى التفسير الخاطئ لحقيقة غيبة الإمام المنتظر، والجهل بالظروف الموضوعية التي تستلزم ظهوره، علاوة على الاستناد على بعض المرويات المشكوك في صحتها والتي توحي أن كل راية ترفع في زمن غيبة الإمام هي راية ضلال، بمعنى أن إقامة الحكومة الإسلامية هو حق مخصوص بالأئمة الاثني عشر، وليس لأحد غيرهم تجب الولاية والطاعة.

وقد وصف السيد فضل الله فهم هؤلاء بالجمود، وأنه يدفع أصحابه إلى السلبية أمام مشكلات الواقع، لأنهم بموقفهم هذا أصبحوا القوة التي تحمل الآخرين إلى الحكم دون الاعتقاد بشرعيتهم، وبذلك استطاع كل المنحرفين والطامعين أن يصلوا إلى المركز الكبير في قيادة المسلمين لينحرفوا بهم إلى واقع مظلم لا يحمل لهم إلا المزيد من الجهل والتخلف، والبعد عن قيم الإسلام الحضارية الباحثة عن الحرية والعدالة والمساواة (2).

(1) الإمام الخميني، الحكومة الإسلامية، ص 7.
(2) محمد حسين فضل الله، تأملات في الفكر السياسي الإسلامي، ص 128 - 29.

6 - الجهل والتخلف في القضايا الاقتصادية

في الوقت الذي لا يزال فيه العلماء والمفكرون المسلمون يواجهون تحدياً كبيراً في استخلاص نظام اقتصادي إسلامي وبلورته ليكون قابلاً للتطبيق في هذا العصر فإنه ولتعقيدات مذهبية يجهل كثير من هؤلاء الأعلام فضلاً عن العوام أبسط بديهيات هذا النظام كما سترى في المثال التالي المتعلق بدفع ضريبتي الزكاة أو الخمس:

فبالنسبة لمصطلح الخمس فإنه وحسب دليل القرآن الكريم (وما غنمتم من شئ فإن لله خمسه وللرسول ولذي القربى...) [الأنفال / 41]، وكما فهمه العلماء السائرون على منهج أهل البيت عليه السلام، فإنه يعني وجوب دفع خمس صافي الأرباح السنوية للإمام أو الدولة الإسلامية.

وأما تلك التعقيدات المذهبية التي أحدثت إشكالاً كهذا، فتعود جذورها إلى الوقت الذي منع فيه الخليفة أبو بكر حق فاطمة ابنة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) من الخمس [1] (وهو سهم ذوي القربى)، حيث ذهب المؤيدون لأبي بكر وخلافته منذ ذلك الحين إلى اعتبار الخمس المقصود في الآية السابقة خاصاً بغنائم الحروب التي يتصرف بها حاكم المسلمين كائناً من كان.

فبالإضافة إلى أن الآية القرآنية هذه ليس فيها ما يدل على أي تخصيص بغنائم الحروب، فإن الحديث الشريف التالي يؤكد أيضاً هذه الحقيقة. فعن أبي هريرة أن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال: (العجماء جبار، والبئر جبار، والمعدن جبار، وفي الركاز الخمس) [2]. فالذهب والفضة (المستخرجان من الأرض وليس ما يبتاعه الناس) في هذا الحديث ليسا من غنائم الحروب ولكنهما مشمولان بحكم الخمس.

---

(1) راجع تفاصيل الحادثة في الفصل الأول من القسم الثاني.
(2) صحيح البخاري، كتاب الزكاة، باب في الركاز الخمس، ج 1 ص 166.

وعلى كل حال، فإن أل 5 و 2 بالمئة التي يدفعها أهل السنة زكاة لأموالهم لا تفي بشئ من حاجة الدولة الإسلامية حال وجودها، وتجد هذه النسبة (الضريبة) في الدول الغربية تصل إلى 35 % أحياناً، حتى تكون الدولة قادرة على الإيفاء بحاجتها مما تدفعه إلى مواطنيها المحتاجين من صندوق الضمان الاجتماعي.

وأما الشيعة، فإن من استحق عليه منهم دفع ضريبة الخمس، فإنهم يدفعونها إلى العلماء المراجع الذين ينوبون عن الإمام محمد بن الحسن المهدي في غيبته، أو يصرفونها مباشرة في المشاريع الخيرية بإذن منهم. وفي نسبة الخمس ما يكفي العلماء لتحقيق استقلالهم عن السلطات الحاكمة على مر الأزمنة، وهم يستثمرونها في الصرف على المشاريع الخيرية ورعاية الفقراء والأيتام وبناء المساجد والحوزات العلمية (المدارس والجامعات الدينية).

والحق يقال إن هذه الاستقلالية لم تتوفر عند علماء أهل السنة، أو المدارس والهيئات الدينية التي يديرونها، مما يبقيهم تحت رحمة السلطان ويد الدولة، وما يعني ذلك من تأثير في الخط والمنهج بل والفتوى كما لا يخفى!

7 - الجهل والتخلف في القضايا الاجتماعية

ما أكثر القضايا التي تستحق النظر والاهتمام في هذا الجانب، حيث تجد بقاء ترسبات كثيرة من العادات والتقاليد التي عفى عليها الزمان في معظم بقاع العالم الإسلامي، لا بل الجاهلية منها، حتى أن الدين أصبح يحور ويشكل ليكون موافقاً لها ومنسجماً معها، وإلا تراه غائباً عن واقع الحياة الاجتماعية أو بعيداً عن التأثير فيها.

وتعتبر المسائل المتعلقة بالزواج من أكثر القضايا حيوية في أي مجتمع كان، وقد رأينا في هذه الناحية أخذ الزواج المؤقت كمثال:

فقد أجمع المسلمون في فهمهم حول الحكم التي جعلت الشارع المقدس يبيح رخصة تعدد الزوجات، فهم يرون فيها حلاً إلهياً لمشاكل كثيرة

لا تخفى على أحد، وذلك بالرغم مما قد يرافق ممارسة هذه الرخصة من إشكالات ناجمة عادة من سوء التطبيق لا من حكمة التشريع.

ولكن مما لا يزال المسلمون مختلفين حوله هو دوام إباحة الزواج المؤقت والمعروف بزواج المتعة [1]، والذي يراه المنطق والعقل السليم المتحرر من أغلال بعض العقد الاجتماعية المتوارثة حلاً لمشاكل عديدة يخفق في حلها الزواج الدائم أو تعدده، فضلاً عن تسيب العلاقات غير المشروعة وذلك بالرغم أيضاً مما قد ينجم من إشكالات سوء التطبيق.

وحتى أن الخليفة عمر بن الخطاب، المحرم الحقيقي لهذا النوع من الزواج، يعترف أن تشريعه كان لضرورة وحاجة، حيث يروي الطبري أن الخليفة عمر رد على انتقاد عمر بن سوادة له بهذه المسألة قائلاً: (إن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) أحلها في زمان ضرورة ثم رجع الناس إلى سعة، ثم لم أعلم أحداً من المسلمين عمل بها ولا عاد إليها، فالآن من شاء نكح بقبضة وفارق عن ثلاث بطلاق، وقد أصبت...) [2].

ويفند أحد المحققين المعاصرين رأي الخليفة هذا بالقول: (أما ما ذكره الخليفة في مقام العلاج من تبديل نكاح المتعة بالنكاح الدائم على أن يفارق [بالثلاث طلقات]، فالأمر ينحصر فيه بين أمرين لا ثالث لهما: إما أن يقع ذلك بعلم من الزوجين وتراض بينهما، فهو الزواج المؤقت أو نكاح المتعة بعينه، وإما أن يقع بتبييت نية من الزوج مع إخفائه عن الزوجة، فهو غدر بالمرأة واستهانة بها بعد أن اتفقا على النكاح الدائم، وأخفى المرء في نفسه نية الطلاق) [3].

---

(1) راجع هذا الموضوع في الفصل الثاني من القسم الثاني.
(2) تاريخ الطبري، ج 5 ص 32.
(3) مرتضى العسكري، معالم المدرستين، ج 2 ص 325.

وقد أخذ الشيخ عبد العزيز بن باز (مفتي الديار المقدسة) بقول عمر هذا ولكن على احتمال التفسير الثاني الذي يعني إخفاء نية الطلاق عن الزوجة، فأفتى ابن باز على ضوء ذلك بجواز (الزواج بنية الطلاق) كبديل عن المتعة والزواج الدائم، لمن أراد ألا يقع في الفاحشة من المسافرين الطلبة ورجال الأعمال والسواح!

وعلى كل حال، فإن الضرورة المجمع عليها، والتي من أجلها شرع زواج المتعة، لا يمكن أن تكون محصورة بتلك الحقبة الوجيزة في حياة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، فالمشكلة الجنسية ليست خاصة بعصر دون آخر، ولا بأماكن أو أقوام دون غيرها، لا بل أن هذه المشكلة في تفاقم مستمر في كل مكان، إن لم تكن المشكلة الاجتماعية الأولى هذه الأيام لأسباب كثيرة لا تحتاج إلى توضيح.

وإن كان رفض فكرة التوقيت في الزواج نابعاً من أسباب نفسية، وعادات وتقاليد راسخة لا محيص عنها، فليكن ذلك، ولكن هذا لا ينبغي بأي حال من الأحوال، أن يكون دليلاً على حرمة هذا الزواج، فيوجد هناك أحياناً من المسلمين ممن يأنفون الحكم والقانون (الإلهي!) في تعدد الزوجات، ولو أبقى التشريع على عادات العرب وعاداتهم الذين أول من نزل فيهم الإسلام، لما زلنا نرى ممارسة وأد البنات لغاية هذه الأيام!، وإن كتبت لهن الحياة، فإنهن غالباً يعشن مهانات ومحتقرات إلى أبعد الدرجات.

وقد أقسم لي أحد الأصدقاء أن في بلدته النائية بأحد الأغوار رجلا لم يسمح لبناته الثلاث من الزواج، حتى شارفن الأربعين دون أي أمل يلوح في الأفق. والسبب؟ حتى لا يتمكن من ملامستهن أي رجل كائناً من كان!

وهذه الجريمة بنظري أعظم من جريمة وأد البنات!. ولا يزال سائداً في بعض البلدان الإفريقية (ومنها إسلامية) ممارسة جريمة ختان البنات. لماذا؟

للأسباب نفسها التي كان (يخصى) من أجلها العبيد في قصور الملوك أو حتى للأسباب التي تخصى من أجلها ذكور بعض البهائم للتدجين وقتل الشهوة الجنسية.

أو لا يزال سائداً أيضاً في بعض المناطق في بلاد العرب والمسلمين عادة قتل المرأة غير المحصنة لأقل شبهة أو إشاعة باقترافها الزنى، ودون أي تأن للتحقق والنظر، وبقاء الرجل المحصن المشهور باقترافه الفواحش كلها رافعاً رأسه ومحترماً بين الناس؟!

فهذه العقلية هي نفسها التي أيدت اجتهاد المتشددين بتحريم زواج المتعة، وأبقت على هذا المنع حتى صار ديناً بعينه!

أضف لكل ذلك أنه ما لا يناسب عادات مجتمع ما وتقاليده، لا يعني بالضرورة عدم ملاءمته لعادات المجتمعات الأخرى وتقاليدها، والإسلام لم يأت لقوم دون آخرين، وإنما هو صالح لكل زمان ومكان بكل ما تعني هذه الكلمات والتي حولها غالبية المسلمين إلى شعارات من دون معان.

فالمشكلة الجنسية أصبحت هذه الأيام، وأكثر من أي وقت مضى، أكبر من أن يكبتها أي حض خلقي، أو وعظ إرشادي، أو حتى مرض الايدز الذي أصبح مرض العصر من دون منافس!

وما دامت الشهوة الجنسية هي مما فطر الخلق عليها، فيستحيل كبتها، ولا يجوز التباطؤ في التعامل معها، وإنما يجب الإسراع بالاستجابة لمتطلباتها ضمن إطار نظام اجتماعي شامل.

وقد اشتهر الفيلسوف الإنجليزي المعروف برتراند رسل بتبنيه لحل مطابق لزواج المتعة، بعد أن رأى الانحطاط الذي وصلت إليه المجتمعات الغربية من جراء الإباحية المطلقة التي عولجت بها القضايا الجنسية وعلاقة الرجل مع المرأة هناك. فهو يرى (أن سن الزواج قد تأخرت بغير اختيار وتدبير، فإن الطالب كان يستوفي علومه قبل مئة سنة أو مئتين في نحو الثامنة عشرة أو

العشرين، فيتأهب للزواج في سن الرجولة الناضجة، ولا يطول به عهد الانتظار إلا إذا آثر الانقطاع للعلم مدى الحياة، وقل من يؤثر ذلك بين المئات والألوف من الشبان.

أما في العصر الحاضر، فالطلاب يتخصصون لعلومهم بعد الثامنة عشرة أو العشرين، ويحتاجون بعد التخرج من الجامعات إلى زمن يستعدون فيه لكسب الرزق من طريق التجارة أو الأعمال الصناعية والاقتصادية، ولا يتسنى لهم الزواج وتأسيس البيوت قبل الثلاثين، فهناك حقبة زمنية طويلة يقضيها الشاب بين سن البلوغ وبين سن الزواج لم يحسب لها حسابها في التربية القديمة، وهذه الحقبة هي زمن النمو الجنسي والرغبة الجامحة، وصعوبة المقاومة للمغريات، فهل من المستطاع أن نسقط حساب هذه الفترة من نظام المجتمع الإنساني كما أسقطها الأقدمون وأبناء القرون الوسطى!) (1).

ويجيب مستنكراً ذلك لأنه يرى (أننا إذا أسقطناها من الحساب، فنتيجة ذلك شيوع الفساد والعبث بالنسل والصحة بين الشبان والشابات) (2).

والحل الذي رآه: (وإنما الرأي أن تسمح القوانين في هذه السن بضرب من الزواج بين الشبان والشابات لا يؤودهم بتكاليف الأسرة، ولا يتركهم لعبث الشهوات والموبقات، وما يعقبه من العلل والمحرجات) (3)، وقد سمى هذا النوع من الزواج (بالزواج العقيم أو الزواج بغير أطفال، وأراد به أن يكون عاصماً من الابتذال، ومدرباً على المعيشة المزدوجة قبل السن التي تسمح بتأسيس البيوت) (4).

(1) الفلسفة القرآنية للعقاد ص 73، نقلاً عن الدكتور رسل.
(2) المصدر السابق.
(3) المصدر السابق.
(4) المصدر السابق.

وما أروع ما روي عن عبد الله بن عباس في هذا المجال حيث قال:

(رحم الله عمر، ما كانت المتعة إلا رحمة من الله تعالى رحم بها أمة محمد، ولو لا نهيه لما احتاج إلى الزنى إلا شفا) [1]. والشفا يعني القليل.

ويعلق السيد محمد تقي الحكيم على هذه الحقيقة بقوله: (وأرجو أن نتأمل كلمة (رحمة) و (احتاج) فهي من أروع الدلائل على عمق هذا الرجل وفهمه للمشكلة، وحسبه أن يرى أن الزنى مما يحتاج إليه أحياناً، وليس ينطوي دائماً على التحدي للتشريع، فصاحبه مريض والمريض يحتاج إلى العلاج، وقد جعل الله في المتعة علاجه، فهي رحمة له، والحقيقة أن تشريع الحد في الزنى، والشذوذ الجنسي لا تتضح عدالته إذا لم نفهم مختلف الحلول التي وفرها الشارع لمشكلته، فمع تخطيها جميعاً، وتحدي الشارع بالعمل على إشاعة الفوضى الجنسية ينكشف أن هذا النوع من المرض النفسي لا يمكن علاجه والحد من انتشار وبائه إلا بأمثال هذه الجرعات) [2].

---

(1) الثعلبي والطبراني في تفسيرهما (2) محمد تقي الحكيم، الزواج المؤقت، ص 11.

الخلاصة والخاتمة

إن أهم ما يمكن استنتاجه من هذا البحث أن ما جعل من الخلاف الذي حصل في صدر الإسلام حول خلافة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، وإمامة الأمة بعده أزمة على مر العصور هو أن هذا الخلاف لم يكن مجرد خلاف سياسي بين أشخاص تنافسوا على الوصول للسلطة والحكم، ولم يكن مجرد فتنة وقتية حدثت بين الصحابة وانتهت برحيلهم، وإنما كان فوق كل ذلك خلافاً حول المسار الذي ينبغي على المسلمين اتباعه في تحصيل معارف الدين من عقائد وسنن وأحكام.

وهذا يؤكد ما بيناه في بداية البحث أن المفهوم القرآني للخلافة والإمامة يتلخص في اعتبارها الخلافة الإلهية في الأرض، والأمانة أو العهد الذين يربطان العباد بمعبودهم، وما يعني أن أي خلل في فهم هذا المبدأ أو تطبيقه، سيؤدي حتماً إلى حدوث خلل في فهم عقائد الإسلام، وانحراف في تطبيق أحكام الشرع. ونجمل ذلك في نقاط:

صراع الخطط والإرادات

لقد كان واضحاً أن التخطيط الإلهي ببعثة سيدنا محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) كان يهدف إلى تبليغ الرسالة ليس إلا (وما أرسلناك إلا شاهداً ومبشراً ونذيراً)، فقال جل وعلا بعد نجاح هذه المهمة: (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً). وأما التخطيط الإلهي بحصر خلافة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)،، فقد كان يهدف إلى إتمام نور الرسالة على يد هؤلاء الأئمة، والذين خصتهم العناية الإلهية بالعناية والتسديد (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً) [الأحزاب / 33].

فلم يكن دور الأئمة حسب هذا التخطيط حفظ الرسالة وصيانتها من التحريف والتشويه فحسب (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) بل أيضاً تعليمها وإرشاد الناس إليها على مر العصور (لكل قوم هاد)، على أن يكون ذلك بخطوات تدريجية تمهيداً لإتمام النور الإلهي في جميع أركان الأرض في عهد الإمام الثاني عشر، والذي ستكون خلافته تتويجاً لجميع رسالات السماء، وتحقيقاً لأهداف الأنبياء والرسل (ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون * هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون).

ولا يمكننا فهم إبعاد هذا التخطيط عن جريانه الطبيعي، كما حصل فعلاً بتهمش دور الأئمة عليه السلام، إلا بفهم القوانين والسنن التي جعلها الله سبحانه وتعالى المبدأ الأساس الذي يحكم العلاقة بين الهداية الربانية وحرية إرادة الإنسان واختياره (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) [الرعد / 11].

فالتخطيط الإلهي من إرسال الأنبياء إلى بني إسرائيل على سبيل المثال، لم يكن يهدف إلى قتل هؤلاء الأنبياء وإنما لاهتداء الناس بهم. فأما قتلهم فكان ناتجاً عن تخطيط بشري أدى إلى انتصار إرادة الباطل، فكان جواب الأنبياء والدعاة إلى الحق للمعاندين والكارهين للهداية على مر العصور (قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي وآتاني رحمة من عنده فعميت عليكم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون).

وهذه القوانين والسنن هي التي تفسر سياسة الأئمة الاثني عشر منذ لحظة وفاة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) تجاه الأوضاع التي كانت تمر بهم وتحكم علاقتهم بالسلطة وجمهور الأمة.

فالأسباب التي أدت إلى إبعاد التخطيط الإلهي القاضي باستخلاف أهل البيت عليه السلام لم تكن محصورة في الأشخاص الذين اجتهدوا بالتصدي لولاية أمر المسلمين على طريقتهم الخاصة، وإنما تعود إلى عدة عوامل مجتمعة،

أبرزها العقلية القبلية والتي اتضح من صراع السقيفة وما بعدها. إنها كانت لا تزال سائدة في مجاميع المهاجرين والأنصار، وبكل ما في هذا النهج القبلي من حب السلطة والجاه، والتمكن والانتصار للشخص والعشيرة وغير ذلك من الاعتبارات الجاهلية، ومما كان دليلاً أكيداً على عدم تشرب نفوس المسلمين لغاية ذلك الحين بروحية الإسلام وفكرته ورسالته.

وقد عبر الإمام علي عليه السلام عن رفضه لما جرى في السقيفة بتخلفه عن بيعة أبي بكر ستة شهور، ولكنه آثر أخيراً البيعة لما استسلم له الناس، واختار أن يبقى على مقربة من النظام القائم، لتحققه من أن المصلحة الرسالية العليا تتطلب منه ذلك، لا سيما لبقاء وجود قدرته على التأثير في الحفاظ على تعاليم الإسلام من التحريف والتشويه، وباعتبار أن الخلفاء الثلاثة الأوائل قد بايعهم الناس على أن يعملوا بكتاب الله وسنة نبيه.

وهذا المبدأ هو نفسه الذي يفسر رفض الإمام علي عليه السلام الأولي للخلافة بعد مقتل عثمان، ولم يقبلها إلا بعد إصرار الناس عليه، وإظهار رغبتهم الأكيدة لخلافته، فأصبحت الفرصة بمبايعة المسلمين له مهيأة لتوحيد الخط والفكر والمنهج، لأن خلافته عليه السلام هي الوحيدة التي أجمع المسلمون على صحتها على مر العصور باختلاف فرقهم ومذاهبهم، وهي المعياد التي يجب أن تقاس به أي خلافة كانت، سواء كانت بنص من الله ورسوله، أو كانت بشورى حقيقية من الناس. فخلافة علي عليه السلام هي الغاية والمثال الأعلى فيما ذهب إليه أهل السنة والشيعة بقولهما في الخلافة، وهو الوحيد الذي استحق عند أهل السنة من بين جميع الخلفاء على مر العصور لقب (الإمام)، وعند الشيعة من بين جميع الأئمة الاثني عشر لقب (أمير المؤمنين).

ولكن هيهات، فقد أبى الشيطان إلا أن يخرج بقرنه، فماجت الأرض، وهدرت دماء المسلمين بسيوف المسلمين، حتى تحول عهد علي عليه السلام إلى

عصر دام بأبشع صور التمرد والعصيان عن طاعة أمير المؤمنين وخليفة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وإمام الزمان!

وبسبب انتصار تلك الإرادة التمردية، وخصوصاً مع خذلان شيعة الإمام علي عليه السلام وتقاعسهم عن نصرة حقهم، وما تبع ذلك من تنازل الإمام الحسن عليه السلام لمعاوية بن أبي سفيان المتلهف للوصول للخلافة والملك مهما كلف الثمن، فكان الصلح الاضطراري حقناً للدماء وحفاظاً للوجود الإسلامي من الزوال التام، فبذلك تكون الأمة قد اختارت مرة أخرى لنفسها منهجاً مغايراً لما أراده الله، والذي جلت قدرته وحكمته لم يكن ليلزمها على الناس وهم لها كارهون!

ولأن هذه التحولات قد صاحبها كل أنواع الفوضى والاضطراب، وقد أحدثت التباساً في الفهم لدى كثير من المسلمين في تلك الأثناء، لا سيما بعد مقتل عثمان، حتى قورن علي بمعاوية (!)، بل أنه وبفضل أجهزة الدعاية الأموية، فإن غالبية مسلمي الولايات والأمصار خارج مكة والمدينة أخذوا يصدقون أن علياً عليه السلام قد حرف فعلاً سنة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، وساعد على قتل عثمان، ولم يعد مستغرباً إذا أن يسب الإمام ويلعن على منابر جمع المسلمين، وأعيادهم، ثم تحدى معاوية لكل مشاعر المسلمين، ولكل قانون إلهي، ولكل سنة نبوية (أو حتى عمرية!) بتوريثه الخلافة لابنه الفاجر المراهق يزيد، وخلافاً لما تعاهد عليه مع الحسن عليه السلام، فإنه وبسبب كل هذه المستجدات، فقد أصبح بتقدير الإمام الحسين عليه السلام أنه لم يعد هناك إسلام يخاف خسارته، بل أنه رأى عليه السلام أن مسخ الدين أو القضاء التام عليه سيكون بالسكوت والرضا بالأمر الواقع، فكان قراره بعدم مبايعة مثل هذا اللون من أولياء الأمور، والثورة ضد هذا اللون من الأنظمة الإسلامية، لا ليجلس على كرسي الخلافة، وإنما لإزاحة اللثام عن قبح الوجه الأموي المتظاهر بالإسلام، فانفضح أمر هذا النظام، وانكشف في أقبح صوره

الجاهلية، فيكون الناس جميعاً (لا سيما من غفل وضلل، وليس أناس ذلك الزمان فحسب بل كل من كان سيغفل ويضلل بعدهم وعلى مر العصور) قد تميزت أمامهم معايير الحق من الباطل إلى الأبد، فيحيى من حيي على بينة، ويهلك من هلك على بينة. فثورة الحسين كانت لإنقاذ الإسلام، ولم تكن محصورة الغاية بذلك الزمان. فثورة كهذه إذا نظرنا إليها بهذا البعد، فإن ذكراها تستحق أن يغلب فيها الابتهاج والسرور أكثر من البكاء والعويل!

وهكذا كانت سيرة من تلا الحسين من الأئمة عليه السلام مرهونة بالظروف والمستجدات، فتختلف استراتيجيتهم في العمل والتحرك على ضوئها، فالأدوار تتنوع والهدف واحد.

ولأن غالبية هؤلاء الأئمة قد لاقوا التعذيب والقتل على أيدي الأنظمة القائمة، فإنه وبمجئ آخرهم كان يعني استمرار هذا المسلسل الإجرامي بحقهم، فكانت غيبة الإمام الثاني عشر تجسيداً لانتصار الإرادة البشرية الرافضة للهداية الإلهية من جهة، ومؤشراً على تأجيل تنفيذ الخطة الإلهية إلى الوقت الذي يغير فيه الناس من نظراتهم ومواقفهم تجاه إمام زمانهم، فيبحثوا عنه بصدق، ويوالونه بمعرفة وإخلاص، عندئذ يظهره الله سبحانه وتعالى تأييداً لهم. وبهذا المعنى، يكون الإمام المهدي هو الذي ينتظر الناس وليس العكس!.

صراع الفرق والروايات

من الخطأ الفاحش جعل الانتماء للفرقة أو المذهب المعيار الأساس في بحث مسائل الخلافة والإمامة، لأن غالبية الفرق والمذاهب كانت إما من صنع الأنظمة القائمة، أو ممن تأثر بها، فهي بمبادئها وتعاليمها التي تعرف بها هذه الأيام لم تكن موجودة أصلاً عند تولد أزمة الخلافة والإمامة بعد وفاة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، ولغاية تطورها واستفحالها في خلافة علي وبداية ملك معاوية.

وهذا يعني لزوم التحرر التام عند بحث مسائل كهذه من كل تلك الأهواء المذهبية، والتي تجد أغلبها قد صدر بدوافع المصالح الذاتية أو المؤقتة وبأجواء مشحونة بالتعصب والأحقاد من غير المنطق والعدل إقحام مسلمي هذا الزمان فيها!

والمعيار نفسه ينبغي استخدامه عند الأخذ بأي حديث أو رواية من كتب الصحاح عند أهل السنة كصحيحي البخاري ومسلم، أو الكتب الأربعة الرئيسية عند الشيعة كالكافي. فليس كل ما في هذه الكتب صحيحاً، بل إن الضعيف والموضوع فيها أكثر من الصحيح والموثق، فلا يصح إذا الاعتماد على ما في هذه الكتب من مرويات للبت والحكم في قضايا مصيرية كقضية الخلافة والإمامة، لا لشئ إلا لأن الصحابي الفلاني رواها، أو الشيخ الفلاني وثقها، ما لم تكن مؤيدة بقرائن أخرى تجعلها فوق أي شبهة وشك.

وأما سبب توثيق غالبية رجال الحديث لكثير من تلك الروايات الموضوعة التي ذكرنا منها أمثلة عديدة، والمروية عن طريق الصحابة كأبي هريرة، فهو راجع إلى الصورة الوهمية التي رسمتها أجهزة الدعاية والإعلام الأموية عنهم، حيث جعلتهم بمرتبة قريبة جداً من التقديس والعصمة. وإلا فما معنى اعتبار استحالة الكذب عليهم مع أنهم رفعوا السيوف في وجه بعضهم بعضاً. لا بل أعطيت لبعضهم مرتبة من الالهام والتسديد فوق ذلك لدرجة أصبحوا فيها يصححون النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في مواقف زعم أنه (صلى الله عليه وآله وسلم) كان قد أخطأ فيها، وهو الذي (لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى).

فالصحابة أصبحوا حسب هذه الحالة القدسية الجيل الفريد الذي لم ولن يأتي جيل أفضل منه، حتى أصبح الشرع عند أهل السنة بعد كتاب الله وسنة نبيه هو ما عمله الصحابة ورضوا به، بما في ذلك كل ما يتعلق بأمر خلافة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وإمامة الأمة بعده.

ولأنه كان مما عمل به الصحابة ورضوا به استخلاف ومبايعة أئمة أقل ما يقال فيهم بأنهم كانوا جاهلين ويعملون على تجهيل الشريعة وتحريفها، فإن غالبية علماء أهل السنة على مر العصور لم يشترطوا في حكام المسلمين توافرهم على مؤهلات تنسجم مع سمو الشريعة وخطورة حفظها والقيمومة على أحكامها، فاعترفوا وأقروا تبعاً لذلك بشرعية الخلفاء حتى (غير الراشدين) منهم.

فيتضح من ذلك كله نتائج إبعاد أئمة الهدى من أهل البيت عليه السلام عن المواقع التي اختارهم الله سبحانه وتعالى لها وآثار ذلك الإبعاد. فتهميش دورهم يعني تهميش رسالة الإسلام، وقتلهم يعني قتل رسالة الإسلام، فهذه الأهمية اختصرت في قوله تعالى عندما أمر نبيه بإعلان ولاية علي على الملأ بعد حجة الوداع: (يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس)، [المائدة / 67]، وفي قوله (صلى الله عليه وآله وسلم) في خطبة حجة الوداع: (أيها الناس: إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا، كتاب الله وعترتي أهل بيتي). فاستحق الإمام علي بصدق قول النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) له: (لا يحبك إلا مؤمن ولا يبغضك إلا منافق)، وقوله (صلى الله عليه وآله وسلم): (أنا مدينة العلم [الحكمة حسب رواية أخرى] وعلي بابها، فمن أراد المدينة فليأتها من بابها).

وأهل البيت عليه السلام على كل حال لا ينبغي وضعهم في قوالب الفرق والمذاهب، فهم فخر الإسلام، وشرف كل مسلم أن ينتمي إليهم، لا بل لا يمكن للمسلم أن يكون مسلماً دون حبهم واتباعهم، ولا يجوز كذلك لأي فرقة ادعاء احتكار حبهم واتباعهم دون غيرها. وأما بنو أمية، فمن العار ربط شرعية خلافتهم بشرع الإسلام!

واعتراف أهل السنة بخلافة وإمامة أهل البيت عليه السلام لا يعني بالضرورة أنهم أصبحوا من الشيعة بالمفهوم الشائع لهذه الكلمة، فهذه التسمية فقط هي

التي تحجب الكثيرين عن رؤية هذه الحقيقة، وتمنعهم من التفاعل معها. فما الذي يمنع أن يسمى المؤمنون بخلافة أهل البيت عليه السلام وإمامتهم أهل السنة إذا كانت هذه التسمية تعني اتباع السنة النبوية المطهرة، فليس المهم الأسماء، ولكن ما تحمله هذه المسميات والمصطلحات من معان!

وفي الوقت نفسه، فإنه ليس كل من قال بخلافة أهل البيت وإمامتهم عليه السلام أو انتسب إليهم، يعني إعطاء شهادة التوثيق له بسلامة الخط والمنهج. فالشيعة في هذا الزمان، وبعد ما يزيد على أحد عشر قرنا من غيبة الإمام المعصوم، هم كأهل السنة مطالبون في البحث عن المنهج الأصيل الذي يجسد بحق مسار أهل البيت عليه السلام.

فكما أن أهل السنة مطالبون بعدم قبول أي اجتهاد لصحابي كان أو غيره خالف القرآن والسنة، واستنكار كل ما وضعه أبو هريرة وغيره من الصحابة من أحاديث يستحيل على العقل السليم قبولها، أو تلك الخرافات والخزعبلات، وما نقل من إسرائيليات ملأت الكتب المسماة ظلماً وزوراً بالصحاح، فإن الشيعة أيضاً مطالبون برفض كل ما نسب كذباً لأهل البيت عليه السلام، واستنكار كل تجاوز أو غلو باسم التشيع لآل البيت عليهم السلام.

خاتمة المطاف

لقد أشارت روايات عديدة أن خلقاً كثيراً من أهل السنة والشيعة على السواء سيقفون في وجه خليفة رسول الله الثاني عشر الإمام المهدي عند ظهوره.

فضعف الفكر المتوارث، وهشاشة معظم المفاهيم والتباسها على غالبية أبناء الأمة في هذا العصر، وحالة التشتت والضياع التي يعيشونها، ووجود تلك الهوة الكبيرة بين ما هو إسلام اسمي وظاهري جاف من كل معنى يدينون به، وإسلام واقعي أصيل يقولون به، ما هي إلا أسباب أولية تجعل من

المسلم عدواً لإمام زمانه عند ظهوره، بل إنه قد يكون يعيش حالة العداء هذه قبل ذلك دون أن يدري بحاله!

ولأنه ليس كل ما ورثه المسلمون بسنتهم وشيعتهم من أسلافهم يمثل واقعاً إسلامياً ينبغي تقديسه، فإنه لا سبيل للخروج من هذه الحالة الجاهلية إلا بأن يبدأ أبناء الأمة بنهضة توعية شاملة في الفكر والثقافة الإسلامية الأصيلة، وعلى مستوى الفرد والمجتمع، وعلى أساس من العقيدة الباعثة على الحركة، والمنهج الواعي والمتحرر من غبار وترسباته، بما في ذلك التعصبات الطائفية والمذهبية التي ينبغي أن لا ينظر إليها إلا كواقع سلبي فرض على المسلمين طوال تاريخهم، وأن ينظر إليها أيضاً من زاوية آثارها السلبية والمدمرة على الثقافة الإسلامية ووحدة المسلمين.

وهذا يلزم دراسة الإسلام بعقائده وشرائعه وتاريخه مجدداً، والتحقق منها لا سيما على ضوء كثير من الحوادث التي حصلت في صدر الإسلام.

فما وافق منطق القرآن والأحاديث المجمع على صحتها والعقل السليم يجب الأخذ به دون أدنى تردد، حتى لو كان مخالفاً للمذهب أو المعتقد الذي أورثنا التعصب له، أو كان موافقاً لأفكار ومعتقدات أورثنا جهلها، فضلا عن رفضها وتكفير أصحابها!

وهذا الأمر يلزمنا بدوره محاولة التحرر قدر الامكان من أسر الفرقة أو المذهب أو الحزب أو الحركة أو الخط أو غير ذلك من الأطر، والتي غالبا ما تجعل من المنتمين المتعصبين إليها مقدسين لها وعابدين، وقد استغرقوا في الانغلاق داخلها دون أن يشعروا، فيصبحوا من المغفلين بل المقبورين. كل ذلك على حساب الانفتاح والمرونة في السعي لتحصيل الحقائق، أو البحث عن الصراط المستقيم الذي يفترض أن لا يتوقف الإنسان في البحث عنه لحظة واحدة في حياته، مهما بلغ عنده من العلم والمذهب!

(اللهم أحي بوليك القرآن، وأرنا نوره سرمداً لا ليل فيه، وأحي به القلوب الميتة، وأشف به الصدور الوغرة، واجمع به الأهواء المختلفة على الحق، وأقم به الحدود المعطلة، والأحكام المهملة، حتى لا يبقى حق إلا ظهر، ولا عدل إلا زهر، واجعلنا يا رب من أعوانه وناصري سلطانه والمؤتمرين لأمره، والراضين بفعله، والمسلمين لأحكامه، وممن لا حاجة به إلى التقية من خلقك، وأنت يا رب الذي تكشف الضر، وتجيب المضطر إذا دعاك، وتنجي من الكرب العظيم، فاكشف الضر عن وليك واجعله خليفة في أرضك كما ضمنت له. اللهم لا تجعلني من خصماء آل محمد عليهم السلام، ولا تجعلني من أعداء آل محمد عليهم السلام، ولا تجعلني من أهل الحنق والغيظ على آل محمد عليهم السلام، فإني أعوذ بك من ذلك فأعذني، وأستجير بك فأجرني، اللهم صل على محمد وآل محمد واجعلني بهم فائزاً عندك في الدنيا والآخرة، ومن المقربين، آمين رب العالمين).